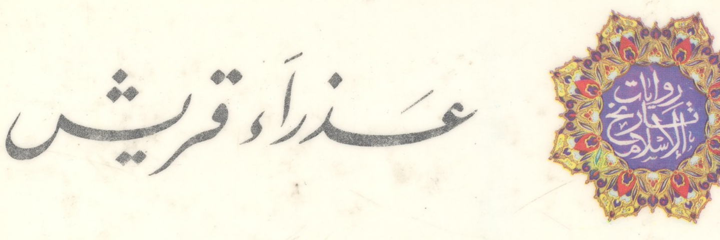


عذراء قريش

جرجي زيدان

عذراء قريش

الرواية الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان بن عفان وخلافة الامام علي ، وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعتي الجمل وصفين الى تحكيم الحكمين وخروج مصر من خلافة الامام علي

جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

✡ **عثمان بن عفان**	: ثالث الخلفاء الراشدين
✡ **على بن ابى طالب**	: رابع الخلفاء الراشدين
✡ **عائشة ام المؤمنين**	: زوجة النبى صلى الله عليه وسلم
✡ **نائلة بنت القرافصة**	: زوجة الخليفة عثمان
✡ **محمد بن ابى بكر الصديق**	: اخو عائشة
✡ **عذراء قريش**	: اسماء بنت مريم
✡ **مريم ام اسماء**	: من سبايا فتح مصر
✡ **مروان بن الحكم**	: ابن عم عثمان بن عفان
✡ **معاوية بن ابى سفيان**	: اول ملوك الدولة الأموية
✡ **عمرو بن العاص**	الحكمان فى الخلاف
✡ **ابو موسى الاشعرى**	بين على ومعاوية

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

✡ معجم ياقوت	✡ تاريخ الخميس
✡ السيرة الحلبية	✡ صحيح البخارى
✡ قاموس الاسلام	✡ مراصد الاطلاع
✡ صفوة الاعتبار	✡ نهج البلاغة
✡ أسد الغابة	✡ كتب تاريخ : ابن الاثير ـ المسعودى
✡ الأغانى للاصفهانى	ـ الدميرى ـ أبو الفداء ـ
✡ العقد الفريد	ابن خلدون ـ ابن هشام

سر ذاهب إلى القبر

« قباء » : قرية على بعد ميلين من المدينة المنورة «يثرب». اشتهرت بعد الهجرة بنزول صاحب الشريعة الاسلامية بها فى أثنــاء هجرته الى المدينة وبنائه فيها مسجدا هو أول مسجد فى الاسلام

وكانت قباء قد اشتهر امرها وعرفت مكانة مسجدها فى خلافة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وبعد اتخاذ المدينة عاصمة ، وقد عنى الخلفاء بتحسين ذلك المسجد وبخاصة الخليفة عثمان اذ وسعه وزاد فيه وخصص نفرا لخدمته . على أن ذلك لم يزد كثيرا فى سكان قباء نفسها

وكان لذلك المسجد فى اواخر خلافة عثمان خادم طاعن فى السن اسمه « عامر » شهد بناء المسجد ، ورأى صاحب الشريعة يوم نزل هناك وامر ببنائه ، فأقام عامر بقباء هو وعياله ، يقضى نهاره فى خدمة المسجد وتنظيفه ، فاذا فرغ من ذلك خرج بأولاده يرعى ابل أحد اغنياء المدينة فى بعض الأودية الكثيرة فى تلك المنطقة

ففى مساء يوم من أيام سنة ٣٥ من الهجرة ، خرج الشيخ لرعاية الابل فأوغل فى بعض الأودية حتى اقترب الغروب فأسرع بالرجوع راكبا ناقته وقد أرخى لها الخطام وأخرج مسلة مغروسة فى شعر رأسه المتلبد ووخز بها الناقة بين جنبيها استحثاثا لها على المسير فطارت به ، وكان اولاده يتبعونه على بقية النوق وقد ركب اصغرهم ناقة عارية ، ووضــع آخر أمامه على ناقتــه أخشابا جمعهــا من غصــون الشجر المتساقطة ليوقدوا نارهم بها ، وكانت النوق كلها مطلقة الزمام . والشيخ أعجل الجميع خشية أن تغيب الشمس ويحين وقت صلاة المغرب قبل وصوله. ورأى الشمس كأنها تسرع فى الغروب فخيل اليه أنها تسابقه فجعل يستحث ناقته ، غير عابىء بجمال الصــحراء فى تلك الساعة ، اذ امتدت الظلال حتى اختلط بعضها ببعض، فلم يفرق بين ظلال النخيل وظلال غيرها من الشجر ، وبين ظلال الآدميــين . وكذلك غفل الشيخ لعجلتــه ولهفتــه عن الشذا المنبعث من نبات الصحراء . ولم يستوقف سمعه شدو الطيور ولا نقيق الضفادع .

على أنه لم يكد يشرف على قباء حتى سمع رغاء الجمال وصهيل الخيل، ولما قارب المسجد راى هناك ركبا معهم الجمال والأحمال فلم يستغرب ذلك اذ تعود ان يرى كثيرا من امثاله كل عام ، لأن القوافل كانت تمر بقباء فى طريقها الى المدينة فتقف للراحة والاستقاء . فازداد رغبة فى العجلة ليقوم بخدمة القادمين ، والتفت خلفه ونادى أحد اولاده وقال له : « أسرع الى البيت وعد الى بجرة الماء لعل فى الركب من يحتاجون اليه »

□

وظل الشيخ مسرعا ، وكلما اقترب من المسجد وتوقع أن يتبين الوجوه حجبها عنه تكاثف الشفق حتى وصل فاذا الركب بضعة رجال وفتاة، ومعهم خيل وجمال . وقد تجمعوا بحنو ولهفة حول هودج عليه الأستار وفيه مريض يحاولون اخراجه الى مقعد فى خيمة نصبوها بالقرب منه ، وما أن استخبرهم حتى علم انهم قادمون من الشام الى المدينة ، فعجب لمرورهم بقباء وهى ليست فى طريقهم اليها . ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام من القباء والرداء والعمامة ، وبجانبه شاب حسن البزة عليه عباءة من الصوف وسيفه مرصع ، ووراءه خادم يحمل له الرمح والنبال، وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب مشرقة ممتلئة صحة ونشاطا ، على رأسها عقال. وزاد فى اشراق وجهها ما اكتسبه من التورد على أثر التعب وركوب الجواد اياما فى الصحراء . فلما رآها الشيخ استرعى انتباهه ما آنسه فيها من شدة الاهتمام بأمر المريض ، ورآها ترشدهم كيف يحملونه ويغفلونه ويعتنون به . فترجل الشيخ عن ناقته وصاح : «أهلا بوجوه العرب» . ثم تقدم لمساعدتهم وتفرس فى المريض فاذا هو امراة فى حدود الأربعين قد بلغت منتهى الضعف حتى يحسبها الناظر اليها ميتة . واشارت اليه الفتاة الا يدنو من المريضة لأنهم يريدون حملها بأنفسهم . فتنحى وأمر اولاده أن يساعدوا الخدم فى نصب الخيام وانزال الأحمال ، وسقى الجمال والخيل وغير ذلك ، وسار هو الى المسجد للأذان والصلاة

واستمر الرجال فى نقل المريضة ، وكانت الفتاة واسمها « أسماء » لا تنى فى اعداد كل وسائل الراحة لها ، ولا عجب فالمريضة امها وقد شبت على حبها . اما الكهل فزوج المريضة ، واسمه « يزيد » وكان قليل العناية بأمرها الا بما توحيه اليه الفتاة . وأما الشاب فاسمه « مروان » وكان الزهو ظاهرا فى وجهه لقرابته من الخليفة عثمان ابن عفان

ولما حلوا المريضة الى فراشها ، جلست أسماء بجانبها ، واخذت تمسح العرق المتصبب من وجهها وهي غائبة عن الصواب ، وكانت الدموع تملأ عيني الفتاة ولكنها كانت تتجلد لئلا يغلبها البكاء فتسمعه امها فيزداد تألمها . وكانت تمسح دموعها خلسة ونظرها لايتحول عن وجه المريضة لحظة

ولما ارخى الليل سدوله ، جاءهم عامر بمصباح ادخلوه الخيمة ، والفتاة لا تفتأ تنظر الى امها لعلها تفتح عينيها أو تحرك شفتيها او تلتمس امرا فتقدمه لها ، غير عابئة بالكهل زوج امها ، ولا بذلك الشاب الذى قطع البرارى والقفار فى خدمتها عساه أن ينال حظوة فى عينيها. وكان الشاب قد طلب الاقتران بها منذ كانوا فى الشام فلم ترض به هى ولا أمها ، وان رضى به يزيد رغبة فى الدنيا وطمعا فى منصب يناله . ولم يكن يعطف على الفتاة ، لأنها ليست ابنته ولا يعرف لها ابا ، اذ كانت امها حين تزوجها سبية من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، وكانت هى فى الثانية من عمرها حينذاك . وبعد فتح الاسكندرية عاد بهما الى الشام فاقام فيها مع ذوى قرباه من بنى امية

وكان يزيد كهلا اشيب الشعر ، قصير القامة ، خفيف العضل ، متجعد الوجه ، غائر العينين ، يحب المال حبا جما ، وكان الى ذلك سيء الخلق . واعتقد اهل الشام أن اسماء ابنته ، وان عجبوا لاختلافهما خلقا وخلقا . فقد كانت على جانب عظيم من المهابة والجمال ، جمعت بين لطف النساء وحزم الرجال وشجاعتهم ، وكان الناظر اليها لا يسعه الا ان يحترمها ، فاذا خاطبها آنس منها رقة وانفة ودعة وأريحية . وكانت ربعة ممتلئة ، حنطية اللون ، سوداء العينين حادتهما ، طويلة الأهداب ، مقرونة الحاجبين ، دقيقة الفم ، سهلة الجبين تغضى العيون مهابة التفرس فى وجهها . اشتهرت بين أهل الشام بكل خلق حسن ، وأحبها مروان وجعل يتقرب منها وهو يحسب تقربه منة وكرما . وانها لا تلبث أن تطير فرحا لأنها من عامة الناس وهو ابن عم الخليفة عثمان . وكان الخليفة يؤثر ذوى قرباه من بنى امية ويقدمهم فى مناصب الدولة ويفتح لهم ابواب الرزق ، الامر الذى ادى الى قيام المسلمين عليه حتى تحدثوا فى عزله وكانت الفتنة المشهورة . وظل مروان يتردد على منزل يزيد وكلاهما من بنى أمية ، فيحتفل يزيد به ويود لو يتزوج أسماء فيحظى من الخليفة بمنصب ، فلما خاطبه مروان فى ذلك أكد له انه نائل الفتاة لا محالة ، اعتمادا على ان القول قوله فى امر زواجها .

ولكنه ما ان خاطب امرأته فى الامر حتى رأى منها اعراضا واباء ، وكلما الح بشدة عليها راحت تماطله . وادركت الفتاة ما بينهما من اجلها فاشتد نفورها من مروان ، لأنها لم تكن تعتد بزخارف الدنيا ولكنها كانت تهوى الشهامة وكرم الاخلاق ، فلم يقع مروان من نفسها موقع القبول . ولما ازداد الحاح يزيد خشيت الأم أن يستعمل العنف فى تنفيذ مأربه واستولى عليها القلق ، حتى نزل بها الداء ووهنت قواها ، فخافت الموت ، وطلبت أن تحمل الى المدينه على أن تجيب طلب مروان هناك

وسر بذلك مروان ، اذ حدثته نفسه بانه اذا جاء المدينة كان بالقرب من ابن عمه الخليفة عثمان ، فلا تعود الأم الى التردد خشية غضبه . وكان السفر سببا فى اشتداد مرض الأم وأسماء لا تعلم سر ذلك الانتقال ، حتى خلت ذات يوم الى أمها وعاتبها على ما حملت نفسها من المشقة ، فأسرت هذه اليها أنها تنوى الاستجارة بعلى بن أبى طالب لعله ينقذها لما اشتهر به من اغاثة المظلومين . ولما له من المكانة عند الخليفة والمسلمين

وما زال المرض يشتد بالأم يوما بعد يوم . وزوجها ومروان يودان لو قضت نحبها قبل الوصول الى المدينة . لأنهما عرفا شيئا عن حقيقة غرضها ، فكانا يطيلان مدة السير ويقودان القافله فى طرق طويلة حتى مروا بقباء وهى فى الجنوب الشرقى من المدينة

□

كانت الأم المريضة ــ واسمها «مريم» ــ بيضاء ، تحبو الى الاربعين من عمرها ، رومانية الملامح ، كبيرة العينين ، وقد زادهما الضعف جحوظا . وكانت منذ نقلوها الى الفراش فى سبات عميق وأسماء بجانبها تمرضها ولا تأذن لاحد أن يأتى بحركة لئلا يزعجها . ولكنها لخوفها على أمها لم تكن تستطيع النظر الى ذلك الوجه المتقع وتينك العينين الغائرتين والعنق المستدق ، وقد غطاه من الجانبين شعر اسود يخالطه بعض الشيب بلله عرق الحمى فتجمع خصلا متلاصقة ، واشد ما كان يخيفها أن صدر أمها كان غائرا لفرط الضعف ، وان فمها اتسع واستطال حتى برز فكاه ، فلم تكن أسماء تتأمل فى ذلك المنظر حتى يختلج قلبها وتخاف الموت على والدتها فى تلك البرية . وكلما امسكت بيدها لتعرف مدى حرارتها أحست العرق البارد يبلل اناملها ، ومما زادها بلاء وشقاء أن يزيد ما برح منذ نزولهم معتكفا فى خيمة مروان ،

ولا يدخل خيمة امراته الا قليلا ، متظاهرا بالاهتمام بها ، بينما المكر والرياء ظاهران فى وجهه ، وأما مروان فكان اذا دخل الخيمة دخل متبخترا لايدنو من الفراش ولكنه ينظر الى اسماء ويبتسم كأنه يداعبها وهى لا تستطيع الابتسام ولا تطيق النظر اليه

فلما كان العشاء حركت النائمة رأسها وفتحت عينيها وحولت حدقتيها الى أسماء وقد بهتتا من شدة الضعف ، فهبت الفتاة واقفة وسألتها عما تريد ، فأشارت تطلب الماء فأسرعت الى القدح وأدنته من شفتيها فشربت منه قليلا ، وانبسطت لذلك أسارير أسماء وعاودها الأمل ، ووقفت تنتظر ما تطلبه منها ، فلما لم تقل شيئا انحنت على جبينها وقبلته وامسكت يدها بلطف وقالت لها : « هل تريدين شيئا يا أماه ؟ »

فأجابتها بصوت ضعيف وعيناها شاخصتان اليها : « لا . لا أريد شيئا الا سلامتك ، ولكننى قد لا أستطيع الوصول الى المدينة ، ولا أظننى اعيش الى الغد فقد شعرت بدنو الأجل » . قالت ذلك والدموع تتساقط من عينيها فتختلط بعرقها . فاقشعر بدن أسماء وخفق قلبها ، ولكنها تجلدت وتظاهرت بالابتسام وقالت : « لا سمح الله بسوء يصيبك يا أماه ، فانك ستصبحين فى خير فنركب معا الى المدينة باذن الله »

فتبسمت الأم تبسما يمازجه البكاء ، وقالت : « اسمعى يا بنيتى ، ما أنا آسفة على هذه الدنيا ، ولكن فى نفسى أمرا أود قضاءه قبل الوفاة »

قالت أسماء : « وما هو ذلك الأمر يا أماه ؟ »

قالت : « هو أن التقى بعلى بن أبى طالب فأكلمه دقيقتين قبل الموت »

قالت : « غدا نلتقى به فى المدينة »

قالت : « قلت لك اننى لا آمل ان ارى صباح الغد يا بنيتى »

فهمت أسماء بتقبيلها وهى تحاول حبس الدمع ، فضمتها مريم الى صدرها بقوة لم تكن أسماء تعهدها فيها وعانقتها ، فتساقطت دموع أسماء برغم ارادتها ثم احست بدموع أمها تتساقط على عنقها سخينة تمازج ذلك العرق البارد ، واشفقت بعد ذلك عليها ، فنهضت وتجلدت وقالت : « لا بأس عليك يا أماه فهل تطلبين عليا لتكلميه فى شأنى ؟ »

قالت : « نعم وفى شأن آخر هو سر حرصت على كتمانه اعواما ، وقد آن لى أن أبوح به »

فقالت : « ما العمل اذن ؟ » . قالت : « استقدموه الى ، قولوا له ان امرأة على فراش الموت تلتمس لقياك لتنبئك سرا وتشكو اليك امرا »

فخرجت اسماء الى صحن الخيمة فرأت يزيد ومروان واقفين بازاء نخلة كأنهما يتساران ، فلما رأياها أسرعا معا وقالا : « كيف حال أمك ؟ لعلها فى خير » . قالت : « انها أفاقت وطلبت أن ترى عليا بن ابى طالب »

قال يزيد : « وكيف تراه الآن وهو فى المدينة »

قالت : « لقد طلبت استقدامه اليها بالحاح »

قال مروان : « استقدامه ؟ ! ومن يستطيع ذلك ؟ »

قالت : « لا أراه يأبى المجىء اذا قيل له ان امرأة تحتضر تلتمس مقابلته فانه على خلق عظيم »

قال : « لا شك فى عظم خلقه ، ولكنه الآن فى شغل شاغل بأمر المسلمين واختلافهم فى شأن الخليفة ! »

ولما لاحظ استغرابها ما ذكره ، أخذ فى توضيح الأمر فقال :« سمعت قبل خروجنا من الشام ان أهل الامصار ناقمون على عثمان ايثاره ذوى قرابته فيولى العمال منهم ويعزل الذين ولاهم اسلافه ، كما علمت أن أهل مصر خرجوا يلتمسون المدينة ليشكوا أمرهم الى على لعله يحكم فيما بينهم وبين عثمان . وكذلك أهل البصرة وأهل الكوفة، واظنهم وصلوا الى المدينة الآن ، فلا يستطيع على تركهم والمجىء الى هنا »

قالت وقد ملت الجدل : « ان امى تطلب عليا بالحاح فما علينا الا أن نبعث فى طلبه »

قال : « سأرسل فى ذلك أحد رجالى ، ثم اذهب انا فى اثره استعجله » . قال ذلك وامر احد الأتباع بالذهاب الى المدينة ، ثم ذهب هو على اثره

عادت أسماء الى والدتها فاذا هى فى غيبوبة ، فمكثت ساعة فى انتظار الرسول ، ولما استبطأته خرجت من الخيمة وتوجهت بنظرها الى المدينة والظلام حالك فلم تر احدا ، فصعدت الى مرتفع أشرفت منه على ابنية المدينة فلم تر منها الا المسجد النبوى والأنوار تشعشع فى بعض جوانبه . ولو أنها لم تصعد الى ذلك المرتفع ما استطاعت



« وأمسكت أسماء يدها بلطف وقالت لها : « هل تريدين شيئاً يا أماه ؟ »

رؤية المدينة ، لأنها قائمة فى منبسط من الارض تحدق بها جبال تنحدر منها السيول على اثر الأمطار فيصبح السهل المجاور لها مستنقعات وآبارا تجتمع فيها المياه على مدار السنة ، وتنمو حولها أشجار الصفصاف والبلسان والنخيل وكثير من الأعشاب . فلما اطلت أسماء على المدينة راعها منظر ما بينها وبين قباء من المياه المتجمعة التى انعكست على سطحها اشعة الكواكب ، غير أن ذلك لم يكن ليشغلها عن مرض والدتها ، فعادت مسرعة الى الخيمة ، فرات أن يزيد قد توسد الارض خارج الخيمة ونام ، فأسفت لما رات من فقده المروءة والشعور ، ولكنها لم تستغرب ذلك ، لأن أمها كانت قد قالت لها غير مرة ان هذا الرجل ليس اباها . ولكنها كتمت عنها اسم أبيها وظلت تعدها بأن تنبئها به . فلما رات ماأبلغته والدتها من الضعف فى تلك الليلة خافت ان اصابها سوء ان يبقى أبوها مجهولا عندها ، فدنت من فراشها وهي ما برحت غائبة ، فأمسكت يدها الباردة ولمست جبينها المبلل بالعرق فاضطربت جوارحها وخافت على والدتها فى ذلك القفر ، واستنكفت أن تخاطب يزيد فى الأمر احتقارا له ، فهمت بالخروج لاستقدام خادم المسجد لعلها تجد عنده امراة تستأنس بها ، فرات أمها تحرك راسها وترفع يدها كأنها تشير اليها ان تدنو منها فدنت وهمت بها فقبلتها وقالت : « ماذا تريدين يا أماه ؟ »

قالت : « ألم يأت على ؟ » . قالت : « لم يعد رسولنا بعد »

فالت : « أخاف ألا يعود وقد نفد صبرى وخارت قواى ، استقدموا عليا قبل فوات الفرصة »

فقالت : « لا يلبث على أن يأتى . ألا تبوحين لى بما تريدين أن تقوليه له ، ألم يأن لى أن أعرف من هو أبى »

قالت : «ستعرفينه متى جاء على» . ثم تنهدت وقالت : « آه . . » !

□

فلما سمعت أسماء ذلك اشتد حزنها وقلقها ، ولاسيما انها خشيت أن يكون ذهاب مروان فى اثر الخادم سببا فى تأخير قدوم على ، فعزمت على المسير بنفسها وهي لم تكن قد دخلت المدينة قبل الآن ولكنها استسهلت كل صعب فى سبيل مرضاة امها ورغبتها فى استطلاع ذلك السر ، فشدت عقالها حول رأسها وتلثمت حتى لم يبق ظاهرا من وجهها الا عيناها وتزملت بالعباءة فوق ثيابها فأخفت رداءها النسائى وركبت جوادها وكان لايزال مسرجا ، وايقظت يزيد واوصته

بوالدتها خيرا وهمت بالخروج فلم يطاوعها قلبها خوفا على امهـا . فوقفت متحيرة ، ثم تذكرت خادم الجامع فسارت اليه وكان قد فرغ من الصلاة فسألته عن امراته فقال : « هى فى خدمتكم » . وناداها فجاءت فاذا هي عجوز ولـكنها نشطة سمحة الوجه ، فاوصـتها بأن تساعد يزيد فى السهرعلى امها فى اثناء غيابها ، وخرجت ولم تخبر امها لئلا تمنعها من الذهابواتخذت انوار المسجد النبوى قبلتها ، وهمزت الجواد ، وكان من أصائل الخيل ، فجرى وهو تارة يغوص فى منخفض ، وطورا يصعد على اكمة ، وهى لا ترى شيئا لفرط قلقها واضطرابها الا اشباح النخيل والبلسان ، حتي دنت من سور المدينـة واهتدت الى بابها فدخلتمنه الي أسواق ضيقةمتعرجة لايكاد يمر بها الجواد، ولكنها على ضيقها مزدحمة بالنـاس واكثرهم من الغرباء ، فعلمت ان ما قاله مروان صحيح ، فسألت رجلا يبيع التمر عن منزل « على » فدلها عليه وهو يحسبها رجلا فهمزت الجواد واسرعت فلم تبلـغ باب المنزل حتى كبا جوادها فسقطت ، وكادت تلقى حتفها ولـكنها لم تبال بل نهضت وتلمست باب المنزل ، ولم تكد تدركه حتى سـمعت صريره فوقفت تنتظر فتحه فخرج اليها شـاب طويل القامة لم تتبين وجهه لشـدة الظلام ، وكان قد سـمع كبوة الجواد فاسرع نحوه فراى فارسـه قد وقف وهو لايزال ملثما فاستقبله وسأل عن خبره وهو يظنه رجلا

فقالت أسماء : « لعل مولانا عليا فى المنزل ؟ » . قال : « كلا ليس هو هنا الآن ، ماذا تبغى منه فانى أرى لهفتك وعجلتك »

قالت : « نعم جئت فى أمر مهم ، ولكننى لا اقوله الا لعلى نفسه »

قال : « انه خرج فى الغروب الىالمسجد ، وقدمضت صلاة الغروب وصلاة العشاء ولم يعد ، فهل تذهب معى للبحث عنه هناك ؟ »

قالت : « نعم هلم بنا » . ثم انطلقا وكل منهما يريد الوصول الى باب المسجد ليرى وجه صاحبه على الضوء لعله يعرفه ، وكان الشاب أكثر رغبة فى ذلك لأنه استغرب صـوت أسماء ولم يبين شيئا من وجهها أو ثيابها . اما هى فمشت تقود جوادها وراءها حتى بلغا الجامع ، فاذا هو مزدحم بالناس بين جاث وواقف ولم يبق به موقف لطفل ، وكلهم صامتون وقد تكاثفت أنفاسهم وانبعثت من باب الجامع حرارة ممتزجة بروائح اجسامهم واثوابهم حتى لقد يشعر المار بالازدحام وان لم ير الناس . فلما وصل الرفيقان الى الباب واستنارا بمصابيح الجامع نظر كل منهما الى زميله فرأت أسماء رفيقهـا رجلا حسن اللباس يظهر من حاله أنه من الصحابة أو بعض أولادهم . اما هو فلم ير غير اللثام فاستغرب تلثمها ومنعه الحياء من التحرى

عثمان بن عفان

وهمت أسماء بالدخول الى الجامع فامتنع عليها لكثرة الناس وهيبة لاجتماع ، فوقفت بالباب وهي على مثل الجمر ، ووقف صاحبها الى جانبها ، فارتاحت لما آنسته من رقة شعوره وعلمت ان الدخول الى علي يستحيل اذ ذاك ، فلما دعاها الى الاستراحة على البطحاء ، وهي مقاعد من الحجر او الخشب انشاها عمر بن الخطاب خارج الجامع يجلس عليها الناس للاستراحة والمحادثة او المناشدة ، لم تستطع أسماء جلوسا لعظم قلقها ولكنها التمست مكانا تربط فرسها فيه اذا اضطرت لدخول الجامع ، فامر رفيقها غلاما ممن يلتقطون النوى فى اسواق المدينة وهم كثيرون أن يمسك الفرس فأمسكه وسار به الى مرابط الخيل بين الاشجار هناك

اما اسماء فنظرت الى صدر المسجد فرأت على منبره رجلا ربعة ليس بالطويل ولا القصير ، حسن الوجه لولا ما عليه من اثر الجدرى ، كبير اللحية عظيمها ، وقد خضبها بالحناء أسمر اللون ، أصلع الراس ، عظيم الكراديس ، عظيم ما بين المنكبين ، وكان واقفا على المنبر وقد توكأ على سيف واجال نظره فى الحضور وهم بالكلام . فنظرت اسماء الى رفيقها مستفهمة ، فقال : « هذا عثمان بن عفان يخطب فى الناس»

فقالت : « لعل هذا الجمع من أهل المدينة ؟ » . قال : « كلا هم وفود أهل مصر والبصرة والكوفة ، وقدجاءوا يشكون عثمان ويتذمرون من أعماله ، وقد شكوه من قبل هذا الى علي بن ابى طالب ، فانبه علي ، فدعاهم الى المسجد ليخطب فيهم ، واظنه سيلتمس لنفسه عذرا فلنسمع ما يقوله »

فنظرت أسماء الى الخليفة وعيناها لا تقفان عليه لتضعضع حواسها ، فرأت بجانبه رجلا عرفت انه مروان فقالت فى نفسها : « بئس الشاب هو ، لقد جاء الى ابن عمه ونسي المهمة التى جاء فيها » . وجالت بنظرها فى الجمع متفرسة لعلها ترى عليا ، غير انها لم تكن تعرفه فقالت لرفيقها : « الا ترى عليا بين الناس » . قال : « اظنني رأيته . نعم أراه جالسا بقرب المنبر وقد اطرق يفكر ، فنظرت اليه فاذا هو

فوق الربعة ضخم العضل ، جيل الخلقة وقد وخطه الشيب فلم يخضب شعره ، وآنست منه على شدة هواجسه ابتساما ظاهرا فى وجهه ، فشعرت عند رؤيته بارتياح واستأنست بطلعته وحدثتها نفسها ان تخترق الجماهير اليه فاوقفها الحياء ولبثت تنتظر انتهاء الخطيب من خطابه وهى فى قلق شديد

وانتصب عثمان ويمناه على السـيف وهى ترتعش لعظم تاثره ، ثم مسح لحيته بيساره ومشط شعرها باصابعه والاضطراب ظاهر عليه ، فحمد الله واثنى عليه وصلى على الرسول ثم قال : « يا اهل الأمصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبوننى بامور لم اكن انا الذى ارتكبتها وحدى ، فان صاحبى اللذين توليا قبلى (يريد ابا بكر وعمر) قد ظلما انفسهما ، وان رسول الله (ص) كان يعطى قرابته . وانا فى رهط اهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من ذلك ، لما اقوم به فيه فان رايتم ذلك خطأ فردوه : فامرى لأمركم تبع . واما ما تريدونه من الفتنة أو الخلع فانكم قد اسرعتم فيما عزمتم ، ووالله لئن فارقتكم لتتمنون ان لو كان عمرى عليكم مكان كل يوم سنة ، لما سترون من الدماء المسفوكة والاحن ، والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة »

وكان على فى اثناء الخطاب مطرقا مصغيا لا يبدى حراكا حتى اتى عثمان على الفقرة الاخيرة فحرك على حاجبيه وحنى راسه تصويبا لقوله : « لما سترون من الدماء المسفوكة الخ . . . »

واما اسماء فلا تسل عن قلقها ومللها وكان رفيقها واقفا الى جانبها وقد شغل عنها بما ثار من عواطفه عند سماعه كلام عثمان ، ومال الى افهام رفيقه الملثم جلية الخبر تشفيا من عثمان . ولكنه اراد قبل ذلك أن يعرف من هو ، ثم تنسم من لهجتها صوتا نسائيا ولكنه أستبعد أن يظهر فى النساء مثل هذه الهمة . فصبر حتى انتهى عثمان من خطبته وقال لها : « اراك يا سيدى خالى الذهن من مغزى كلام الخليفة ولكى تتفهمه أوضحه لك باختصار ، ان خليفتنا هذا هو ثالث الخلفاء الراشدين تولى الخلافة منذ بضع عشرة سنة وحالما تولاها عزل الولاة الذين كانوا قبله ممن ولاهم الخليفة عمر ، وولى مكانهم رجالا من بنى امية اى من اقاربه ، ووسع ابواب الرزق لأهله وضيقها على سواهم فثار المسلمون فى الاعمال (الولايات) . وهم أهل مصر والكوفة والبصرة . أما اهـل الشـام فانهم على دعوة عثمـان لان عاملهم هو معـاوية بن ابى سفيان من اقرباء الخليفة . واما اهل الأمصار الثلاثة الباقيـة فنقموا على هذا الرجل وجاءوا فى رجالهم يطلبون خلعه وتولية غيره مكانه ، ولا يليق بالخلافة بعده الا على بن ابى طالب فانه ابن عم النبى

(ص) ووصيه . ولكن بين الذين يطمعون فى الخلافة الآن اثنين من الصحابة هما طلحة والزبير ، فالخلافة اذا خلع عثمان بين الثلاثة على وطلحة والزبير ، ووفد مصر يريدونها لعلى ، ووفد الكوفة يريدونها للزبير ، ووفد أهل البصرة يريدونها لطلحة . ولكنهم متفقون جميعا على خلع عثمان . وأما على فلا رغبة له فى الخلافة ولكنه يخاف الفتنة بين المسلمين بسبب ذلك الخصام »

وكانت أسماء تسمع كلام رفيقها وهى لا تفهم منـــه شيئا لعظم أضطرابها ، ولكنها لم تر بدا من الصبر لأنها رأت عثمان عاد يتكلم . وما أتم عثمان كلامه حتى ضج الناس فعلمت أنهم خارجون فحمدت الله على فراغه فتنحت ريثما يخرج الجمع وقد زاغت عيناها وهى تتفرس فى الجماهير لعلها ترى عليا خارجا معهم فخرج الكل ولم تره بينهم فتحولت نحوالجامع وكان رفيقها قد سبقها اليه فوقفت تنتظره فعاد وحده فلما استقبلها سألها : « هل رأيت عليـــا ؟ » . فذكرت انها لم تره ، فجعل يبحث بين الناس ولكنه لم يجده

□

عاد الى الجامع وقد خلا من المصلين وأخذ الخدم فى اطفــاء المصابيح فخافت أسماء أن يمنعوها من الدخول ، ولكنهم لما رأوا رفيقها وسعوا لهما فعلمت انه من كبار القوم ، فدخلا الى المسجد فرأت المــكان خاليا ووقف الرجل ووقفت وجعلا يفكران ، وبعد برهة قال الرجل : « أظنه دخل حجرة امرأته فاطمة بنت النبى (ص) فانها مدفونة فى حجرة بازاء هذا المسجد وكثيرا ماكنا نراه يدخلها لزيارة ذلك الاثر الشريف فلا بد من الانتظار ريثما يخرج »

فقالت : « لاصبر لى يامولاىعلى الانتظار دعنى ادخل اليه واخاطبه فان الامر الذى جئت من أجله يقتضي العجلة وهب اننى أسأت الادب فى استعجاله فانه سيعذرنى منى عرف السبب . دعنى أدخل الحجرة»

فأجابها بصوت خافت : « تمهل يا صاح لنثق من دخوله اليها » . ومشيا الهوينى وهما حافيان لايسمع لمشيهما وقع ، حتى انتهيـــا الى الحجرة من باب صغير . وهى بناء مربع واطىء فى وسطه ضريح السيدة فاطمة . فدخلا الحجرة والرجل ممسك بيد أسماء وقد ساد السكوت والظلام ذلك المكان المهيب . فوقفا لحظة لعلهما يسمعان حركة او نطقا أو يريان شبحا فلم يسمعا شيئا ولم يريا شيئـــا . فهالهما الموقف ولم يتجرأ أحدمنهما علىالكلام ولكنهما تفاهما بالاشارةعلىالرجوع ، وفيما

هما يسيران سمعا صوتا عميقا كأنه خارج من القبر فاقشعر بدنهما ووقف شعر راسيهما والرجل لا يزال قابضا على أنامل أسماء ، فلما سمعا الصوت شعر بارتعاش تلك الانامل شعورا امتد الى كل جوارحه فاوما اليها ان تنصت فأنصتا فاذا الصوت خارج من حجرة الرسول بالقرب من حجرة فاطمة وبينهما حائط . واصغيا فاذا هو صوت على ابن أبى طالب يناجي الرسول بصوت يتخلله تحرق وزفير . فوقفا وقلباهما يخفقان وهما يمسكان أنفاسهما كانما يخافان ان يختلط زفيرهما بما يسمعان . واليك ما سمعاه :

« قم يارسول الله تعهد امتك وانظر الى ما آلت اليهحالها من بعدك ، لقد بعثك الله نذيرا للعالمين ، وامينا على التنزيل ، وليس أحد منالعرب يقرأ كتابا ولا يدعى نبوة ، وقد كانوا على شر دين فى شر دار ، يشربون الكدر ويأكلون العشب ، ويعبدون الاصنام ويسفكون الدماء ويقطعون الارحام . فسقت النـــاس حتى بواتهم محلتهم ، وبلغتهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم ، وجعل الله الاسلام امنا لمن علقه ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل، ولبا لمن تدبر ، وعبرة لمناتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل . فقام بنصرته قوم دعوا الىالاسلام فلبوه ، وقراوا القرآن فأحكموه ، قوم لايبشرون بالاحياء ولا يعزون بالموتى . مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الالوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين . قد كنت يا رسول الله تأكل على الارض ، وتجلس جلسة العبيد ، وتخصف نعلك بيدك ، وترقع ثوبك بيدك ، وتركب الحمار العارى . ولقد يكون الستر على بابك عليه التصاوير فتقول لاحدى أزواجك : (غيبيه عنى ، فانى اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها) . وكنت يا رسول الله اذا احمر البأس ، واحجم الناس ، تقدم اهلك فتقى بهم أصحابك ، حتى قتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد ، وقتل جعفر يوم مؤتة ، هـذه هى سننك وتلك هى قدوتك . فلما فارقتنا خلفك شيخ (ابو بكر) حارب المرتدين ، وأيد الدين القويم ، وخلفه رجل فتح الامصار ودون الدواوين وشاد للعدل منارا ، فاعتز به الاسلام ، وامتدت رايته على العراق وفارس ومصر والشام ، وفر من وجهه كسرى وقيصر، والناس يومئذمجتمعون حول الدعوة آخذون بناصرها بقلب واحد ، حتى تولاهم عثمان وهو شيخ صادق الاسلام ، ولكنه استأثر بالسلطة وآثر اهله على سائر المسلمين ، فقام عليه قومة رجل واحد ، وتجمعوا على نبذ طاعته واقروا علىخلعه لاترهبهم خلافته ، ولا يخشون سطوته . كأن الناس انما أذعنوا لأهل السابقة

من الصحابة لما كانوا فيه من الذهول والدهشة لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة ، فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال ، واستفحل الملك انفت نفوس المسلمين من غير قريش وهان عليهم نبذ طاعة الصحابة ، حتى بلغ من جراتهم التمرد على الخليفة ، فعظمت الفتنة وخفت ماخوفتنيه يوم سالتك عن الفتنة فقلت لي : (يا على ان القوم سيفتنون بعدى بأموالهم ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ويأمنون لسطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء الساهية) . آه يا رسول الله ، لقد طالما نصحت لهذا الخليفة الا يكون امام هذه الامة المقتول ، فانه كان يقال : (يقتل فى هذه الامة امام يفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، ويلبس أمرها عليها ويثبت الفتن فيها) . ولكنه انصاع الى شاب من اهل قرابته (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء بعد جلال السنين وتقضى العمر »

ولما بلغ على الى هذا القول زفر زفرة سمعتها اسماء وصاحبها ، كما سمعاه يبكى بكاء تقطع له قلباهما ، وهما لايكادان يصدقان انهما يسمعان عليا يبكى، فبهتا وهما يحسبانه يهم بالنهوض ثم سمعاه يقول :

« هذه هى حال أمتك يا رسول الله . فانى اشكو اليك قوما افترقوا بعد الفتهم ، وتشتتوا عن أصلهم ، فكل منهم آخذ بغصن اينما مال مال معه ، حتى أصبحت الاحوال مضطربة والايدى مختلفة والكثرة متفرقة ، أما انبأتك صفيتك (فاطمة) النازلة بجوارك بتضافر امتك على هضمها . وانى اخاف أن الحق بكما والحال على ما وصفت فاستحيى أن احمل اليك خبر هذه الفتنة التى اخافها ان تفرق كلمة الاسلام . فادع لنا ربك أن يجمع كلمتنا ويلم شعثنا ويأخذ بناصرنا فنعلم مكان الخلافة منا والسلام عليك حتى نلتقى »

▭

وسمعت اسماء وصاحبها عليا وهو يقرأ الفاتحة ، فعلما انه يتأهب للنهوض فأسرعا فى التقهقر حتى خرجا من الحجرة الى المسجد وخرجا منه الى البطحاء وقد خف الازدحام لتفرق الناس الى منازلهم ، فوقفا ينتظران عليا فقال الرجل: « اظنه لايخرج من هذا الباب فلنقف له بالباب الآخر». فناديا الغلام قائد الفرس فتبعهما ومشيا وقد نفد صبر اسماء وانهكها الملل . ولم يمشيا قليلا حتى لقيا عليا خارجا من باب الجامع ومنديله لايزال فى يده يمسح به عينيه ثم جعل يصلح عمامته ويسرح لحيته بأنامله ويمشى الهوينى كأنه عائد من سفر طويل

فتقدم الرجل اليه وحياه فقال على : « مرحبا بابن ابى بكر اهلا بك

يا محمد ما الذى جاء بك ؟ » . فعلمت أسماء انه محمد بن أبى بكر وكانت تسمع به . قال : « لقد جئتك بقادم غريب قد انهكه البحث . قال : « لماذا لم تنزله فى دار الاضياف . اين هو ؟ »

فتقدمت أسماء والقت التحية وهى لاتزال ملثمة وقد التفت بالعباءة فنظر على اليها فعلم انها متنكرة لأمر ذى بال فقال لها : « ما غرضك يا أخا العرب ؟ »

قالت : « لقد جئت ادعوك لغوث امرأة مريضة فى خطر شديد تلتمس أن تراك لتبث لك سرا ضننت به علينا جميعا »

فقال : « ومن تكون هذه المراة ؟ » . قالت : « هى أمى وأما زوجها فهو من بنى أمية وقد جئنا بها من دمشق فتحملت مشاق السفر والمرض على أمل أن تبلغ المدينة فتطلعك على ذلك السر فاشتد عليها المرض حتى لم تعد تستطيع الوصول

قال : « أين هى الآن ؟ »

قالت : « هى فى قباء على مقربة من هذا المكان »

قال : « هيا بنا اليها . هل ترافقنا يا محمد ؟ »

قال : « انى فى خدمتك حيثما سرت ، واذا رايت ان اقوم بهذا الامر دونك لما انت فيه من المشاغل الكثيرة فعلت فتبقى انت هنا »

قال : « لاباس من ذلك ولكننى أخشى أن يكون مجيئى اليها واجبا وهى امراة فى مرض شديد تجب علينا اغاثتها » . قال ذلك ومشى نحو البيت يلتمس فرسه ومشى الاثنان فى اثره ومحمد ينظر الى أسماء خلسة لعله يستطلع شيئا من امرها . وهى تطلب الى الله أن يعجل على فى الخطى . ولكنه لم يمش قليلا حتى لقيه رجل مهرول وعليه أمارات البغتة . فقال له : « ما وراءك ياغلام ؟ »

قال : « لقد عاد المصريون الينا بعد خروجهم »

فقال : « وكيف عادوا وقد عهدناهم راضين بما وعدهم به الخليفة من الاصلاح ؟ »

قال : « لا ادرى الا انهم عادوا الينا غضابا ، وهم ينتظرونك فى فناء دارك »

فقال على : « لاحول ولا قوة الا بالله » . وسار وهو يهز راسه وينظر الى محمد ، وكان هذا فى مثل حاله من العجب لما سمعه . فقال على : « ما بال هؤلاء القوم لايريحون لنا بالا ؟ انى أرى مشكلتهم هذه لا تنحل الا بفتنة تؤول الى الفشل ، فوالله انهم ليرومون أمرا عظيما أخشى منه اختلال الحال »

فقال محمد : « لايخلو رجوعهم من أمر ذى بال » . وأسرعا حتى أتيا بيت على فرايا النــاس عند بابه زرافات ووحدانا بين فارس وراجل ، وقدعلت ضوضاؤهم ، فلما أشرف على عليهم ترجل الراكبون وهرول الواقفون نحوه وفى مقدمتهم رجل لايزال بثياب السفر، فحيىعليا فرد التحية وقال له : « ما الذى عاد بكم الينا وكنا قد فضضنا بينكم وبين عثمان ووعدكم خيرا ؟ »

قال : « انه لم يعدنا الا خداعا » . قال ذلك ومد يده فأخرج أنبوبة من الرصاص فتناولهــا على ومشى الى مصــباح مضىء عند باب الدار ونظر فرأى فيها صحيفة من جلد اخرجها وقرأ فاذا كتاب من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيها بجلد زعماء المصريين الذين قدموا المدينــة لمطالبته ، وحبسهم ، وحلق لحاهم ، وصلب بعضهم . فبغت على لذلك وتأمل الصــحيفة فاذا فى ذيلها خاتم عثمان ، وكان يختم كتبه بهــذه العبارة : « لتصبرن أولتندمن» . فتحقق انه خاتمه فقال : « وما الذى اظفركم بهذا الكتاب ؟ »

قال : « برحنا المدينة أمس على ما وعدنا هــذا الرجل من الاصلاح وصدعنا بأمرك ، فلم نكد نخرج حتى لقيناغلام عثمان على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيههذه الانبوبة وفيها هذه الصحيفة»

فقال على : « انا لله وانا اليه راجعون. ما بالنا لانكاد نرتق فتقا حتى نرى غيره ؟ ما الذى غير عثمان وحمله على هذا العمل ؟ »

فقال محمد بن ابى بكر : « انها فعال مروان بن الحكم ابن عمه ، فقد كان غائبا فى الشام ولم يأت المدينة الا فى غروب هذا اليوم ، ونظنه هو الذى أغرى عثمان بذلك »

فتأفف على وقال : « تبا لهذا الشاب انه لايدل الا على الشر »

فلما سمعت أسماء ذكر مروان عرفت انه هو طالبها ورفيقسفرتها فازدادت كرها له وقالت فى نفســها : « قبحه الله انه لا يزال عثرة فى طريقنا وايقنت ان ذلك سيكون سببــا فى عدول على عن المسير معهــا فخاطبت محمدا فى الامر ، فقال : « لا تخف يا صاح اننــا منجدوك . . وخاطب عليا فى ذلك فقال له : « انى أخاف اذا برحت المدينة فى هــذا الليل ان يقع ما نندم عليه . سر يا محمد مع هذا النزيل وافعل ما تراه وقم عنى فى كل خير يرجونه ثم عد الى بالخبر »

فلم تعد تتجرأ أسماء على الالحاح فقنعت بما وقع مخافة ان يقع ماهو شر منه فالتفتت الىفرسها فاذا بالغلام يقوده وراءها فتهيأت للركوب. وبعث محمد فاستقدم فرسه ، وركب الاثنــان ومحمد ينظر اليها وهى تركب لعله يرى بعض ثيــابها تحت العباءة فى أثنــاء الركوب فلمح من

بونها شيئا أحمر اللون يشبه تياب النساء ولكنه ما زال مستبعدا مثل هذه الجرأة من امرأة

وسار الاثنان يلتمسان قباء لايكلم أحدهما الآخر ، ولكن محمدا كان شديد الميل الى معرفة حقيقة رفيقه بعدما استه فبه من أمره . فخرجا من المدينة والظلام حالك وبعد هنيهة أشرفا على قباء . فلما اطلت اسماء على خيمة أمها عرفتها من النار المضيئة خارجها فخفق قلبها مخافة أن يكون قد وقع فى اثناء غيابها ما يوجب حزنا ، فهمزت الجواد فطار بها حتى سبق جواد محمد بنساتها على مسه . ولم يدركا الخيمة حتى خرجت امرأة خادم الجامع لاستقبالهما ، فترجلت أسماء عند باب الخيمة وترجل محمد ، ثم دخلت وهى تحل عقالها وتنزع العباءة عن كتفيها ودنت من سرير أمها فاذا هى قد أفاقت وفتحت عينيها ونظرت الى أسماء بلهفة وعيناها تنظران الى باب الخيمة كأنها كانت تتوقع دخول احد وقالت : « أين على ؟ »

فخافت اسماء اذا أخبرتها الحقيقة أن تحدث لهاحدثا فيزيدمرضها فقالت لها : « انه آت يا أماه » . واغرورقت عيناها بالدموع

وذهب محمد فى أثر أسماء يتفرس فيها على نور المصباح فلما نزعت عقالها راى شعرها من الوراء طويلا مسترسلا ، ثم نزعت العباءة فبان رداؤها الارجوانى اللامع وهو عبارة عن قفطان من الديباج عليه منطقة من جلد عريضة تعودت لبسها فى السفر فتحقق انها فتاة فشعر باعجاب غريب ولم يبق بعد ذلك الا أن ينظر الى وجهها فأسرع فى أثرها حتى دنا من السرير فاعترضه منظر والدتها . وحالما وقع نظره عليها هاله نحولها وفرط سقمها وامتقاع لونها وشخوص عينيها ، ولكنه التفت الى أسماء فاذا فيها فضلا عن الجمال هيبة وجلال ، كأنما هى ملكة وجبار معا ، فلم يتمالك عن الاعجاب بها والانعطاف اليها وأحس باحساس غريب نحوها

□

اما هى فقد كانت فى شاغل عن حاله بما هى فيه من القلق على أمها ، كانت قد اطمأنت قليلا لما رأتها منتبهة وقد ندمت على عودتها بغير على ، ولكنها ايقنت ان مجيئه لم يكن ممكنا والناس فى انتظاره عند منزله على تلك الصورة . ثم حولت وجهها نحو محمد وعيناها شاخصتان اليه لا تتحركان الا تكلفا فلم تتفرس فيه قليلا حتى تساقطت دموعها على خديها . فلما رآها محمد تبكى انفطر قلبه فخاطب المريضة قائلا: «كيف أنت ياخالة ؟ »

فقالت : « ابن ابى بكر ؟ »

فلما سمع قولها اقشعر جسمه ، وابتدرها قائلا : « اجل انى هو ، ماذا تأمرين ؟ »

قالت : « أين هوعلى؟ » . قال : « قد بعثنى لانوب عنه لانه فى شاغل مهم فأمرى بما تريدين »

قالت : « لا اريد احدا غيرعلى ، ادركونى به . لا اريد احدا سواه » . قالت ذلك وظهر الكدر فى وجهها

فعجبت اسماء لما سمعت امها تقول : « ابن ابى بكر » . وشعرت عندما سمعت اسمه من فمها بارتياح اليه ولكنها تململت لاصرارها على استقدام على فقالت لها : « الا تزالين تطلبين عليا ؟ »

قالت : « نعم لا ازال اطلبه ادركونى به فان فى نفسى سرا لا ابوح به الا له ، ادركونى به قبل انقضاء اجلى »

فنظرت اسماء الى محمد نظرة استحثاث اثرت فيه تاثيرا غريبا ، وشعر كأن نظرها اخترق صدره حتى وقعت سهامه فى قلبه فنهض للحال وقال لاسماء : « اذا لم يكن بد من استقدام على فانى ذاهب لاستقدامه » . وخرج فامتطى جواده وهمزه نحو المدينة وعزم على الا يعود الا بعلى

وخرجت اسماء تنظره فسمعت وقع اقدام جواده يخترق السهل ، وتذكرت يزيد فبحثت عنه فاذا هو نائم فى خيمة أخرى لايبالى شيئا فلم تكترث له

وعادت الى سرير والدتها وقلبها يخفق خوفا عليها فاذا هى قدغيرت وضعها فتحولت الى جنبها الآخر واطبقت، اجفانها بعض الاطباق او هى ارختها وعيناها مفتوحتان على كيفية لم تعهدها فيها من قبل ورأت حدقتيها قدجدتا وشخصتا فخافت من منظرها ونادت العجوز وكانت قد خرجت لحاجة فقالت لها : « مابال أمى قد غيرت وضعها ومالى ارى عينيها شاخصتين جامدتين ! »

فبغتت العجوز وقد ايقنت ان المريضة فى حالة النزع وبخاصة حين رات كتفها يختلج وتنفسها يسرع ، فامتقع لون العجوز وظهر الخوف عليها ، فادركت أسماء خوفها فصاحت بها : « مابالك خائفة ، لعل امى فى خطر ؟ »

فقالت : « عسى الا يكون خطر يا ابنتى والاتكال على الله » . وخرجت مسرعة

فاضطربت الفتاة وامسكت بيد والدتها فجستها فاذا هى باردة

جافة ، ونظرت الى عينيهـا وقد غارتا فى تجويفهما وذهب لمعانهمـا ، فارتعدت فرائصـها وخافت خوفا شـديدا واسرعت الى باب الخيمة لتستقدم العجوز

وفيما هي تتحول شهقت امها شهقة عنيفة فاجفلت وعادت الى السرير وهى تحسبها تتكلم فانحنت عليها وقبلتها فى جبينها فاذا هو بارد جاف فاقشعر جسمها وازداد خفقان قلبها واصطكت ركبتاها ، ولم تكن رأت ميتا قبل ذلك الحين ، فنادت العجوز فاتت ، فجعلت اسماء تنظر اليها وتتبين عواطفها فرأتها فى وجل فازداد خوفها ، فأعادت النظر الى وجه والدتها فاذا هى فاتحة فاها وقد برز فكاها واتسع شـدقها وسـكن اختلاج صدرها وبرز انفها واستطال ، واصفر لونها . فنظرت اسماء الى العجوز فرأتها قد خرجت من الخيمة فتبعتها فاذا هى تنادى يزيد وصوتها مختنق فتحققت وقوع القدر

فعـادت الى السرير وصـاحت : « أماه . أماه » . ولا من مجيب ، فدقت يدا بيد ولطمت فاذا بالعجوز عائدة وهى تلطم وتقول : « حلى شعرك يا ابنتى ، ان امك ماتت واحسرتاه »

فحلت اسماء شعرها واخذت تصيح وتلطم وجاءتها العجوز برماد لطخت به راسها ، وكان يزيد قد افاق فجاء ، واخذوا فى العويل والنوح فتجمع اهل القرية على صياحهم وعلا البكاء ، ولم يفعل أحد منهم فعل اسماء فانها كادت تقتل نفسها لفرط البكاء والندب واللطم ، وعبثـا كانوا يخففون عنها فكم القت نفسـها فوق والدتها وتوسـدت جثتهـا واخذت فى تقبيلها وهى تقول : « لمن تركتنى يا أماه ؟ ولمن اشكو همى بعدك ؟ ومن يخبر عليا عن السر ؟ ومن يحمينـا من غدر الخائنين . آه من الزمان ، لعل أجلك قد ساقنا الى هـذه الصحراء لتدفنى فيها . ما النفع من بقائى بعدك وقد اصبحت وحيدة يتيمة لا سـند لى ولا معين ؟ »

وأما يزيد فكان يتظاهر بالبكاء ولا تذرف له دمعة

وفيما هم فى ذلك سمعتهم اسماء يقولون : « جاء على » . فصاحت صيحة ارتج لها المكان وقالت : « لقد أبطأت يا ابا الحسن ، ان أمى ماتت ومات سرها معها » . ثم نظرت الى امها وكانوا قدغطوها بالملاءة وقالت لها : « قومى يا اماه احسرى نقابك فقد جاء على . قومى اليه واطلعيه على سرك . قومى واشفقى على ابنتك »

اما على فترجل وقد شـغله أمر الفتـاة عن الالتفات الى الميتـة . وكانت اسماء قد توردت وجنتاها وذبلت عيناها ونكسرت اهدابهما لما انسكب منهما من الدموع . ومما زادها هيبة ووقارا استرسال شعرها

الاسود على ظهرها وصدرها وحول كتفيها وقد غطى معظم وجهها ، ناهيك بانكسارها وذلها من الحزن واليأس فانهما يزيدان الجمال جاذبية. وكان اكثر الناس تأثرا من منظرها محمد بن أبي بكر فانه لم يتمالك نفسه عن البكاء لما لقيه من الفشل في مهمنه ، وقد أنهك جواده سوقا واستحث عليا على القدوم رغم ماكان فيه من المشاغل ووعده بالاطلاع على سر عظيم وظن نفسه قد عاد ظافرا فرأى الفشل ينتظره

وحالما وقع نظر علي على أسماء شعر بانعطاف نحوها وتوسم في طلعتها ملامح ارتاح الى التفرس فيها فحمل ذلك الانعطاف على محمل الشفقة لما رآه من تعاسة تلك الفتاة ، وندم ندما شديدا لتقاعده عن المجيء معها واحس بان عليه مواساتها جهد طاقته ، فوقف وقفة معتبر لمصير الانسان ثم أجال بصره في الناس وهم سكوت يسمعون وقال: « ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن ساعاها فاتته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن بصر بها بصرته ، ومن أبصر اليها أعمته . انظروا الى هذا الميت فقد قبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله لايسعد باكيا ولا يجيب داعيا . اعلموا — عباد الله — انكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا ، على سبيل من قضى قبلكم ممن كانوا أطول أعمارا وأبعد آثارا ، فأصبحت اصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وديارهم خالية وآثارهم فانية ، واقاموا بمنازل شيدت بالتراب ، أهلها لا يستأنسون بالاوطان ، ولا يتواصلون تواصل الجيران ، على ما بينهم من قرب الجوار ، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى؟ واكلتهم الجنادل والثرى؟ »

وكان علي يتكلم والدموع تتساقط من عينيه هادئة تنحدر على لحيته فأعجب محمد لما آنسه من ذلك البطل من الحنان ، واشد الحزن ما يبكي الرجال

أخذ علي يخفف عن أسماء ، وكانت جالسة الاربعاء فاقترب منها وامسك بيدها وقال لها: « اصبري يابنيتي ان الحزن والبكاء لا يجديان، ان امك قد سبقتنا الى دار اللقاء الاخير ، وأما ما تذكرينه من اليتم فلا تخافيه لأن الله كفيل باليتامى ، واتخذيني لك ابا والقي همك بعد الله علي ، واصبري ان الله مع الصابرين »

فنهضت أسماء وقد سقط منديلها من يدها ، فمسحت دموعها بكمها المسترسل من معصمها فعلقت أزراره بشعرها فانحسر بعضه عن وجهها فأطرقت خجلا واجابت عليا وصوتها مختنق وقالت: « شكرا لك يارجل المسلمين ووصي خاتم النبيين ، على مواساتك ، وسمعا

وطاعة في مرضاتك ، وان امي هـذه (قالت ذلك وأشـارت اليها وقد خنقتها العبرات) فاضت روحها وهي تذكر عليا وتناديه وفي صدرها سر أبت أن تبوح به الا له ، فها قد ذهب سرها معها وياليتها باحت به او ليتني الححت عليك بالقدوم ، ولـكن ما الحيـلة وقد قضي الامر » .
قالت ذلك وعادت الى البكاء متهيبة مجلس علي

أما محمد بن ابي بكر فلا تسل عما خالج قلبه ، وما أحس به من الميل الشديد الى أسماء ، حتى شعر بأن المصيبة واقعة عليه ، ولم يدر كيف يعزيها أو يخفف عنها ، وتمنى لو بقي معها لمواساتها الى ساعة الدفن .
واذا بعلي ينـاديه ، فلباه . وقال له علي بعد أن انتحى به ناحيـة : « لا أرى ثم ما يدعو الى بقائي هنا ، وقد ماتت حاملة السر » . فقال « أجل ياعماه ، انك مشغول بأمر الخليفة ، وقد أسفت على مجيئك بلا فائدة » . فقال علي : « اني اذن ذاهب ، وأوصيك بأهل هـذه الميتة خيرا ، وانظر فيما يحتاجون اليه فاذا تم الغسـل والدفن ، فأوصل الفتاة واباها ومن معها الى مقرهم ، واذا رايتهم في حاجة الى الانفـاق فادفع اليهم ما يحتاجون اليـه ، على اني لا أرى أبا الفتاة حزينا الا بالانقياد »

فقال محمد : « سر في حراسة الله ، اني فاعل كل ما تأمرني به ولكنني آسـف لضـياع السر فانه لايخلو من أمر » . فقال علي : « اني أفكر في ذلك ولا أرى بابا لحله »

ثم التفت الى يزيد وناداه ، فجاء ووقف بين يديه وهو لايستطيـع النظر اليه الا خلسة ، فلما رأى علي مسارقته النظر ورفرفة أجفـانه وتردد بصره كأنه يرى مايبهره تحقق أن الرجل مراء يضمر غير مايظهر ، لأن من سلمت سريرته وأخلص نيته كان بصره ثابتا صافيا مثل قلبه ، وأما المرائي المخاتل فلا يستطيع تثبيت نظره في مخاطبـه كأنه يفكر في حيلة يخترعها . ونظر علي الى يزيد فعرف انه أموي فقال له : « اصبر يا أخا أمية ، انك بليت بما يبلى به كل ابن انثى ولا حيلة الا الصبر »

فتظاهر يزيد بالبكاء ، فقال علي : « لقد أوصيت بكم محمـدا ليتولى قضاء حوائجكم ويواسيكم ، واذا نزلتم المدينة نزلتم في حمانا »

فشكر يزيد وأثنى وهم بتقبيل يده ، ثم تقدم علي الى أسماء وهي تبكي فعزاها وقال لها : « ان محمدا باق لمواساتكم » . فأجهشت ولسان حالها يشكره . فخرج علي وهو يقول لمحمد : « اني لأعجب مما بين هذه الفتاة وأبيها من البون الشاسع فكأنها ليست ابنته »

ثم امتطى جواده وودع وسار قاصدا المدينة

أما محمد فأمر خادم الجامع باحضـار من تقوم بالغسل والدفن ، ثم افتقد يزيد فلم يجده بين الناس فعجب لغيابه ، وظنه بادىء ذي بدء

قدذهب لحاجة له ، فلما طال غيابه ارتاب فى أمره حتى اذا انفلق الصبح رآه بين الناس فلم يسأله عن سبب غيابه لئلا يكون فى السؤال تطفل ، ثم غسلوا الميتة وصلوا عليها ودفنوها ، وأسماء لا تنفك عن البكاء والنحيب .

□

فلما عادوا من الدفن اقترب محمد بن ابى بكر من يزيد ، وسأله عما يحتاج اليه ، فبالغ هذا فى الثناء والشكر ، فسأله محمد : « أتريدون الذهاب الى المدينة فتنزلوا علينا ، فان عليا اوصانا بكم خيرا ؟ »

قال : « لقد تفضلتم علينا بما لاطاقة لنا على شكره ، ولانشك فى كرم مولانا ابى الحسن وحسن وفادته ، ولكن لنا اهلا فى المدينة لابد من النزول عليهم ، نخشى اذا نزلنا على غيرهم أن يعدوا ذلك منا امتهانا لهم ولكننا فى حى ابى الحسن انى ذهبنا »

فعجب محمد لما آنسه من تلطفه ، وكاد يحسن ظنه به فسأله : « واين يقيم اهلكم ياعم ؟ »

قال : « يقيمون بقرب الزوراء سوق المدينة »

وكانت أسماء اثناء الحديث جالسة تسمع ما يقولان وهى مطرقة حزنا وانكسارا وقد غطت رأسها بخمار اسود زادها هيبة وجمالا . فلما ذكر ابوها محل اقامته قال محمد وهو ينظر الى اسماء : « اذن عسى الا تنسونا ، ومهما يعن لكم من الامور فانى رهن اشارتكم لأن عليا حفظه الله اوصانى بكم خيرا » . وتطلع الى اسماء فرأى الدمع يقطر من بين أهدابها وينحدر وهى مطرقة فازداد عطفا عليها وحنوا

قال يزيد : « اننا ابدا عبيد احسانكم فاذا أصابنا شر لجأنا اليكم ذاكرين حسن صنيعكم العمر كله »

فقال محمد : « الا تحتاجون الى دواب تحمل امتعتكم ؟ »

قال : « ان دوابنا ما زالت عندنا ، وقد بعث الينا أقرباؤنا خدما يساعدوننا فى الحمل والنقل »

ثم نهض محمد فنهض يزيد وأسماء لتوديعه ، وتذكرت اسماء أن أمها عرفته وذكرت اسمه على فراش الموت ، فنظرت اليه والدمع يتلألأ فى عينيها وقد ذبلتا وتكسرت اهدابهما وتنهدت ولم تجب . فحياها وتحول الى جواده فركب وعاد الى المدينة وقد علق ذهنه بأسماء واشتغل قلبه بها

اما ماظهر فى حديث يزيد من الرقة فقد اصطنعه تنفيذا لتعاليم

مروان . وكان قد ذهب الى المدينة خلسة ليستشير مروان فيما يصنعه اذا طلب اليه النزول فى جوار على ، وابدى خشيته من ان يكون هذا عقبة فى سبيل زواجه من اسماء ، بعد ان توفيت أمها التى كانت عونا لها على رفض هذا الزواج . وقد لقى مروان فى منزل الخليفة عثمان فانباه بوفاة مريم ، واستشاره فاوصاه ان يحتال فى التخلص من محمد ، وعلمه كيف يشكر ويعتذر بالنزول عند اقاربه

وكانت اسماء خالية الذهن من كل ذلك لسلامة نيتها واشتغالها عن الدنيا باحزانها ، ولكنها شعرت بارتياح الى على ومحمد ، وبانهما سند عظيم لها اذا آنست من مروان أو يزيد ما لا يرضيها

ولم يكد محمد يتوارى عن قباء حتى امر يزيد عبيدا كان مروان قد ارسلهم لخدمته فقوضوا الخيام وحلوا الامتعة ، وسار الركب الى المدينة بعد ان ودعت اسماء قبر امها واكرمت خادم الجامع وامراته فوق ما اكرمهما به محمد ، فودعاها وهما يبكيان

فلما اشرفوا على المسجد تذكرت أسماء لقاءها عليا هناك ، وما كان من اضطرابها وقلقها فى الليل الغابر ، وتاهت فى بحار التامل ، ولم يهمها شيء من ضوضاء اهل المدينة وتجمهرهم فى اسواقها . وقبل وصولهم الى المسجد مروا باحجار الزيت ، وهى موضع صلاة الاستسقاء بقرب الزوراء ، فراوا الناس هناك جماعات متكاتفين وهم اخلاط من اهل مصر والكوفة والبصرة ، وفيهم الامراء والفرسان والعبيد والخدم على اختلاف ازيائهم ، وكل حزب فى شاغل وحديث وجدال . وبلغوا دارا وراء الجامع فناؤها واسع يحيط به سور منيع ، ولها باب ضخم فى وسطه باب صغير ، وكان الباب مغلقا والحراس واقفون به ، فعلمت انها دار عثمان ، ولم يتجاوزوها حتى وصلوا الى باب وقفوا عنده . فترجل يزيد هناك فعلمت أنه المنزل المقصود فترجلت وقد انهكها التعب والنعاس لما قاسته من المجاهدة والبكاء والحزن ، ولكنها لم تكد تدخل المنزل حتى لقيها مروان . فلما راته استعاذت بالله وندمت على مجيئها ، على انها لم تر بدا من النزول مع يزيد . فلما رآها مروان وقد تسربلت بالثوب الأسود وبدا تحته وجهها وقد زاده انكسار الحزن جمالا واشراقا ازداد تعلقه بها فتقدم نحوها مسلما ومعزيا ، فردت عليه ردا فاترا . اما هو فبالغ فى اكرامها وسار فى خدمتها الى داخل الدار وكان بعض نساء المنزل قد جئن لاستقبالها فدخلن بها حجرة ويزيد معها ، وهى لا تنطق بكلمة واذا كلمها أحد لم يكن جوابها الا البكاء . ولما خلت الى يزيد سالته عن اهل ذلك المنزل فقال : « هؤلاء آل حزم »

ورای مروان من الحكمة أن يتركها لتستريح فخرج يتدبر وسيلة لاسترضائها بالحسنى فخطر له أن يوسط بينه وبينها نائلة بنت القرافصة زوجة الخليفة ، وكانت نائلة ذاتمقام رفيع لزواجها بالخليفة، على انهـا لم تكن من قريش بل قحطانيـة من بنى كلب ، وكان والدها القرافصة نصرانيا يقيم بالكوفة ، وكانت عاقلة حسنة الخلق . ولم تكن ترتاح الى مروان لنزقه وطيشـه ، وكثيرا ما كانت تخالفه فيما يشير به على عثمان زوجها حتى انتهرته مرارا ونصحت لزوجهـا بألا يصغى اليه ، ولكنها لم تكن تبالغ فى جفائه احتراما لقرابته منه

فسار مروان اليها وكانت فى اضطراب عظيم لما أحاط بزوجهـا من الاخطار، فلما رأته قالت : « ما وراءك يا مروان ؟ » . قال : « ما ورائى الا الخير يا خالة ، انى أراك فى وجل من أمر هؤلاء الناس الذين يحاولون نزع الخلافة من أيدينا ، ورأس ذى النورين عثمان انهم لن ينالوا ذلك ، فقدكتبنا الىمعاوية فى الشام ، والى عامرورؤساء الاجناد من بنى أميه نستقدمهم الى نجدتنا ، فاذا جاءوا لم يستطع المصريون او الكوفيون أو البصريون مناوأتهم فيتفرقوا أيدى سبا »

فتنهدت نائلة وقالت . « لا أظنهم يصلون الينا يا مروان الا بعد أن تنفد الحيلة ، والتبعة كلها عليك فانك وسعت الخرق بطيشك »

فضحك مروان وقال : «سوف ترين بعينك يا خالة مساعى مروان، وسوف تعلمين مدى فشـل هؤلاء الاعداء المغرورين . فلا تجزعى ولا تخافى . اننا نحن الفائزون باذن الله »

قالت : « دعنا من الهزل يا مروان ان الأمر جلل »

قال : « بل هو أهون مما تظنين ، وما انا حاسب له حسـابا ، ومما يدلل على ذلك انى بسبيل البناء بعروس جميلة جئت بها الى هـذا المكان »

قالت : « واية عروس ؟ » . قال اسماء بنت يزيد الأموية ، انها على جانب عظيم من الجمال وقد كانت فى دمشق ، وكانت أمها راغبة عن تزويجها وقد ماتت فى قباء ، وجئت بالعروس وابيهـا اليوم وانزلتهما فى دار بنى حزم ، وهى الآننائمة تستريح من وعثاء السفر فأرجو منك اذا جاءتك غدا أن تقنعيها بأنى كفء لها »

فقالت : « أين نحن من الزواج يا غلام ؟ »

قال : « لا تقولى يا غلام وانا شاب بطل كما تعلمين ، واستحلفك براس اميرالمؤمنين أن تسترضيها ، وهى لاشك ستقتنع بكلامك . فاذا فعلت ذلك فديتك وفديت عمى الخليفة بروحى »

فسكتت نائلة وهي تعجب لنزق مروان ، ولكن استخفافه بمناهضي الخليفة طمأنها وبرد قلبها ، وما زال مروان بها حتى وعدته باسترضاء أسماء

فتركها وخرج الى يزيد فأخبره بما عزم عليه ، ففرح وقال « حسنا فعلت واري ان آتي بها انا الى نائلة فيكون ذلك أقرب الى نجاحنا »

فقال مروان : « وهب انها لم تقنع باسترضاء نائلة لها فاني احمل الخليفة على تزويجي بها قسرا ، وما انا براجع عن عزمي فانها فتاة تعرف ما ينفعها وما ينفع اباها » . وقد اراد مروان بذلك ان يؤكد آمال يزيد بمنصب يناله بواسطة تلك المصاهرة

فأبرقت أسرة يزيد وقال : « طب نفسا يا بني فاني لن اجعلها تفعل الا ما اريد »

فودعه مروان وخرج ، وباتت أسماء تلك الليلة لا تدري بما بيتاه لها



نائلة بنت القرافصة

وفى الصباح التالى افاقت اسماء مذعورة وقد رات أمها فى الحلم فبكت بكاء مرا ، ولم تكد تجلس بفراشها حتى دخل يزيد وهم بتقبيلها والرياء ظاهر فى وجهه ، فلم تطاوعها نفسها على تقبيل يده فلبثت فى الفراش صامتة كئيبة لا تبدى حراكا

فقال لها يزيد : « انهضى يا ابنتى واغسلى وجهك وهيا بنا لتحية مولاتنا نائلة زوجة امير المؤمنين ، ولا ريب أنها ستعزيك فى أحزانك »

فقالت : « دعنى وحدى واغلق الباب فليس فى الدنيا ما يعزينى »
قال : « انهضى يا حبيبتى فان الحزن يضنيك ولا خير فيه . وهبى انها لا تستطيع تعزيتك فالذهاب اليها فرض لاننا فى حماها » . وما زال بها حتى انهضها . وفيما هى تتحفز للقيام دخل رجل فاستقبله يزيد قائلا : « اهلا بأبى الجراح » . فبغتت أسماء لرؤيته فابتدرها يزيد قائلا : « انه مولى مولاتنا أم حبيبة واظنه جاء فى طلبك » . فقال ابو الجراح : « ان مولاتنا تدعوك اليها وقد علمت بما أصابك وبنزولك عند آل حزم فبعثتنى وجارية حبشية لناتى بك اليها »

فعجبت أسماء لهذه الحفاوة وشكرت تلك العناية ونهضت فلبست ثوبها وسرحت شعرها وعقصته وارسلته الى الوراء وارخت الخمار على راسها ، وتزملت بالرداء الاسود ، وخرجت والجارية معها ودخلت من باب موصل بين الدارين حتى بلغت دار عثمان فرأت فيهما ما يليق ببيوت الخلفاء من الطنافس والأستار ونحوها ، ولقيت فى باحتها كثيرا من الجوارى والغلمان فمشت حتى اتت حجرة نائلة

فلما سمعت نائلة وقع أقدامها تحفزت للقائها . فلما دنت أسماء تنسمت رائحة الطيب ، وسمعت وسوسة أساور نائلة ودمالجها وعقودها وهى تتهيأ للوقوف ، فدخلت واستقبلتها نائلة وقد أعجبت بجمالها وهيئتها ، فهمت بها وضمتها الى صدرها وهى تقول : « أهلا بضيفتنا اهلا بابنتنا العزيزة »

فلما سمعت أسماء ذلك غلب عليها البكاء ولكنها تجلدت وقبلت

يدها وجلست الى جانبها ، وخرجت الجارية ، وبقيتا في الغرفة وحدهما واسماء لا تتكلم

فهمت نائلة بمداعبتها فقالت : « اهلا بابنتنا الجديدة ومرحبا بها »

فشرقت أسماء بدموعها وقالت : « دعيني يا مولاتي أبكي أما حنونا فقدتها وارفقي بحالي »

فأثر هذا الكلام في نائلة تأثيرا عظيما وترقرقت الدموع في عينيها وقالت : « اني شريكتك في احزانك يا حبيبتي ، أما ترضينني بدلا من أمك »

فأجابت : « ان في هذا أكبر تعزية لي على مصابي » . وتأوهت نائلة لتأوهها وقالت : «اصبري يا بنيتي على مصابك ، فالحزن لا يجديك» . ثم أمرت بالمائدة ، فمد السماط فاعتذرت أسماء عن الطعام فألحت نائلة عليها فتناولت منه شيئا ، ثم أخذت نائلة تحادثها في شؤون شتى حتى هدأ روعها ، وجعلت تتأملها وتعجب لجمالها فاذا هي لا تشبه اباها في شيء وكانت قد رأته عندما جاء معها

وكانت أسماء في اثناء ذلك مطرقة غارقة في بحار الهواجس فقالت نائلة : « ما بالك صامتة ، تكلمي يا أسماء واشغلي نفسك عن الحزن لعلك تتعزين »

قالت : « لا أرى شيئا يعزيني في هذه الدنيا يا مولاتي ، ولا يحلو لي الكلام ، واحمد الله لما لقيته من مواساتك فقد استأنست بك كثيرا وشعرت بحنوك حنو الأم على ولدها » . قالت ذلك وهي تمسح دموعها وتشهق بالبكاء

فتأثرت نائلة وابقت الحديث في شأن مروان الى فرصة اخرى . واحبت أن تسليها عن الحزن فدعتها لمشاهدة ما في بيتها من الأثاث ، واكثره من الطنافس والسجاد والأواني مما غنمه القواد في فتح الشام والعراق من قصور الملوك والبطارقة واغنياء الروم والفرس ، وفيها أسلحة مرصعة وأعلام ودروع وآنية من الفضة والذهب من غنائم المدائن عاصمة الفرس على عهد عمر بن الخطاب ، وبينها تاج كسرى مرصع بالجواهر ، وثيابه ووشاحه وكلها من الديباج المنسوج بالذهب، المنظوم بالجواهر ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودرع داهر ملك الهند ، ودرع النعمان بن المنذر ، وكثير من الأسياف المرصعة . وأدركت أسماء من تكومها بعضها على بعض بلا تنظيم انها لم توضع لأجل الزينة . ثم خرجت نائلة بها الى غرفة صغيرة رأت فيها اريكة وعليها جواد من ذهب فوقه سرج من فضة ، وعلى ثغره

ولباته الياقوت والزمرد وعلى الجواد فارس من فضة مكلل بالجواهر . وبالقرب من الجواد ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب . فانبهرت أسماء لتلك التحف التى لم تر مثلها ولكنها علمت لأول وهلة انها ليست من صنع بلاد العرب

فقالت : « ومن أين هذه التحف يا سيدتى ؟ »

قالت انها من غنائم المسلمين مما فتحوه من بلاد الفرس ، وهى من متاع بيت المال ، وانما نقلناها الى هنا لأمر اقتضى ذلك ، وسنعيدها اليه ، فأحببت أن أريكيها لأنها من أبدع ما صنع ولا نظن الزمان يأتى بمثلها »

فقالت اسماء : « لقد عرفت فائدة التيجان والسيوف والدروع ، ولكننى لم أفهم فائدة هذا الجواد والناقة ؟ »

قالت نائلة : « أخبرنى بعض من شهد فتح المدائن من امرائنا أنهم لما فتحوها ودخلوا ايوان كسرى رأوا فى صدر الايوان الأريكة التى كان تاج هذا الملك قائما فوقها ، وعلموا أنه كان مركزا على اسطوانتين من المرمر المذهب وعلى قمة أحدى الاسطوانتين هذا الجواد وراكبه وعلى قمة الاسطوانة الأخرى هذه الناقة وراكبها . وكان الفرس قد نزعوا هذه وحاولوا الفرار بها فظفر بهم المسلمون وأخذوها منهم »

فأعجبت أسماء بما رأت اعجابا عظيما . وبينما هى تنظر الى صحن الدار لمحت مروان مارا فأجفلت وانقبضت نفسها وأرادت أن تعود الى حجرتها متظاهرة بالحاجة الى الراحة ، فودعت نائلة ورجعت فدخلت الغرفة وأغلقت الباب وتوسدت الفراش وغرقت فى بحار الهواجس

أما مروان فكان قد علم بمجىء أسماء الى نائلة ، فأراد أن يعلم ما جرى بينهما فجاء متظاهرا بالرغبة فى لقاء الخليفة ثم تحول الى غرفة نائلة فرآها وحدها ، فسألها عما جرى فأخبرته أنها لم تفاتحها فى شىء وانها ستذهب اليها فى الغد وترى ما يكون . فألح عليها أن تستطلع ضميرها وتقنعها . فوعدته بأنها ستدعوها فى الغد الى الاقامة عندها

▭

وفى صباح اليوم التالى بكرت نائلة الى غرفة اسماء ، فوجدت الباب مغلقا ففتحته بلا استئذان ، فرأت اسماء نائمة وقد اغمضت جفنيها وتوسدت احدى ذراعيها ، وجعلت الاخرى فوق رأسها فانحسر كمها عنها فبان زندها وبانت عروقه مخضرة كأنها خطوط متعرجة رسمها

الجمال تحت تلك البشرة الناعمة الفضة ، ونمت على كل زند عضلاته واستدارت حتى يخيل الى ناظره ان الصحة تتدفق منه . وكانت الشمس قد أشرقت فأرسلت اشعتها من نافذة فوق راس اسماء ، فمرت الاشعة حتى اجتازتها ولم تقع عليها ؛ ولكنها جعلت لزندها ظلا خفيفا وقع على محياها فأخفى ظل أهدابها الطويلة. فوقفت نائلة تتأمل ذلك الجمال المحلى بالصحة وهى تحاذر أن توقظها ، فلمحت على معصمها وشما على شكل الصليب فاستغربت ذلك لعلمها انها مسلمة ولا يتخذ ذلك الوشم غير المسيحيين. فتأملت فيه فاذا هورسم صليب لاريب فيه ، ثم دنت من رأسها فرأت العرق قد كلل جبينها وزادها بهاء وجمالا

وكأن أسماء احست بوقوف نائلة الى جانبها ، فغيرت وضعها ورفعت يدها عن جبينها واستلقت على ظهرها فانشق صدر ثوبها فبان من تحته قلادة من فضة تدلت منها تميمة صغيرة عليها رسوم مسيحية أيضا ، فازداد تعجب نائلة واشتد ميلها الى استطلاع السر . وبينما هى فى ذلك اذ رفعت أسماء يدها الى عينيها فمسحتهما فرأت نائلة واقفة عند رأسها ، فخجلت لنومها بين يديها ونهضت بعد أن أرسلت كمها فوق معصمها ، وأطبقت صدرها . فحيتها نائلة فردت التحية وهى تمسح عرقها وتهم بالوقوف، فأقعدتها وقالت: « استريحى يا ابنتى انى لا أريد ازعاجك ولم آت الا التماسا لراحتك »

فأثنت اسماء على معروفها ودعتها الى الجلوس فجلست نائلة على جانب السرير وهى ممسكة يد أسماء تنظر الى رسم الصليب فيها ثم قالت : « لقد استغربت هذا الرسم على معصمك، وعهدى بك مسلمة ، فهل رسمته على سبيل الزينة ؟ »

قالت : « لا أعلم ، ولا أذكر يوم وشمه ، لأنى كنت طفلة . وقد سألت أمى عنه فلم تجبنى »

قالت : « وما هذه التميمة التى فى عنقك ؟ »

فمدت أسماء يدها الى التميمة فأخرجتها من بين ثوبها وقالت : « ولا أدرى من البسنى هذه أيضا » . قالت نائلة : « ولكنها تميمة مسيحية »

قالت : « لعلها كذلك ، وقد لبستها طوعا لأمر أمى فقد أوصتنى أن احتفظ بها منذ طفولتى »

فلم تعرف نائلة شيئا ، وازدادت رغبتها فى البحث ، فقالت : « الا اخبرتنى يا اسماء كيف وصلت اليك هذه التميمة ، وكيف رسم على يدك هذا الصليب ؟ اخبرينى ولا تخافى فان النصارى أهل ذمة عندنا .

ثم انى ولدت فى بيت مسيحى انا ايضا وكانوالدى نصرانيا. فأخبرينى امرك وانا اعلم ان اباك يزيد مسلم أموى »

فتذكرت اسماء امها وكتمانها اسم ابيها الحقيقىفتنهدت وصمتت، فعجبت نائلة لسكوتها وتسترها وقالت لها: « ما بالك صامتة ؟ بوحى لى بسرك ولا تخافى فانك بمنزلة ابنتى عندى »

قالت اسماء: « بماذا ابوح وانا لا اعلم من هذا السرشيئا ، واعترف انى كنت منذ حداثتى ارى هذا الصليب وهـذه التميمة ولا أعلم من أمرهما شيئا »

قالت: « كيف يكون ذلك ؟ »

قالت اسماء: « هذا هو الواقع يا مولاتى ولا اعلم من أمرهما و. . » وصمتت

فقالت نائلة: « قولى يا اسماء ولا تخفى سرك على »

قالت أسماء: « ماذا اقول وأنا لا أعرف شيئا غير ما ذكرت ؟ »

قالت: « يظهر لى من ترددك انك تخفين شيئا آخر »

فتنهدت اسماء تنهدا عميقا ونظرت الى نائلة والدموع ملء عينيهـا وحاولت الكلام فخنقتها العبرات فسكتت

فضمتها نائلة الى صدرها وقبلتها وهى تزداد اعجابا باشراق طلعتها وقالت : : « قولى يا بنيتى ، قولى ما فى نفسك وثقى انى حافظة سرك عن كل انسان »

فمسحت اسماء دموعها ، وتنفست الصـعداء وقالت: « ماذا أقول لك ياخالة ؟ ان سؤالك جدد أحزانى واذكرنى امى المسكينة » . قالت ذلكوعادت الى البكاء

فمسحت نائلة دموعها وقالت: « رحم الله تلك الأم الحنون، فانهاقد خلفت لنا ملاكا كريما . قولى ما هو سرك »

قالت: « ان سرى يا سيدتى قد ذهب الى القبر مع أمى » . قالت ذلك واوغلت فى البكاء

فقالت نائلة: « هلكانت أمك تخفى السرعليك وماتت قبل أن تبوح به ؟ »

قالت: « نعم ، ماتت وخلفت لنا حرقة فراقها ، وزادت تلك الحرقة لوعة بكتمانها سرا ذهب معها الى القبر ، ولكنها . . »

قالت: « ولكنها ماذا ؟ » . قالت: « ولكنها أخبرتنى أن يزيد الذى يزعم انه ابى ليس هو كذلك فى الحقيقة »

فبغتت نائلة ، وتذكرت انها حدست ذلك مذ رأته فقالت : « لقد شككت فيه ، فاخبريني عما تعلمينه من تاريخ حياتك لعلى استنتج شيئا »

فقالت : « لقد ربيت في دمشق الشام منـذ طفولتي ، وقد كفلتني امي المسكينة وزوجها يزيد هذا معهـا ، وكنت اظنه ابي ثم علمت انها تزوجته في مصر على اثر قدوم عمرو بن العـاص اليها ، وكان يزيد في جنده يوم الفتح ، فكانت امي نصيبه من الغنيمة ، وكنت انا يومئذ في العام الاول من عمري . هذا كل ما اعلمـه . وقد الححت على والدتي أن تصدقني الخبر فوعدتني ثم سبقها اجلها »

فبهتت نائلة وظلت صامتة برهة تفكر واغلق الامر عليها

وفيما هما في ذلك اذ سمعتا وقع أقدام مسرعة أمام الباب فالتفتتا فاذا يزيد قد دخل مسرعا وعلى وجهه امارات البغتة ، فلما رأى نائلة تأدب في وقوفه وحياها . فقالت : « ما وراءك يا أخا امية ؟ »

قال وعينـاه لا تسـتقران واجفانهمـا ترف : « ما ورائي الا الخير يا مولاتي »

قالت : « قل ما وراءك ؟ »

قال : « خرجت في هـذا الصباح في شـأن لمروان ، وعدت الآن فلم أستطع الدخول الى المنزل الا خلسة ! »

فنهضت نائلة وقد خفق قلبها وحدثتها نفسها بسوء كانت تتوقعه وقالت : « ما الذى منعك من الدخول ؟ »

قال : « عصبة تجمهروا علىمنزل أميرالمؤمنين بخيلهم ورجلهم وقد علا ضجيجهم ولا أدرى ما يبيتون »

فبغتت نائلة وقالت : « وماذا يبغون يا يزيد ؟ قـل » . قال : « لا ادرى يا سيدتي ولعلهم يضمرون الشر »

فخرجت نائلة مهرولة وبدنها يترجرج لضخامة فخذيها ، وأسـماء في اثرها وقد نسيت حزنها واشتدت عزيمتها حتى دخلتـا دار عثمان وتحولتا الى أول حجرة تشرف على الطريق فاطلتا فرأتا الناس جماعات وقد تجمهروا بأسلحتهم وخيولهم ، وعلا صياحهم ، فاضطربت نائلة وامتقع لونها وأخذ الخوف منها كل ماخذ

أما اسماء فبقيت رابطة الجـاش ، وجعلت تشجعهـا وتقول لهـا : « لا تخافي ياسيدتي فانهم لايستطيعون الدنو من الدار فهي محاطة بهذا السور العالي ، واذا هم هموا بتسلقه فاننا نرميهم بالنبال والحراب »

فعجبت نائلة من شجاعة اسماء ورباطة جاشها ، وكأنما سرت اليها عدواها فأمسكتها وتوجهت تقصد غرفتها

وبينما هما في صحن الدار اذ سمعتا لغطا ورأتا هناك نفرا من المهاجرين يهمون بالدخول الى الدار وحالما وقعت عينا نائلة عليهم همست في اذن اسماء كلاما يتخلله ارتعاش وقالت : « هؤلاء كبار الصحابة قد اتوا ، ولا ادرى غرضهم من امير المؤمنين» . ونظرت اسماء اليهم فرات عليا بينهم فحدثتها نفسها بأن تكلمه ، فجذبتها نائلة وسارت بها الى أقرب حجرة هناك التماسا للحجاب ، وأغلقت الباب فاذا هما في حجرة بينها وبين مجلس عثمان باب مقفل ، ونائلة ممسكة بيد اسماء فأحست هذه بارتعاش اناملها فقالت لها : « ما الذي اخافك ياخالتي؟ »

قالت نائلة بصوت مهدج : « أخافني مجيء هؤلاء ، فانهم قلما جاءونا الا لتأنيب أو تهديد » . قالت : « ومن هم ؟ » .

قالت : « على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وهم وجوه الصحابة ومن الطامعين في الخلافة وكل يريدها لنفسه ، وما زلنا منذ تولاها أمير المؤمنين لايهدأ لنا بال مما يتهمونه به من الأعمال . ارأيت الى الناس المحيطين بمنزلنا الآن ؟ هؤلاء أهل الكوفة والبصرة ومصر جاءوا يطالبون الخليفة بأمور ما أنزل الله بها من سلطان»



الفتنة وأسبابها

قالت أسماء : « بماذا يتهمونه ؟ » . فدنت نائلة من ادن أسماء وهمست : « يزعمون أنه استأثر بالأمر وآثر آله بمناصب الدولة فولاهم الاعمال دون سواهم ، وانه غنم الاموال الطائلة واقتنى المماليك ، وانه يختص ذوى قرباه ، بالمال ، هذا ما يزعمونه . وما كانوا صادقين » فنظرت اليها أسماء كأنها تستوضحها

قالت : « وما هى الحقيقة اذن ؟ » . قالت نائلة : « أما استئثاره بالسلطة فذلك لأنه أمير المؤمنين له الامامة والسلطان، وأما ايثاره أقاربه فله أسوة بالرسول فقد كان يعطى قرابته، وأما احراز الأموال والتوسع فى المعيشة فانهما من مقومات هذا المنصب . ثم ان أمير المؤمنين يطعم الناس طعام الامراء ، وأما هو فوالله لقد رأيته يأكل الخل والزيت ، أتعدين من يفعل ذلك طامعا فى الدنيا ؟ »

قالت أسماء : « ادن فلماذا هذه الفتنة ؟ »

فسهدت نائله وقالت : « انهم فعلوا ذلك حسدا ، وانى أعرف من زعماء هذه الثورة قوما عاشوا فى نعم أمير المؤمنين اعواما ، ثم وسوس لهم الشيطان . وقد أخبرنى ثقة أن الذى حرضهم على ذلك رجل يهودى اسمه عبد الله بن سبأ أسلم حديثا وأخذ يتنقل فى الحجاز والبصرة تم الكوفه والشام ، يريد اضلال الناس فلم يصغوا له ، وأخرجوه من الشام فأتى مصر وأقام فيها فلقى هناك آذانا صاغية ، فجعل يقول لأهل مصر : (العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب ان محمدا يرجع ، فوضع لهم بدعة يسمونها (الرجعة) فقبلوا ذلك منه . وقال لهم : (كان لكل نبى وصى ، وان عليا وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله) . وزعم ان أمير المؤمنين عثمان وثب على وصى الرسول وأخذ الخلافة بغير الحق فقال لهم : (انهضوا بهذا الامير ، ابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس) . وبث دعاته ، وكاتب أشياعه فى الامصار وكاتبوه ، وبثوا دعوتهم فى الخفاء وصاروا يكتبون الى الامصار كتبا يضعون فيها من أقدار ولاتهم ، وتوسعوا فى دعايتهم فبدأ الفساد

من ذلك الحين ، فثار المسلمون فى كل الانحاء الا أهل الشام والمدينة فانهم ثبتوا على الولاء للخليفة . هذا هو سر الامر يا ابنتى »

فتأثرت اسماء واقتنعت بما قالته نائلة ، ومالت كل الميل الى نصرة عثمان ، ومشت الاثنتان نحو الباب المقفل بينهما وبين مجلس الخليفة . فنظرت اسماء من شق فيه فرأت عثمان جالسا فى صدر المجلس على وسادة مزركشة وقد علته البغتة وامتقع لونه وآثار الجدرى لا تزال ظاهرة فيه . وتأملته جيدا فرأته مشرف الانف عظيم الارنبة ، وقد ادار نظره نحو الدار ويده اليسرى على لحيته يمشطها بأصابعه يتشاغل بها عن قلقه ، وخاتم الخلافة فى احدى أصابعه ، وفى يده اليمنى قضيب الخلافة . وكان قد نزع عمامته فبانت صلعته ، وسمعت فى بعض جوانب الغرفة رجلا يقرأ القرآن ولم تره . ورأت بين يدى الخليفة جماعة من امية لم تعرفهم ، ثم سمعت خفق نعال عند باب المجلس واذا بعثمان يضع العمامة على رأسه ويقف تكريما للقادمين ، وكان أول من دخل منهم على بن أبى طالب فحيى عثمان بتحية الخلافة قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . ثم دخل بعده رجل ربعة أميل الى القصر ، رحب الصدر ، عريض المنكبين ، اذا التفت التفت جميعا ، ضخم القدمين ، حسن الوجه ابيضه ، مشرب بالحمرة ، كثير الشعر ، ليس بالغزير ولا بالخفيف وقد شاب اكثره فلم يصبغه ، فحيى وجلس الى جانب على . فالتفتت أسماء الى نائلة وسألتها عنه فقالت : « هذا طلحة بن عبيد الله » . ثم دخل فى أثرهما رجل أسمر اللون خفيف اللحية معتدل العضل فقالت اسماء : « ومن هذا ؟ » . قالت : « الزبير ابن العوام » . ولما استتب بهم المقام قالت نائلة : « اجلسى يا ابنتى لنسمع ما يدور بينهم فعساهم أن يكونوا قد جاءوا لخير »

فجلستا تنظران وتسمعان ولا يراهما أحد

بدأ على الكلام فى المجلس قائلا لعثمان : « اتدرى لأى شىء جئناك يا أمير المؤمنين ؟ »

قال عثمان : « الله أعلم » . قال : « يعلم الله أننا جئنا نريد بك خيرا ، انك يا أمير المؤمنين ابن عم الرسول الأعلى ، وقد تزوجت باثنتين من بناته ، وتلك كرامة لم يحزها أحد سواك ، وانت يا أبا عبد الله من السابقين الاولين ، فقد صليت الى القبلتين ، وهاجرت الهجرتين ، وانت أول من هاجر الى الحبشة ، وتوليت الكتابة للرسول ، وجمعت القرآن ، فأنت يا أمير المؤمنين من خير الصحابة ، وقد توفى رسول الله وهو عنك راض وبشرك بالجنة ، فلا نرضى أن تكون الامة ناقمة عليك ولا أن يهموا بخلعك أو قتلك ، ونحن نعلم انهم اذا فعلوا كانت الفتنة نعوذ

بالله منها فتقسم الامة وتكون العاقبة وبالا عليها » . وكان على يتكلم وعثمان مطرق يقلب فى صفحات مصحف بين يديه ، فلما أتم على كلامه رفع عثمان راسه وقال : « انى عالم بكل ذلك يا أبا الحسن . بم يقتلوننى وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : (لايحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : رجل كفر بعد اسلام ، أو زنى بعد احصان ، او قتل نفسا بغير حق) . وما فعلت شيئا من هذا وانى اتقدم اليكم أن تشيروا على »

فقال على : « نرى ان تخاطب الناس فانهم هاجوا واحاطوا بدارك ناقمين فقم اليهم وعدهم خيرا »

قال عثمان : « لقد طالما وعدتهم وامهلتهم فلم يقنعوا »

قال على : « وعدتهم ثم اخلفت ، ولا نعد ذلك اخلافا منك ولكنك اصغيت لابن عمك مروان ، وهو غلام لايفقه شيئا ، فاذا نحن خرجنا من بين يديك جاءك واعظم استرضاءك المسلمين وقد فاته أن فى استرضائهم قطع دابر الفتنة فقم اليهم وكلمهم »

وكانت أسماء تسمع . فراقها انصياع عثمان ، واستبشرت خيرا . ولكنها لما سمعت ذكر مروان اقشعر بدنها

اما عثمان فقال : « ساقوم واخاطبهم ولا بأس من هذا ، ولكن ماالذى حملهم على هذه الثورة ؟ أخبرونى ان كنت مخطئا استغفرت لذنبى واذعنت »

فابتدره الزبير قائلا : « يقولون انك استأثرت بالامارة وجعلتها لنفع اقاربك ، وجمع الاموال والاستكثار من الخدم والضياع ، فانك تملك نحو مائة وخمسين الف دينار ، والف الف درهم نقودا ، ومثلها من الضياع . وقد اقتنيت الخيل والابل وقد كان الفاروق عمر بن الخطاب يرقع ثوبه بالجلد ، وهذا ابن عم الرسول يقول : يا بيضاء ويا صفراء غرى غيرى . »

فالتفت عثمان الى الزبير وقد نشط كأنه شعر بأن الحق فى جانبه وقال : « أأنت تقول ذلك يا ابن العوام ؟ أتحسبون حشد الاموال ذنبا يستوجب القتل ونحن فيه سواء ، الم تستكثر انت من الاموال ؟ الا تملك خمسين الف دينار والف فرس والف عبد والف امة ماعدا الدور والضياع . وهذا طلحة أيضا فان غلته من العراق الف دينار فى اليوم وعنده الف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم . وهذه داره فى الكوفة وتسمى الكناس . وهذا زيد بن ثابت، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم من الصحابة ، عندهم الاموال الوافرة . لعلكم ورثتموها عن آبائكم ، ام هى مال حلال لنا جميعا غنمناها فى الجهاد بنعمة الاسلام ؟ »

ثم توجه بقوله الى الجميع وقال : « اننا نعرف بعضنا بعضا فى الجاهلية ، وقد كنا نسكن ارضا غير ذات زرع ولا ضرع ؟ وكان فينا أناس يأكلون العقارب والخنافس ويفاخرون بأكل وبر الابل يموهونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه. حتى أنارنا الله بالاسلام واجتمعت عصبية العرب على الدين وطلبنا ماكتب الله لنا من الارض بوعد الصدق ، فابتززنا ملكهم واستبحنا دنياهم . أليس ذلك مالا حلالا لنا ، فكيف نستحق القتل أو الخلع عليه ؟ . وأما اعالى اقاربى فقد كان رسول الله يعطى قرابته . ولكنى أراكم قد غرتكم مقالة ابن سبأ » . قال ذلك وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما حتى رقصت لحيته

فلما سمع على مقالته أغفل الاشارة الى ابن سبأ لأنها تتعلق به وقد تسبب نفورا ولكنه قال : « يخيل الى يا أباعبد الله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما ذكرت من اسكثار المال ، فانه يفرق بين الأب وابنه ، وهذا ماحملنى على كرهه حتى قلت : (ياصفراء ويابيضاء غرى غيرى) . فها انها قد غرتكم . ولكن مالنا ولهذا الجدال فقد جئنا نطلب حسم الخلاف وهو لايكون الا بأن تخطب هؤلاء الناس المحيطين بالدار ، ولا آمن أن يجىء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول : (يا على اركب اليهم) . فان لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك »

فقال عثمان : « انى اول من اتعظ ولا احب أن يهرق بسببى محجب من الدم » . قال ذلك ونهض وهو يصلح عمامته ويمكن برده على كتفيه والقضيب بيده . وخرج وتبعه على ورفاقه

قالت أسماء : « بورك فى على . فان به صلاح هذه الامة ، وكم أحب أن أسمع الخليفة يتكلم »

قالت نائلة : « أتبعينى فان فى حجرتى نافذة تطل على المكان الذى يقف فيه أمير المؤمنين »

فنهضنا ولبثنا برهة ريثما خرج الناس ، ثم خرجتا الى غرفة نائلة وأطلتا من النافذة بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد . فراتا عثمان وقد أشرف على الجموع . فلما رآه الناس علا ضجيجهم ونظروا اليه فقال وصوته يتلجلج : « أيها الناس انى أول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت واتوب اليه فمثلى من نزع وتاب . فاذا نزلت فليأتنى اشرافكم فليروا فى رأيهم ، فوالله لئن ردنى الحق عبدا لأستن بسنة العبيد ، ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب الا اليه . فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا احتجب عنكم »

ولم يتم كلامه حتى اختنق صوته وترقرقت الدموع فى عينيه ، فبكى كل من سمعه

وكذلك بكت نائلة وأسماء ، وبينا هما خارجتان سمعتا وقع اقدام آتية الى الغرفه ، ثم رأتا عثمان داخلا وقد امتقع لونه واضطرب . فلما رآته أسماء همت بالخروج حياء فدعتها نائلة للسلام عليه ، فتقدمت اليه وهى مطرقة اجلالا وهمت بتقبيل يديه فحياها وهو يتأمل جمالها وهيبتها ثم نظر الى نائلة مستفهما ، فقالت : « انها ضيفة عندى يا أمير المؤمنين ، وأحمد الله على أن قدومها كان خيرا فقد قضى الأمر » . فتنهد وهو يبحث عن وسادة يجلس عليها فلما جلس دعاهما للجلوس فجلسا وهو لا يزال يتفرس فى أسماء وقد استغرب لباسها الأسود وقال : « مالى أراها فى السواد ؟ »

قالت : « لأنها فقدت أمها بالأمس وهى قادمة من الشام فنزلت عند جيراننا بنى حزم مع أبيها »

قال : « ومن هو أبوها ؟ »

قالت : « يزيد الذى جاءنا منذ أيام » . فنظر اليها وابتسم ابتساما لم يعر شيئا من مظاهر اضطرابه وقال : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا عزاك الله على مصابك »

فقالت أسماء : « من كان فى جوار أمير المؤمنين فهذا عزاءه »

فأعجبه جوابها وقال : « وماذا يصنع أبوك ؟ »

قالت : « لا شىء يا مولاى »

قال : « سننظر فيما ينفعه » . ولم يتم عثمان كلامه حتى دخل مروان فجأة بلا استئذان ومعه جماعة من شباب بنى أمية ، فلما رأته أسماء أجفلت وانقبضت وهمت بالخروج ، ولكنها استحيت فانزوت فى بعض جوانب الغرفه

أما مروان فانه دخل متقلدا سيفه وقد أرخى رداءه تيها وعجبا ، حتى اذا اقترب من الخليفه جلس الى جانبه وحياه بتحية الخلافة ثم حياه رفاقه وجلسوا ، وساد السكوت حتى لاحت من مروان التفاتة الى جانب الغرفه فرأى أسماء فسر لقربها من نائلة ، واحب ان يظهر لها نفوذه عند الخليفه لعله ينال حظوة فى عينيها ، فنظر الى عثمان وقال : « يا أمير المؤمنين أتكلم ؟ أم أسكت ؟ »

فابتدرته نائلة قائلة : « لا بل أصمت ، فانهم والله قاتلوه ومؤتمرون به . انه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها »

فحملق مروان فيها وقال : « ما أنت وذلك ؟ فوالله قد مات أبوك وهو لا يحسن أن يتوضأ »

فقالت : « مهلا يا مروان عن ذكر الآباء . تخبر عن أبى وهو غائب

فتكذب عليه ، وان اباك لا يستطيع ان يدفع عن نفسه . أما والله لولا انه عمه (عم الخليفــة) وانه ينـاله غمه لأخبرتك عنه ما لن اكذب عليه فيه »

وكانت اسماء تسمع كلامها وهي تكاد تتميز غيظا ، ولكنها احترمت المقام وخافت ان يستهجنهاعثمان، فصبرت لتسمع ماذا يريد ان يقول

أما مروان فأعرض عن نائلة مخافة أن تزيده تعنيفا ونظر الى عثمان فقال : « يا امير المؤمنين أتكلم ام اسكت ؟ » . قال : « تكلم »

فقال : « بأبى انت وامى ، والله لوددت أن مقالتك التى قلتها اليوم على مسمع من المسلمين كانت وانت ممتنع فكنت اول من رضى بها واعان عليها . ولــكنك قلت ما قلت وقــد بلغ الحزام الطبيــين ، وبلغ السيل الزبى ، وحين اعطى الخطة الذليلة الذليل . ووالله لاقامة على خطيئة ويستغفر منها أجل من توبة يخوف عليها . وانت ان شئت تقربت بالتوبة ولما تقربت بالخطيئة ، وقد اجتمع بالباب امثال الجبال من الناس يريدون أن ينزعوا ملكنا من أيدينا »

وكان عثمان يسمع مقالة مروان وهو مطرق يفكر واسماء تراقب حركاته وتخاف أن يصغى عثمان له فيعود الأمر الى اعظم مما كان ، فوقفت بقامة تخجل البان وقد زادها العبوس مهابة وخاطبت الخليفة قائلة : « أيأذن امير المؤمنين لأمته فى كلمة ؟ »

فأعجب بشجاعتها ، وتحولت اليها أنظار الحاضرين ، وقال عثمان : « قولى يا بنية » . فقالت : « ان وقوفى بين يدى امير المؤمنين ودخولى فى شؤون امارته لتطفل جرىء ، وعذرى انني اقولها كلمة خالصة لوجه الله والخليفة . انى يا أمير المؤمنين أرى ما يقوله ابن عمك ايقادا للفتنة بعد أن نامت ، ومدعاة للقتال واثارة للحرب . وشرا مستطيرا »

فلما سمع مروان مقالها قهقه استخفافا ولم يجبها ، ولكنه حول وجهه الى الخليفة وقال : « كأن هذه الفتاة تريد ان يسمع امير المؤمنين لمشورة النساء ، وقد قيل انهن ناقصات العقول » . قال ذلك وأغرب فى الضحك

فحمى غضب اسماء وثارت الحمية فى راسها ، وقالت : « ان النساء مهما يكن نقص عقولهن لأكمل عقلا ممن يرى العبرة ولا يعتبر . فقد كفاك تغريرا بأمير المؤمنين ، واعلم أن الذين اشاروا عليه بما عمله انما هم نخبة المهاجرين وخير صحاب الرسول وليسوا ناقصي العقول»

وكانت نائلة تسمع كلام اسماء وقلبها يرقص طربا ، ولكنها خافت طيش مروان وتوقعت ان يغضب . فاذا به عاد الى الضحك وقال :

« لا اقول انهم ناقصو العقل ولكنهم يريدون اذلالنا ، ونزع هذا الامر من يدنا ، وليس من شانك ان تشيرى على امير المؤمنين »

قالت : «لم اقف فى حضرته الا باذنه ، وليس لك ان ترد ما أمر به »

فحمى غضب مروان فوقف ويده على قبضة حسامه وقال : «والله انى ضاربك بحد السيف فقاطعك نصفين »

فابتسمت مستخفة ، ورفعت يدها وقد انحسر بعض كمها حتى بان معصمها وقالت وهى تشير اليه بسبابتها تهديدا : « لا تظننى اخاف حسامك اذا جردته ، فلولا حرمة أمير المؤمنين لقتلتك بسيفك ، فاردد يدك عن قبضته فما انا ممن يخاف السيوف . ولا يغرنك انى فتاة ، واذا اردت أن تعرف من انا فعليك بالنزال فى ساحة الوغى »

فعجب الحاضرون لهذه الحماسة وبهتوا لما سمعوه مما لم يكونوا يتوقعونه من الفتاة . اما مروان فخجل من تانيبها وكظم غيظه وتظاهر بالاستخفاف وعاد الى مجلسه ضاحكا وهو يقول : « لولا حرمة أمير المؤمنين لعلمتك معنى النزال »

قالت : « كان يجب عليك أن تحترم مجلس الخليفة قبل أن تقبض على الحسام ، وما رجوعك عن فحتك الا جبن وخزى »

فهم مروان بالوقوف ثانية وقد امتقع لونه وارتعشت انامله ، فامسكه عثمان واجلسه وهو معجب بجراة أسماء ، ثم وضع يده على كتف مروان وقال له : « لم اكن أتوقع منك اطالة الجدال ، وكانى بك تجرد السيف امامى اذا تركتك وشانك »

فخجل مروان وسكت وفى نفسه حزازة ونقمة

واشار عثمان الى نائلة فنهضت واخذت بيد أسماء وخرجتا ، والحاضرون يتبعون أسماء بأبصارهم ويعجبون بما سمعوه وبما ينظرون من لين قوامها واسترسال شعرها وحسن خطاها

فلما دخلتا غرفة أخرى قبلتها نائلة وقالت والدموع ملء عينيها : « بورك فيك يا أسماء ، والله انك قد شفيت غليلى من هذا الغلام ، ولكننى ارى انه سيقنع الخليفة ويحمله على الرجوع »

قالت : « فلنقف هنا لعلنا نسمع ما يدور بينهما » . ثم وقفتا فسمعتا مروان يقول له : « مالنا ولأقوال النساء ؟ ان الامر جلل ولا ادرى اذا كنت قد قلت ما قلته مكرها »

قال عثمان : « ومن يكرهنى ؟ » . . !

أسماء ومحمد ومروان

اغلقت اسماء الباب وجلست على السرير تفكر فيما مر بهـا من غرائب الاحداث . فتصورت امها وحنوها وتذكرت كيف كانت تشكو اليها همها فى مثـل تلك الحـال ، فغلب الحزن عليهـا وبكت . وفيما هى فى ذلك اذ سمعت وقع أقدام امام بابها فأجفلت وافتقدت الخنجر وتحفزت للوقوف وقد نسيت حزنها ، ولبثت هنيهة فلم تسمع صوتا . ثم سمعت نقرا على الباب فوثبت اليه وفتحته وقد تهيأت للقاء مروان فاذا بالباب محمد بن أبى بكر ، فأجفلت وغلب عليها الحياء واختلط حياؤها باجفالها فزاد وجهها مهابة وجلالا

اما محمد فلما رآها فى تلك الحال ابتدرها قائلا : « ما بالك يا أسماء ؟ ما الذى أخافك ؟ » . فغالطته وحيته ولم تجبه ، فرد التحية ومد يده فسلم عليها وشعر عند لمس يدها ببرد أناملها وارتعاشها فقال : « مابالك ترتعشين وانت وحدك ؟ » . قال ذلك وهو ينظر الى جوانب الغرفة لعله يرى أحدا هناك فازداد تعجبا

أما هى فتجلدت وقالت : « لا شىء يخيفنى يا محمد وأنا فى حمى ابى الحسن »

قال : « لقد صدقت ولكننى اراك فى اضطراب وهياج كأنك كنت تخاصمين أحدا أم أنت ترتعدين لقدومى على غرة وانا انما فعلت ذلك طوعا لعلى فانه ارسلنى لافتقدك وأنظر فى حوائجك »

قالت : « بورك فيه وفيك ، واشكر لكما عنايتكما بى فانى بحمد الله فى خير وعافية أدعو لسيدى ابى الحسن بطول البقاء » . قالت ذلك وجلست على السرير

أما هو فود لو يمكث عندها ، ولكنه خاف أن تستهجن ذلك منه لخلو المكان من الناس فقال : « وأين أبوك ؟ »

فتنهدت وقالت : « لا ادرى أين هو الآن »

فقال : « ما بالك تتنهدين يا اسماء ، انى اراك تكتمين امرا »

قالت : « لا أكتم شيئا ولكننى » . وسكتت



« فلم يتم محمد كلامه حتى رأى مروان داخلا في غضب وقد أمسك بسيفه »

قال : « ولكنك ماذا . قولى »

قالت : « لا ادرى ماذا اقول وانا كلما نظرت اليك ذكرت امى التى ذكرت اسمك وهى على فراش الموت » . وترقرقت الدموع فى عينيها

فلما راى محمد دموعها انفطر قلبه شفقة وامسك بيدها وجوارحه تختلج وقال : « رحم الله تلك الام فانى ما برحت منـذ رايتها وانا فى شغل شاغل لا يهدأ لى بال قلقا عليك ، وقد كان على أن افتقدك قبـل الآن ولكن الاحداث التى نحن فيها حالت بينى وبين ما أريد ، فامر هذا الخليفة قد اقض مضاجعنا فلا نكاد نرتق فتقا حتى يتفتق غيره »

وكانا يتكلمان ومحمد واقف والباب مغلق الى نصفه فلم يتم محمد كلامه حتى راى مروان داخلا وملامح الغضب تلوح على وجهه ، وقد حمل سيفه ، فلما رآه محمـد لمح الغدر فى عينيه فنظر اليـه شزراً ولم يعبأ به

اما مروان فقال وقد علاه الأصفرار والبغتة : « ما الذى جاء بك الى هذا المكان يا ابن أبى بكر »

فقال محمد : « ما شانك وما أنا فى بيتك ؟ »

قال : « انك فى دار الخليفة وقد دخلت على نسائنا بلا استئذان »

فاستغرب محمد قوله ونظر الى اسماء كأنه يستفتيها ، فقالت غير هيابة أو وجلة : « ان مروان يتكلم متطفلا فيما لا تناله ذراعه ولو تطاول »

فابتسم مروان ابتسام المستهزىء وقد اشتد غيظه وقال : « سلى اباك اذا كانت ذراعى تنال أم لا »

قالت : « دع ذكر الآباء وارجع من حيث اتيت والا اسمعتـك مالا يرضيك »

فضحك مروان وتوكأ بيده على سيفه وقال ويده الاخرى على شاربيه : « أراك تغررين بنفسك كانك نسيت ما نالك بين يدى الخليفة ، الا تعلمين انك اذا بقيت على غرورك ندمت حيث لا ينفع الندم »

فاستغرب محمد هذا الجدال ، ولكنه ادرك ما فى نفس مروان فاتقدت فى قلبه نار الغيرة ، وعظم عليه التطاول وهم به يريد ضربه ، فاعترضت اسماء بينهما وقالت : « دعه يا محمد لأرى ما هو فاعل » . قالت ذلك وتقدمت الى مروان ويدها على خنجرها كأنها تهم باستلاله ، وقد قطبت حاجبيها وحمى غضبها حتى كاد الشرر يتطاير من عينيهـا .

فأخذ محمد بشجاعتها ولم يكن يعهد مثل هذا فى النساء ، فأراد ان يحول بينها وبين مروان فلم تمكنه من ذلك

اما مروان فلما راى ما كان من اسماء وادرك ان محمدا منجدها خاف العاقبة ، وكان قدقبض على حسامه فرفع يده وتظاهر بالضحك ومد يده يريد أن يمسك بيد أسماء ليكلمها فجذبت يدها وقالت : « جرد حسامك وارنى شجاعتك ، وهذا ابن ابى بكر شاهد على ما يكون »

فقال مروان : « اأجرد حسامي على فتاة ؟ . اما دواؤك يا أسماء فهو عندى » . قال ذلك وخرج متغاضبا وهو انما خرج خائفا كاظما وعزم على الفتك بأسماء غيلة

ونظر محمد الى أسماء وقد علت وجهها مهابة الابطال ، وذهب عنها ذل الحزن والضعف ، فأعجب بما خصها به الخالق من الهيبة والانفة فامسكها بيدها وأرجعها الى غرفتها قائلا : « بورك فى شهامتك يا اسماء ، ولكننى اراك قد اكترثت بهذا الشاب التافه فاتركيه وشأنه»

قالت وهى تحاول تخفيف غضبها : « انى لا ابالى بشقشقته ووالله لو انه حمل على بمائة مثله ما حسبت لهم حسابا »

قال : « مالك وللاقامة هنا ، تعالى نذهب معا الى منزل على فتقيمين ضيفة مكرمة »

فقالت : « اتريد ان افر من هذا المكان ؟ كلا ، لا ابرح حتى أرى ما يكون من امر هذا الغلام الغر »

قال : « اتحسبين ذلك فرارا ؟ »

قالت : « نعم دعنى هنا لأرى ما يكون من امره »

قال : « وما يهمك ؟ دعيه وشأنه »

قالت : « يهمنى طيشه الذى وسع الخرق واغضب المسلمين على الخليفة ، ولولا حماقته لقضى الأمر ولأمن الناس الفتنة »

فتحير محمد ولم يدر كيف يقنعها بالخروج واهمه بقاؤها هناك غيرة عليها ، فأحب أن يستطلع العلاقة بينها وبين مروان فقال : « وما الذى جعل له هذه الدالة عليك ، هل تعرفينه من قبل ؟ »

فتنهدت وعادت اليها ذكرى مصائبها وقالت : « اننا عرفناه فى الشام وقد رافقنا فى سفرتنا المشئومة الى قباء ثم دخل المدينة قبلنا ، وتسبب فى موت امى قبل وصول على »

فعجب محمد وقال : « كيف كان ذلك ؟ »

قالت : « ان حديث ذلك طويل يحتاج الى شرح ، ولكننى أقول بالاختصار ان هذا الشاب رافقنا من الشام لأرب فى نفسه بقصر عن

ان يناله ، ولولا ضعف ابى وانحيازه اليه لما استطاع المسير معناخطوة ولكن . . »

فقال : « واى ارب ؟ » . فلم تجب كأن الضعف والحياء قد عادا اليها فأطرقت صامتة

ففهم محمد مرادها فازداد بغضا لمروان وغيرة على اسماء ، ولم يعد يصبر على بقائها هناك وحدها ، ونظرا الى ما يعلمه من نفوذ مروان لدى الخليفة خاف أن يوسطه فى اقناعها أو استرضائها فتقبله على كره منها . ولما تخيل هذا احس بنيران هبت فى بدنه ، وصار الى خلع عثمان أو قتله أميل . فصمت برهة يفكر ثم قال وهو يريد أن يزيدها كرها واحتقارا لمروان : « انى اعرف من أمر هذا الغلام ما لا يعرفه سواى ، فقد سمعت من أختى ام المؤمنين (عائشة زوجة النبى) ان النبى لعنه وهو فى صلب ابيه فقال لأبيه الحكم بن العاص : (ويل لأمتى من صلب هذا) . فما ترجين منه بعد ذلك؟. اصغى لقولى وتعالى معى الى منزل على »

قالت : « ربما ذهبت اليه فى فرصة أخرى »

فبهت محمد وهو يود أن يبثها ما خالج قلبه من حبها ويستطلع ضميرها ولكن الحياء والهيبة منعاه من ذلك ، فظل برهة صامتا وهو لا يزال واقفا بازاء السرير واسماء جالسة مطرقة وقد خالج ضميرها مثل ما خالج ضميره وهى أكثر حياء منه ، فظلت صامتة تنتظر أن يفتح هو الحديث

▭

قال محمد بن ابى بكر لأسماء : « انى لا أرى عارا فى خروجك من هنا الى منزل على ، وهو الذى اقترح هذا ، ولا أخفى عليك ان الهياج قد اشتد على الخليفة فهو لن ينجو من الخلع أو القتل ، وبخاصة اذا ظل مصغيا لمشورة مروان ، فهيا بنا »

فهمت بالجواب . ولكنها لم تكد تفعل حتى سمعا سعال يزيد ، ثم راياه يدخل ؛ فبغت محمد ونفر من رؤيته لأنه لم يكن يحسن الظن به. أما يزيد فحالما رأى محمدا تقدم اليه وحياه وتظاهر بالترحيب به ، وسأله عن على قائلا : « كيف مولانا أبو الحسن ؟ » . فقال محمد : « فى خير »

قال : « الا ينوى الخروج الى الحج فقدآن اوانه وارى الناس يتأهبون له ؟ »

قال : « لا اظنه يستطيع ذلك هذا العام »

فقالت أسماء : « ولماذا ؟ » . قال محمد : « ان فى خروجه من المدينة الآن والناس فى هرج ومرج مجازفة ، وقد دعتنى شقيقتى ام المؤمنين الى أن أذهب معها الى الحج ، ولكن ما اظننى مستطيعا »

قالت : « ولماذا ؟ » . فلم يجب ولكن ملامح وجهه دلت على انه لايريد الخروج من المدينة وأسماء فى ذلك المكان على تلك الحال

فأحست أسماء انه يحبها ويغارعليها ، فسكتت مخافة ان يلحظ يزيد شيئا من ذلك

وعاد محمد فخاطب يزيد فقال : « أرسلنى اليكم مولاى أبو الحسن لأدعوكما الى النزول عنده تجنبا للنزول بالقرب من دارالخليفة والناس محيطون بها »

فقال يزيد : « لا أرى علينا بأسا هنا ، وقد فض الخلاف على ماسمعت »

فابتدرته أسماء قائلة : « كيف يفض الخلاف ومروان بالمرصاد ؟ »

قال : « وما الذى فعله ؟ » . قالت : « انه بعد ان استرضى الخليفة الثائرين وصرفهم بالحسنى عاد فحرضه عليهم ، فعاد الامر الى ما كان عليه ، واظن محمدا أعلم منا بما ينوون لأنه قادم من بينهم »

فهز محمد راسه وقال : « نعم ان مروان فى صباح هذا اليوم قد وسع الخرق حتى استفحل الخطب ولم يعد تلافيه ممكنا ، وهذا ماخوفنى عليكما لقربكما من الخطر » . قال يزيد : « وماذا ينوون ؟ »

قال : « اذا لم ينل هؤلاء الناس ما يرجونه فقد تسوء العاقبة ، كفانا الله شر الفتنة »

قال يزيد والخبث والرياء باديان على وجهه : « أراهم تعصبوا عليه وتجنوا ، وهم انما جاءوه يلتمسون الدنيا وفيهم من حقد عليه لمغنم فاته ، أو لحديث سمعه من واش مبغض ، وما الى ذلك ، ويدعون الغيرة على الاسلام رياء الناس »

قال محمد وقد ضاق بجوابه : « كل يعرف مانواه » . وسكت ، ثم سأل : « الا تأتيان معى الى منزل على ؟ » . قال يزيد : « لانرى مايدعو الى هذا الآن »

فنهض محمد وودعهما وخرج غاضبا ناقما على مروان وحدثته نفسه بأن فى بقاء عثمان خليفة عونا لمروان على نيل أسماء

اما هى فلم يكد محمد يتوارى حتى ندمت على بقائها ، فان انفتها منعتها من الخروج

أسماء فى دار الخليفة

اصبح يزيد بعد ان راى اختلاء محمد بن ابى بكر بابنته ، يخشى ان يزداد ميلها اليه اذا جاءها مرة اخرى فيفشل مسعاه لتزويجها مروان. وفكر فى حيلة تنجيه من ذلك فاعتزم أن يبغضه اليها وقال لها : « ارى محمداً من الناقمين على الخليفة فهل تعلمين سبب نقمته ؟ »

قالت : « وما ذلك ؟ » . قال : « علمت انه كان طامعا فى ولاية مصر، بدلا من عبد الله بن ابى سرح أخى الخليفة بالرضاع ، فلما لم يؤثره الخليفة على عبد الله نقم عليه . وعلمت أيضا انه كان قد ولاه مصر ووجهه اليها ثم رجع عن عزمه وأرجعه فعاد ناقما . وقد أشرت الى ذلك من طرف خفى فلم يجب »

فساء اسماء ظنه فى محمد ، وهى تشعر بعطف وميل شديدين اليه ، ولكنها سكتت . وفكر يزيد بعد ذلك فيما يأمن به خروج أسماء الى على فلم ير خيرا من أن يدخلها دار الخليفة . فتركها وقصد نائلة زوجة عثمان وترامى على قدميها وبكى ، فلما سألته عما يبكيه قال : « يبكينى ياسيدتى ما عليه ابنتى من الحزن على فقد امها ، واخشى اذا بقيت مقيمة وحدها أن تصاب بجنون ، وكثيرا ما اراها تهم بالخروج الى مدفن أمها فى قباء ، فأمنعها بالحسنى فلا تمتنع ، وهى كما تعلمين فتاة صغيرة لم تخبر الدنيا » . قال ذلك وشرق بدموعه مكرا وخداعا

فقالت نائلة : « وماذا ترى أن نصنع ؟ » . قال : « ارى أن تكون عندك تحت جناحك »

فسرت نائلة لأنها قد انست بأسماء وارتاحت لحديثها واعجبت بشهامتها . فقالت : « لك على ذلك فأت بها الينا »

قال : « أخاف اذا أنا حملتها على المجىء الا تطيعنى لفرط حزنها ، ولأنها اصبحت تسىء الظن بى ، فاذا رأيت ان تدعيها انت كانت اطوع لك »

قالت : « افعل ذلك حبا وكرامة » . وهمت بالنهوض والمسير اليها فابتدرها يزيد قائلا : « واتقدم اليك يا مولاتى برجاء الا تأذنى لها فى

الخروج من منزلك ، لأنها قد تحتال فى الخروج لغرض تدعيه و قصدها الذهاب الى قباء »

قالت : « لن تر سبيلا الى الخروج » . فودعها يزيد وخرج

اما اسماء فلما خلت الى نفسها تذكرت مصائبها وتسلط يزيد الغادر عليها فاخذت فى البكاء . وبينما هى تبكي اذ دخلت عليها نائلة ، فلما رأتها على تلك الحال تحققت قول أبيها فاخذت تقبلها وتعزيها و قالت لها : « ما بالك تبكين يا اسماء ، فقد بالغت فى الحزن و قد عهدتك رابطة الجاش ، ولا خير يرجى من الحزن » . وزادت اسماء بكاء حتى هاجت اشجان نائلة وذكرت حال زوجها والخطر المحدق به فبكت معها

فلما رأتها اسماء تبكي شكرت مشاركتها لها فى مصابها ، وشعرت بتعزية و قالت : « ما الذى يبكيك ياسيدتى وانت زوج أمير المؤمنين مالك رقاب المسلمين ؟ »

قالت نائلة : « اما شهدت بعينك ما احاط بنا من البلاء بطيش ذلك الشاب الغر ؟ »

فانقبضت نفس اسماء عند الاشارة الى مروان ، وتنهدت تنهدا عميقا ولسان حالها يقول : « انه سبب بلائى انا أيضا » . ومنعها الحياء

فلما سكن روع نائلة قالت : « انت يا أسماء نعم العزاء لى فى هذه المحنة ، فاذا كنت تحبينني فتعالى فنقيم معا فى دارنا »

فاثنت اسماء على غيرتها ، وخيل اليها ان حب نائلة قد يكون عونا لها على النجاة من مروان اذا وسط الخليفة فى تنفيذ ماربه فقالت : « انى طوع ارادتك يا سيدتى فان الاقامة فى حماك شرف عظيم لمثلى »

فوقفت نائلة واستنهضت أسماء فنهضت ، وسارتا معا

قضت اسماء بقية اليوم تفكر تارة فى مروان وطورا فى محمد وآونة فى أمرها مع يزيد ، وقد ندمت لأنها لم تذهب مع محمد الى منزل علي . ولكنها استأنست بنائلة وارتاحت لمجالستها . وكذلك كان شأن نائلة اذ اتخذت من اسماء تسلية لها فى ضيقها لما آنسته فيها من سداد الرأى وثبات الجاش وحسن الخلق ، مع نفور من مروان هما مشتركتان معا فيه ، ولولا قرابته من الخليفة لقرعت له العصا وأوقفته عند حده

ولما اقبل المساء تناولتا العشاء ، والخدم والجوارى وقوف بين أيديهما ، والاضطراب باد على وجوههم على غير المعتاد

فلما فرغتا من الطعام وذهبتا الى حجرة الرقاد ، نادت نائلة قيم الدار فسألته عما لديه من الاخبار ، فقال : « ان مولاى الخليفة لم يذق طعاما

فى هذا المساء وهو فى اضطراب وقلق شديدين والناس حول الدار وعند الابواب ، وقد حاصرونا ومنعوا الماء عنا »

فبغتت نائلة وقالت : « وكيف يمنعوننا الماء قبحهم الله »

قال : « لقدمنعوه ياسيدتى ونحن انما نستقى الآن مما بقى فى الآنية من الامس ، ولا ندرى كيف نستقى اذا ظل الحصار . وهذا مادعا أمير المؤمنين الى القلق »

فضربت نائلة كفا بكف وقالت : « ويلاه . كيف يمنعون الماء عن أمير المؤمنين ؟ »

فقالت اسماء : « لا تحزنى ياخالتى ، انى كفيلة بالاستقاء مهما يبالغ القوم فى الحصار »

قالت نائلة : « وكيف تستطيعين ذلك ؟ »

قالت : « يحمل الماء الى بيت جيرانكم آل حزم ونحن ننقله سرا الى هذه الدار »

فاطمأنت نائلة لهذا الراى، ولكنها بقيت تخشى عاقبة الحصار، فصرفت القيم وجلست وهى تتنهد وتتأوه وأسماء تهون عليها . ولم تكد تجلس حتى سمعت جلبة ووقع اقدام فى الدار ، فنهضت مسرعة ولم تكد تفتح الباب حتى لقيها مروان وقد تزمل بعباءته وتقلد سلاحه كأنه على سفر . فلما رآها سلم وتقدم اليها فاستعاذت بالله من رؤيته وقالت : « ما الذى جاء بك يا مروان ؟ »

قال : « انى ذاهب فى امر ذى بال ، وقد جئت لوداعك . وهل تلك الفتاة عندك ؟ »

قالت : « هى عندى ، وما غرضك منها ، اذهب فى مهمتك »

قال : « اريد ان اراها قبل سفرى » . قال ذلك ودخل الغرفة ، فلما راته أسماء أجفلت ولكنها لبثت صامتة لا تتحرك فقال لها وهو يضحك : « الا تزالين على رغبتك فى منازلتى يا أسماء »

قالت وهى جالسة لا تعبأ بقوله : « لو كنت رجلا حرا لنازلتنى لما دعوتك للنزال »

قال : « لو لم أكن على سفر لأدبتك وربيتك ، وان ابن ابى بكر لا يغنى عنك شيئا »

فلما ذكر محمدا ثارت فيها الحمية وقالت : « اراك تذكر الرجل فى غيبته ، فاذا حضر سكت ! »

فأغرب فى الضحك وقال : « سوف ترين وتسمعين ما تندمين عليه

حين لاينفعك الندم ، ولسوف يذوق هو مرارة الحرمان من منصب طالما طمح اليه ، ونقم من اجله على أمير المؤمنين وأثار المسلمين وحرض على الفتنة »

فهمت اسماء بأن تجيبه، فاشارت اليها نائلة أن تكف وقالت لمروان : « اذهب ياولدى لعل فى السفر راحة لنا ولك ، اننا لم نر فى اقامتك خيراً »

فضحك مروان وظنها تمزح ، وأمسك بيدها حتى تواريا عن أسماء ، وهمس فى اذنها قائلا : « احتفظى بها فانى عائد قريبا للزواج بها . وانها والله لجميلة ، واراني أحبها واغار عليها بالرغم منى ، ولا أرى فى بنات قريش اجمل منها ولا أكمل، ولكنها لاتزال صغيرة لاتعرف مقام الرجال »

فتركته نائلة وعادت الى الغرفة وهى تعجب لطيشه ونزقه ، فلما خلت بأسماء عادت الى بلبالها وفيما هم فيه من الحصار، فلم تر وسيلة لملافاة الفتنة الا ان يتوسط على فى ذلك . ثم تذكرت ما قاله بالامس وتحذيره زوجها من اغراء مروان فرجح عندها أنه لن ينصره ، فصبرت لترى ما يأتى به الغد

اما أسماء فسرت لذهاب مروان من المدينة لعلها تتمكن فى أثناء غيابه من وسيلة تصلح بها ما أفسده

قضت أسماء فى دار عثمان ردحا من الزمن كانت فيه نعم السلوى لنائلة ، فالدار محاطة بالرجال ليلا ونهارا ، وقد منعوا الماء عنها . ولولا ما أشارت به من الاستسقاء عن طريق آل حزم لمات أهل الدار عطشا

اما نائلة فلم تعد تستطيع صبرا على تلك الحال ، فأصبحت ذات يوم بعد ان قضت ليلتها باكية لما تراكم عليها من الهموم وما آنسته من اضطراب زوجها وقلقه وخوفه ، واخذت تفكر عسى ان ترى مخرجا فلم تر خيرا من استنجاد على . وأسرت ذلك الى اسماء واستحثت حميتها . فاستسهلت اسماء كل صعب فى سبيل اخماد الفتنة وانقاذ عثمان من عاقبتهما . فقالت لنائلة : « انى أرى رأيا ارجو أن ينال منك قبولا »

قالت : « وما هو ؟ » . قالت : « اذهب انا الى على، ومروان غائب، وأطلعه على جلية الأمر لعله يسعى فى اخماد الفتنة وهو رجل الخير وبه صلاح هذه الأمة »

قالت : « لقد اصبت ، وانك بذلك تقلدينني جيلا لا انساه »

قالت : « ساذهب هذا المساء الى على والله ولى الأمر »

ولما كان الغروب ، تزملت بلباس الرجال ، وتقلدت الحسام تحت العباءة، وغطت راسها بالعقال وخرجت من دار عثمان الى بيت بنى حزم ، ثم خرجت من هناك تخترق الجموع وسارت تلتمس عليا

وكان على فى بيته بعد صلاة المغرب ، وعنده طلحة والزبير وأمراء المسلمين القادمون من الانصار نقمة على عثمان ، وكلهم يحرضون عليه الناس . ولكنها لم تجد محمدا بن ابى بكر بينهم . وشاهدت فى فناء البيت الجموع من اهل مصر والكوفة والبصرة فى ضجة وغوغاء . فوقفت فى جلة الواقفين ولم ينتبه لها أحد ، فسمعت الأمراء يلغطون ويضجون وكلهم يقولون بقتل عثمان أو خلعه ، وعلى يخفف عنهم ويؤنبهم على ما يبغون من شر ويقول : « والله يا قوم لا أرى فى مقتل الخليفة الا تعاظم الفتنة ، انكم والله ستختلفون على من يلى الخلافة بعده ، فابقوه ، ذلك خير لكم »

فانشرح صدر اسماء لشهامة على وحسن دفاعه ، ولم تتمالك أن دخلت وهى فى ذلك اللباس ودنت من على فنظر اليها وقد عجب لجرأتها وهو يحسبها من بعض المتحمسين . فتفرس فيها مستفهما والتفت الأمراء اليها ، فكشفت عن وجهها ، فلما رآها على عرفها فاستغرب دخولها وانكر كشف وجهها على تلك الصورة ولكنه لم يسعه الا أن رحب بها قائلا: « اهلابفتاتنا ومرحبا ، ما الذى جاء بك ؟ »

فاستغرب الحضور ترحيبه بها وهم لايعرفونها ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو منها . اما هى فوقفت بين أيديهم غير هيابة أو وجلة وقالت : « هل تأذنون لفتاة بكلمة فى خير المسلمين ، تكشف لكم القناع عن كنه ما نحن فيه وقد خبرته بنفسى » . قال على : « تكلمى يا بنية » . قالت : « اغلقوا هذا الباب حتى لا يسمع من هم خارج الدار »

فأمر على باغلاق الباب ، ودعاها الى الجلوس فابت الا الوقوف بين يديه ، ثم قالت : « يا معشر المهاجرين وخيرة اصحاب الرسول ، انكم ، والله شاهد ، اذا أردتم بأمير المؤمنين شرا لظالموه ، وهو برىء لا يستوجب قتلا أو خلعا ، وما أظنكم اذا قتلتموه او خلعتموه الا نادمين ، ولا ينفع الندم »

فاص فى الجميع وهم معجبون لتلك الجراة من فتاة صغيرة بين يدى كبار الصحابة ، ولبثوا صامتين فاستأنفت حديثها وقالت : « اما اذا شئتم اخماد الفتنة فاقلعوا اصل الشر . اقتلوا مروان بن الحكم فانه

سبب ذلك البلاء العظيم . ان الخليفة ايها الامراء برىء مما يتقوله الناس عليه ، وهو كما تعلمون من خيرة الصحابة شفوق رؤوف . وقداذعن واعتذرجهارا على مسمع من المسلمين ، ولكن ابن‌عمه مروان ذلك الغلام الغر هو الذى يفعل ما يفعل من عند نفسه ، فلا تقتلوا البرىء بالمذنب . اقتلوا مروان بن الحكم فيستقيم الامر ، اما اذا اصاب الخليفة ضيم فستسالون امام الديان العظيم . قد كفاكم انكم منعتم عنه الماء اربعين يوما ولا يعلم ما يقاسيه من جراء ذلك الا الذين يعاشرونه »

فبهت الجميع لفصاحة اسماء ورباطة جاشها وجراتها ونظر بعضهم الى بعض متسائلين ، فالتفت على اليهم وقال : « هـــذا ما اراه يا أصحاب رسول الله ، ان عثمان اذعن واستغفر ، ولولا ابن عمه لنامت الفتنة ، وارى كلام هذه الفتاة صوتا من أصوات أهل السماء »

فقال طلحة : « ولكننا لم نأل جهدا فى نصحه ليرجع عن مشورة ابن عمه ، وهو يصغى اليه ويعمل بقوله ، اما سمعت ما قاله مروان على مشهد من المسلمين ؟ »

فقال على : « وما ادراكم ان كلامه لم يكن من عند نفسه؟ يكفينا تأنيبا ان تقف البنات العذارى موقف الواعظين يحرضننا على العمل بسنة المسلمين . ومهما يكن من صبركم ونصحكم فانى أكثركم صبرا عليه، ولقد نصحت له مرارا وخرجت من مجلسه آخرمرة وقد عاهدت نفسى الا اتوسط فى امره . ولكنى لما علمت بمنع الماء عنه ركبت مغلسا الى محاصريه وهم وقوف ببابه وقلت لهم : (يا أيها الناس ان هذا العمل لايشبه امر المؤمنين ولا الكافرين ، وانما الاسير عند فارس والروم يطعم ويسقى) . فلم الق منهم مصغيا . » . ثم وجه كلامه الى اسماء وقال : « والله ان كلا من هؤلاء الأصحاب قد دافع عن عثمان وسعى فى حقن الدماء حتى ان ام حبيبة زوج الرسول (صلعم) ركبت اليه بغلتها وحملت‌عليها وعاء فيه ماء ، وادعت انها تريد ان تكلمه عن وصايا عنده لبنى امية او تهلك أموال ايتامهم واراملهم ، فقالوا : (لا والله) . وضربوا بغلتها فنفرت وكادت تسقط عنها فذهب بها الناس الى بيتها . اما انت فبورك فيك يا بنية ، والله انك انما جئت بخير » .

ثم نظر الى من حوله ونادى الحسن والحسين ابنيه فقال : « اذهبا الى بيت امير المؤمنين وادفعا عنه وارجعا الناس عن بابه ، وانت يا طلحة ارسل ابنك ، وانت يا زبير ارسل ابنك ايضا» . فنادى كل منهما ابنه. ثم قال على : « واين محمد ؟ » . فقالوا : « واى محمد تعنى ؟ » . قال : « محمد بن ابى بكر اين هو ؟ » . فجعلوا يتساءلون عنه فلم يعثر عليه

احد ، فتأفف على وهز رأسه وقال : « والله انى خائف مما فى نفس محمد على الخليفة » . فعلمت أسماءأن محمدا حاقد على الخليفة انتقاما من مروان ، فلبثت تنتظر ما يقال عنه لعلها تعرف مقره . فلمـا لم يعثر عليه احد قال على لابنيه ولسائر أبنـاء الصحابة : « سيروا فى حراسة الله ولا تألوا جهدا فى الدفاع عن حياة أمير المؤمنين ورد الناس عن بابه ، واذا رأيتم ابن أبى بكر فأنفـذوه الى ، انى والله خائف مما يضمره »

فقال طلحة : « أتظنه ينقم عليه عزله عن ولاية مصر ؟ »

فنظر على الى طلحة ولم يجب . فسار أبناء الصحابة وقد هاج الناس وماجوا ، وكلهم يلتفت الى أسماء . اما هى فسارت بين الجموع وخرجت ولم يعد يراها أحد

□

وعادت أسماء وهى تفكر فى محمد وخافت أن تكون غيرته من مروان قد حملته على مناهضة عثمان ، فأرادت أن تتحقق من نيته وهى فى دار عثمان فاذا أراد سوءا بعثمان حولته عن عزمه لأنهاأصبحت بعد سعيها فى نجاة عثمان تضن بحياته كثيرا

وكانت نائلة قد مكثت فى البيت بعد ذهاب أسماء وهى على مثل الجمر ، والليل قد أسدل نقابه ، فجلست تنتظر عودتها وهى تضمر لها كل خير اذا جاءتها بالفرج . وبينما هى فى ذلك والغوغاء قد تكاثروا على الدار خطر لها أن تذهب الى زوجهـا تستطلع حاله فخرجت ودخلت عليه فى حجرته ، فرأت مروان خارجا من عنده فاستعاذت بالله من رؤيته . أما هو فاعترضها قائلا : « لا تدخلى على الخليفة انه فى شغل شاغل عنده فارجعى الى بيتك » . قال ذلك وهو لا يكاد يخفى اضطرابه . فأذعنت لأنه كاتب الخليفة وحامل خاتمه ، فرجعت وهو يتبعها حتى وصلت الى حجرتها فدخل معها ونظر فى جوانب الغرفة فلم ير أسماء فقال : « وأين أسماء ؟ » . قالت : « ستأتى عما قليل »

قال : « هل خرجت من الدار ؟ » . قالت : « لا . ولكنها مشغولة ولا تلبث أن تعود ، فاصدقنى خبر الخليفة ما باله وما الذى شغله الآن ؟ »

قال : « لم يشغله شىء ولكنه يصلى والقرآن بين يديه » . فصدقته

وصمتت ، اما هو فاعاد السؤال عن اسماء فقالت : « قلت لك انها لا تلبث أن تجيء » . فتركها

ولبثت هي تنتظر عودة أسماء بصبر نافد مخافة أن يعلم مروان بخروجها فيصيبها من ذلك سوء . ولم تكد تجلس حتى سمعت ضجيجا فى صحن الدار فأطلت فرأت جماعة داخلين وفيهم الحسن والحسين وأبناء الصحابة ، فخافت ان يكون فى قدومهم شر ، ولكنها ما لبثت أن سمعت الحسن يكلم اهل المنزل ويهدىء من روعهم ويقول : « لا تخافوا ، اننا جئنا للذب عن الخليفة » . فأدركت انهم انما جاءوا بمسعى أسماء ، وبعد هنيهة رات أسماء قادمة وهى تخفى نفسها فاستقبلتها باسمة واستطلعتها الخبر فطمأنتها وقالت : « ان الصحابة ارسلوا ابناءهم للدفاع عن الخليفة وارجاع الناس عن بابه »

فسرت نائلة وهدأ روعها وشعرت بفضل اسماء عليها واعتزمت أن تسعى فى انقاذها من مروان ، فاحتالت فى الدخول على الخليفة فاذا هو جالس والقرآن بين يديه يقرأ او يصلى صائما ، ولا يلتفت يمينا ولا يسارا ، فدنت منه بخفة فانتبه لها وقال : «ما الذى جاء بك يا نائلة؟» قالت : « انما جئت أفتقد أمير المؤمنين وأبلغه ان فى الدار الحسن والحسين وجميع ابناء الصحابة وقد جاءوا بعدتهم يدفعون الناس عن بابنا »

فقال وهو لا يزال ينظر فى صفحات القرآن : « لا حاجة بى الى من يذب عنى ولا أريد أن يهرق من أجلى محجب من الدم » . قال ذلك وعاد الى القراءة فعجبت نائلة لذلك وارادت أن تذكر أسماء لديه فلم تر سبيلا الى ذلك ، فعادت الى غرفتها وقضت تلك الليلة لم يغمض جفناها ، وأسماء تعزيها وتشجعها ، ولولا ذلك لماتت قلقا ورعبا فقد كانت تسمع الغوغاء حول الدار عند بابها ولا تجرؤ أن تطل

أما أسماء فلما علمت بعودة مروان من سفره هرولت الى حجرتها لئلا تراه ، وبات ابناء الصحابة ليلتهم وهم يهددون الواقفين عند الباب ، طورا ، وطورا يتوعدونهم ، وكل اهل الدار فى اضطراب وقلق الا عثمان فانه قضى ليلته يقرأ القرآن ويصلى

وفى الصباح التالى استيقظت أسماء على صوت مروان فى غرفتها ، ونائلة جالسة بجانبها ، فجلست واستعاذت بالله . فقال لها مروان : « ما الذى خرج بك من هذه الدار ؟ » . فقالت : « وما شأنك وخروجى او دخولى ؟ »

قال : « كيف لا وأنت امرأتى ؟ ! » . فأجفلت أسماء وصاحت : « خسئت يا نذل لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك ، دع عنك هذا الهذيان »

فمد مروان يده الى جيبه وأخرج رقا عليه كتابة ، وقال : « هذا

كتاب العقد وعليه خاتم الخليفة » . فنظرت أسماء ونائلة فرأتا الخاتم فبهتتا . ولكن أسماء تبسمت ولم تعبأ بتهديده وقالت : « قد عرفناك قبل اليوم تزور الكتب على أمير المؤمنين . ان الخليفة برىء مما تعمل وقد اخطأ اذ جعلك كاتبه ، أما كفاك ما ايقظت من الفتنة بتزوير الكتب ، حتى جئت تفتعل كتاب العقد أيضاً ، ان هذا البلاء الذى نحن فيه انما هو من تزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة الى والى مصر ، وكان الناس قد عادوا الى بلادهم فأرجعتهم وأعدت الفتنة ، فأرجع هذا الكتاب الى جيبك ، واخرج من هذه الغرفة قبل أن أذيقك الهوان » .

قالت ذلك وهمت به وهى تخرج خنجرها من بين أثوابها ، وكان لا يفارق جنبها أبدا . فهمت بها نائلة لتجلسها فأفلتت منها وهجمت على مروان تريد قتله ، ففر أمامها ، ثم عاد وقد جرد حسامه وهجم عليها ، ولكنه سمع ضجة عظيمة فى صحن الدار ، وصوتا ينادى : « مروان ، مروان » . فخرج مسرعا والسيف فى يده



مقتل عثمان

لم يلبث من فى دار عثمان ان راوا الدخان يتصاعد من جهة بابها ، فحسبوا أن قد شب فيها الحريق فهاجوا وماجوا واشتغل كل بنفسه وصاحت نائلة : « ويلاه ! قد احرقونا » . وهرولت مسرعة الى حجرة زوجها

واطلت اسماء من نافذة على باب الدار ، فرات النـاس قد تجمهروا وعددهم يزيد على ألف وجعلوا يرمون الدار بالنبال حتى اصيب كثيرون . ثم رأت بعضهم قد اقتحموا الدار عنوة ، وابناء الصحابة وفيهم الحسن والحسين يدفعونهم ، ورأت آخرين قد أوقعوا النار فى السقيفة فوق الباب ليحرقوها ويحرقوا الباب معا . وسمعت جموعهم يصيحون : « ادفعوا الينا مروان فنقتله وكفى » . فاضطربت اسماء وفتحت النافذة وخنجرها لا يزال في يدها ، وسارت الى غرفة عثمان لعلها تقنعه بتسليم مروان فينجو هو ، فرات الدارملأى بالناس وقد دخل بعضهم من ناحية دار بنى حزم ، ورأت مروان وبيده السيف يريد أن يدفعهم فهجم عليه احدهم وضربه بالسيف على عنقه فدار دورة ووقع . فصاحت أسماء : « بورك فيك يا من قتلته فانه أصل الشر كله » . ولكن الضربة لم تكن قاضية فقطعت احد علباويه فعاش مروان بعد ذلك ، بينما حسبته أسماء قد مات وسارت وسط الجماهير الى حجرة الخليفة فراته جالسا والقرآن بين يديه وعنده نائلة واقفة والدموع ملء عينيها

ولم تكد تقف حتى دخل الحسن والحسين وأولاد الصحابة وفى أيديهم السيوف مسلولة ، ورأت ثياب الحسن مصبوغة بالدم ، وكان عثمان لما سمع بدفاعهم عند باب داره خاف عليهم فبعث يستقدمهم اليه ليردعهم عن ذلك قائلا : « اغمدوا السيوف وارجعوا ، فان الله قد عهد الي وانا صابر عليه ، وقد علمت ان الناس قد أحرقوا السقيفة فلم يحرقوها الا وهم يطلبون ما هو أعظم » . ثم وجه خطابه الى الحسن فقال له : « ارجع يابنى ، ان اباك الآن فى هم عظيم من أمرك » . فلم يصغ الحسن وأبناء الصحابة لقوله ، وعادوا يدفعون الناس ، وظل هو على مقعده يقرأ ولا يبالى الغوغاء وعنده زوجته نائلة

وكانت اسماء منتبذة مكانا بالقرب منها وقلبها يخفق خوفا عليه ، فما لبثت ان رات رجلا من قريش دخل عليه وقال له : « اخلعها وندعك » ـ يعني الخلافة ـ فقال عثمان : « ويحك والله ما كشفت امراة فى جاهلية ولا اسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (صلعم) . ولست خالعا قميصا كسانيه الله تعالى ، حتى يكرم أهل السعادة ويهين اهل الشقاء » . فخرج الرجل . ثم رأت رجلا عرفت بعد ذلك أنه عبد الله ابن سلام قد وقف فى الناس وقال : « يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم فوالله ان سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم ان سلطانكم اليوم يقوم بالدرة (السوط) فان قتلتموه (أى الخليفة) لا يقوم الا بالسيف . ويلكم ان مدينتكم محفوفة بالملائكة فان قتلتموه لتتركنها » . فصاحوا فيه : « ما انت وهذا يا ابن اليهود » . فسكت

كل ذلك وأسماء واقفة مضطربة القلب لاتدرى ماذا تعمل ، وكانت قد اطمأنت الى ما اصاب مروان لظنها أنه قتل ، ثم ما لبثت أن رات محمدا بن أبى بكر قد دخل مسرعا ووراءه جماعة حتى دنا من عثمان . فأوجست خيفة من قدومه لعلمها بما فى نفسه ، ثم سمعت عثمان يقول له : « ويلك ، أعلى الله تغضب ، هل لى اليك جرم الا حقا اخذته منك » . فأمسكه محمد بلحيته وقال : « قد أخزاك الله يا عثل » ـ وكان عثل لقبا يلقبون به عثمان ـ فقال عثمان : « لست بعثل ولكنني عثمان وأمير المؤمنين »

قال محمد : « ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان »

فقال عثمان : « يا ابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها » ـ أى على لحيته ـ فقال محمد : « لو رأى ابى أعمالك لأنكرها عليك ، والذى أريد بك أشد من قبضتى عليها »

فقال : « أستنصر الله عليك واسنعين به »

فلما رات أسماء ما دار بينهما خافت أن يفتك محمد بالخليفة فيحيق به العار . فدنت منه ووقفت بحيث يراها وأشارت اليه أن يكف عما هو فيه وأن يتبعها . فلما رآها محمد ترك لحية عثمان وخرج ليعلم منها ما تريد . فانتحت به جانبا وقالت : « من أين دخلت الدار »

قال : « دخلت من دار بنى حزم » . قالت : « وانت ايضا على عثمان ، انه برىء مما يفترون » . ثم سمعت صياح نائلة ، فأسرعت اليها فاذا هى قد حلت شعرها ونشرته ، وعثمان يقول لها : « خذى خمارك ، فلعمرى لدخولهم على أعظم من حرمة شعرك »

ثم رات رجلا ممن دخلوا مع محمد بن ابى بكر هم بعثمان وبيده



« فأكبت نائلة عليه ولاقت السيف بيدها فقطع أصابعها »

حديدة ضربه بها على راسه فسال دمه على المصحف ، وتبعه آخر ليضربه بالسيف فأكبت نائلة عليه والتقت السيف بيـدها فقطع اصابعها ، فثارت الحمية فى راس أسماء فاستلت خنجرها تريد قتل الرجل ، فأمسكها محمد ولم تمض لحظات حتى قتل عثمان ، وفر قاتلوه

فلما رأته نائلة مجنـدلا حملت يدها والدم يسيل منها وخرجت تبكى ، وتنادى الحسن والحسين فدخلا فرأيا عثمان مذبوحا يتخبط فى دمائه . فصاحا : « كيف يقتل عثمان ونحن فى داره ، وبماذا نجيب أبانا اذا سألنا فى ذلك ؟ »

أما أسماء فأجهشت بالبكاء ، وجعلت تنظر يمنة ويسرة لعلها ترى القاتل فتنتقم منه فاذا هو قد فر ، وتهافت الناس على بيت عثمان ينهبون ويسلبون ، وعلت الضوضاء واختلط الحابل بالنابل

□

أما محمد فهم بأسماء وأخذ بيدها وقال لها : « اتبعينى » . فتبعته حتى خرج بها من الدار وهى تود البقاء لترى ما حال نائلة ، ولـكنها أطاعته طوعا لقلبها ، على أنهـا ما لبثت أن جذبت يدها من يده ، وقالت : « الى أين نحن ذاهبان يا محمد ؟ »

قال : « هل ترين لك مأربا فى دار عثمان بعد ، لقد نصحت لك بأن تخرجى منها منذ أيام فلم تدعنى حتى رأيته يقتل امامك ، وهـذا ماكنت أخشاه عليك » . قالت : « انكم ظلمتموه يامحمد ، ولواستطعت انقاذه من أيديكم لفعلت . تبا لمروان انه أصل هذا البلاء » . قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدموع ، فقال محمد : « دعينا من ذلك ، لقد قتل عثمان ولم يعد بقاؤك فى داره مستطاعا والناس قد دخلوها ينهبون . فافصحى الآن ان الوقت ضيق والأمر جلل ولا أستطيع البقاء معك الا قليلا »

قالت : « وماذا تريد منى ؟ » . فابتسم وقال : « الا تعلمـين ما أريده ؟ »

قالت : « نفسى تحدثنى » . وسكتت حياء فقال : « أرجو أن يكون قلبك هو الذى يحدثك »

قالت : « يلوح لى ان مقتل عثمان لا يهمك . انى والله لا أستطيع استعادة رؤيته والدم يجرى من عنقه »

فتنهد محمد وقال : « أتظنينى غير آسف لقتله ؟ »

قالت : « لا اظنك آسفا وانت البادىء بالقتل . ووالله لو لم يسبق الى قلبى سابق ما استطعت النظر اليك »

قال : « اراك تؤنبينني وما هذا وقته ، ولو أطلعتك على اصل هذه الفتنة لطال بنا المقام ونحن فى حال تدعو الى المبادرة فلنجاوزها الآن . فانى مسرع الى على لأنى اتوقع شقاقا عظيما يقع بين الصحابة ولا بد لى من غشيان مجلسهم . واما انت فلا ارى أن تقيمى هنا والحال فى اضطراب »

قالت : « ساصبر حتى اسمع عذرك فى قتل خليفة الرسول ، فان لم اقتنع » . واطرقت حياء مما كاد لسانها ان ينطق به

فاعجب بصراحتها وسلامة مبدئها ، وازداد شغفا بها وقال : « انى واثق بتبرئتى نفسى من تبعة القتـــل ، فاصبرى حتى نجتمع على سكينة واذهبى الآن الى مأمن »

قالت : « الى اين اذهب وامتعتى وجوادى فى دار عثمان ؟ »

قال : « لك على احضارها ، اما وجهتك فلا ادلك عليها قبل أن أعلم مرادك »

قالت : « وما مرادك انت ؟ » . قال : « انى صريع حبك فهــل تأذنين ؟ »

فاحمر وجهها خجلا وارخت النقاب على وجهها ولم تجب

قال : « زيدينى بهذا الخجل غراما بك . . قد عزمت يا أســماء أن اريحك وانجيك من ابيــك . . او الذى يدعى انه أبوك . . وقد تركك منذ ايام ولا أظنك تعلمين مقره . واما مروان فلا فضــــل لى فى انقاذك منه وقد نال نصيبه »

فلم يكد يذكر اسم مروان حتى تنهدت وقالت : « قبـــح الله مروان انه سبب هذا البلاء ، وقد كنت أود قتله بيدى لأشفى غليلى منه »

قال : « لا اظنه قتل وقد تركته فى الدار يعصب عنقه على أثر جرح اصابه ، دعينا منه ومن اسمه ، اما ابوك الشيخ الغر فلا اظنه يجرؤ على الظهور بعد مقتــــل عمثان ، وارجو منك الا تدعيه اباك بعــد الآن فانه بعيد عن هذا بعد الارض عن السماء . وها انذا ذاهب الى بيت على ، واظنه سيلى الخلافة لانه احق بها واولى ، وانما دونها شــقاق عظيم ، فلا آمن من شر يصيبك اذا كنت فى منزله فأرى ان أذهب بك الى مأمن تبقين به حتى تهدأ الاحوال فنعيش معا باذن الله . الا ترين ذلك ؟ »

فأطرقت أسماء وقدهاجت اشجانها وتذكرت اباها غير آسفة لفراقه ولكنها اسفت لفراقها نائلة وهى على حزنها واضطرابها وزوجها ملقى

وتيلا . على ان اتقاد الحب فى قلبها أنساها كل شيء الا محمدا ، وكانت احبته من أول نظرة عندما ذكرت أمها اسمه ، وأصبحت بعدما علمت منزلته من على ، وانه ابن أول الخلفاء ، شديدة الميل اليه. فظلت صامتة تهم بالكلام ويمنعها الحياء وقد تخلت عنها جراتها ، وانفثأت تلك الخمية التى كانت موضع اعجاب الرجال ، واحست بخفقان قلبها وهياج عواطفها فأبرقت أسرتها وتلألأت عيناها ، كأن لسان حالها يقول : (أن الله يتمنى ولكنه نظر الى فحببنى الى خير ابناء الصحابة)

وشعر محمد انها تكتم حبه فلم يزد. وقال لها : «مارأيك فى ان اذهب بك الآن الى احدى ذوات قرباى فى بعض أطراف المدينة ، تقيمين عندها حتى تنقضى الازمة التى نحن فيها ويبايع على بالخلافة فيرجع الامر الينا ، فنقيم فى رغد وهناء باذن الله » . قال ذلك ومشي ، ومشت فى اثره حتى انتهى الى منزل فى طرف المدينة ، واذا بامرأة عجوز لم تكد ترى محمدا حتى همت به وقبلته مرحبة

فقال لها : « جئتك بأعز شيء لدى فاحتفظى بها » . ثم التفت الى اسماء وقال : « امكثى هنا يا اسماء ريثما أعود ، ولا تضجرى اذا طال غيابى »

فقالت : « لاتنذرنى بطول الغياب فقد لا أستطيع صبرا على البقاء » . قالت العجوز : « لعلك خشيت الاقامة بيننا ، والله لأقومن على خدمتك اكثر من خدمتى ابنى هذا » . وأشارت الى محمد . وأخذتها بيدها ودخلت بها فودعهما محمد ومضى

▭

احست اسماء بالوحشة فدخلت غرفة تخلو بها الى نفسها ، ولم تكد تفعل حتى تمثل لها عثمان مطروحا أرضا ، ونائلة واقفة فوق راسه وقد حلت شعرها وأخذت تلطم خديها وتندب . وسرى الحزن فى جوانبها واقشعر بدنها وندمت على تركها نائلة على تلك الحال

فقضت يومها وحيدة كئيبة ، ولما امسى المساء قصدت الى الفراش تلتمس النوم فلم يغمض لها جفن ، ولم تغب صورة عثمان وداره عن عينيها . فباتت ليلتها تتقلب على مثل الجمر ، تفكر تارة فى محمد ، وأخرى فى يزيد ، وهى لا تعرف مقره ، وآونة فى عثمان ونائلة . حتى مضى هزيع من الليل فغلبها النعاس فنامت ، وأصبحت فى اليوم التالى وضميرها يبكتها على هجرها صديقتها نائلة فى ساعة الضيق ، وحدثتها نفسها ان تذهب اليها ، وخافت أن يجيء محمد فى أثناء غيابها فيغضب

وانقضى النهار ولم يأت محمــد فاضطربت ، على انها التمست الفراش مبكرة عسى أن تنام فتنسى ما هى فيه ، فطال ليلها ولم تنم الا فى فترات حتى بدأ الفجر فأغمضت فرأت طيف نائلة فى حالة يرثى لها وقد احمرت عيناها من البكاء وقطعت شــعرها فى الندب ، فلمـا صحت وتذكرت الرؤيا غلبها الخجل على امرها ، وشعرت ان خيــال نائلة يؤنبهــا على خروجها على تلك الحال ، فأفاقت مذعورة وقد بلل الدمع وسادتها ، ونظرت الى السماء فرأت الشمس قد طلعت ، فهمت بالمسير الى دار عثمان تفتقد نائلة ، ثم تذكرت ان محمدا أوصى العجوز بالاحتفاظ بها ، فخافت أن تمنعها فقضت نهارها قلقة مضطربة ، تتردد بين الذهاب والبقاء حتى أمسى المساء وذهبت الى فراشــها ، فجعلت تتقلب كأنها توسدت شوكا فانقضى نصف الليل وهى فى أرقها وقلقها ، حتى اشتد بها الامر ولم تعد تستطيع صبرا ، فنهضت وارتدت بردائها وتقلدت خنجرها وانطلقت تطلب دار عثمــان على عجل . وكان الوقت صــيفا فجعلت طريقها فى أطراف المدينة لئلا يراها احد وارخت نقابهــا على وجهها

وما كادت تسير بضــع خطوات حتى رأت اشــباحا تفرست فيهم فعرفت من قيافتهم انهم من بنى أمية يهرعون بين راكب وراجل فرارا من المدينة كأنهم يطاردون ، فسارت فى حذاء الجدران مخــافة أن يكون مروان فيهم فيعرفها حتى مروا . وطال بها المسير ولما تصــل الى دار عثمان لأنها كانت تجهل الطرق فأرادت الرجوع الى منزل العجوز فضلت الطريق اليهــا . وكان الفجر قد دنا فخيل اليها انهــا اذا أشرفت على المدينة من مرتفع هناك تمكنت من تعيين محل الجامع فاذا عرفته عرفت منزل عثمان فتحولت الى سور المدينة فى مكان خارج البقيــع وهناك أرض مهجورة قل من يمر بها . ولم تكد تدرك المكان حتى رأت بضعة عشر رجلا مهرولين من بعيد ، وفيهم أناس يحملون لوحا عليه شىء . فحسبتهم من الهاربين يحملون أمتعتهم وانهم انما طلبوا الطريق البعيد خوفا من العيون . فتنحت الى زقاق ضــيق واستترت بنخلة بحيث ترى المارة ولا يرونها . فلما دنوا منها عرفت منهم أناسا منهم مروان وعبد الله بن الزبير وكانت قد رأته فيمن جاء للدفاع عن عثمان من أبناء الصحابة ، فلما رأت مروان بالغت فى الانزواء ، وتفرست فيما يحملونه فاذا هو جثة مطروحة على باب وجمجمتها عارية تقرع الباب لاسراعهم فى المسير من شدة الخوف ورأت على الجمجمة لحية كبيرة غضة مضفرة فعرفتها انها لحية عثمان . ونظرت الى الثياب فاذا هى ثيــابه ولا يزال الدم عليها ، فلم تشك أن الجثة جثته. فخفق قلبها وارتعدت فرائصها لما حل بهذا الخليفة العظيم بعــد موته ، وادركت انهم خرجوا به ليــلا

ليدفنوه . ولبثت مستترة وراء النخلة تنظر الى تلك الجنازة المحزنة ؛ فلما وصلوا الى حائط هناك يقال له « حش كوكب » حفروا له حفرة دفنوه فيها وهم يتلفتون يمينا وشمالا جزعا

فصبرت حتى انتهوا وتفرقوا فصعدت الى مرتفع اطلت منه على المدينة فأشرفت على جامعها ، فاذا هو بعيد عنها كثيرا فجعلته وجهتها ونزلت تخترق الاسواق فلم تجد فيها الا نفرا قليلا ، فخافت أن يلاقيها محمد وهى على تلك الحال ، وما زالت حتى وصلت الى منزل عثمان والشمس تملأ الفضاء ، فرأته موصدا ، فالتمست باب بنى حزم فرأته مغلقا أيضا ، فتسمعت فلم تسمع صوتا ، فوقفت برهة ثم همت بالباب فقرعته فلم يجبها احد ، فأعادت القرع فاطل رجل من كوة عرفت انه من خدم عثمان فلما رآته أومأت اليه أن يفتح . فلما عرفها فتح لها فدخلت وسألته عن نائلة ، فأشار اليها الا تتكلم وسار أمامها ، فتبعته فدخل بها حجرة رأت فيها نسوة احطن بنائلة وهى ما زالت محلولة الشعر كما رأتها فى منامها بالامس

□

فلما وقع نظر نائلة عليها صاحت قائلة : « ما الذى جاء بك يا أسماء ياحبيبتى ؟ هل اتيت لترى أمير المؤمنين ! لقد فاتك ما لاقاه من اكراه المسلمين له بعد موته » . قالت ذلك واجهشت فى البكاء

اما أسماء فألقت نفسها على نائلة تبكى وتشهق وتقول : « ان خسارتك خسارة المسلمين كافة ، فقد فسد أمرهم بعد عثمان لأنهم سفكوا دما بريئا بجوار قبر الرسول »

فلطمت نائلة خديها بكفيها ، فرأت أسماء احدى يديها معصوبه فتذكرت انها اليد التى أصيبت بالسيف فقطعت اناملها . وقالت نائلة : « ياضيعة تعبك يا أسماء ، وياخيبة مسعاك . لقد خدعونا والله وغدروا بنا فارسلوا أبناءهم يذبون عنه وبعثوا يقتلونه مع آخرين . الم ترى ابن ابى بكر يقبض على لحيته ؟ »

فلما سمعت اسم محمد حزنت على فعله ؛ ولم تجد ما تدافع به عنه فسكتت وهى تفكر فى عبارة تعزيها بها فلم يفتح عليها . فقالت « اصبرى ان الله مع الصابرين . فقد كنت بالامس تعزيننى وتواسيننى وانت اليوم اولى بالمواساة وبالعزاء »

فصاحت نائلة : « أواه يا أسماء ، كيف اصبر وقد قتلوا عثمان شر قتلة . لقد طعنوه فى صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم الجبين ضربة اسرعت فى العظم . والله لكانى اسمع صوته يرن فى اذنى وهو يقرأ

القرآن ولايبالى مايفعلون ، واحسبك رايتنى وقد سقطت عليـه اتقى عنه وهم يهمون به يريدون قطع راسه حتى اتت هذه الفتاة بنت شيبة (واشـارت الى فتـاة بجانبها) فألقت بنفسهـا عليه دفاعا عن أمير المؤمنين »

ثم تنهدت تنهدا عميقا وقالت : « ولم يكتفوا بقتـله فى بيته وعلى فراشه ولكنهم منعوا الناس أن يصلوا عليه وقالوا : (لايدفن فى مدافن المسلمين) . كأنه كفر اوكان من المشركين . جزاهم الله بما فعلوا . فظل فى بيتنا ثلاثة ايام وجثته ملقاة بين أيدينا ونحن نبكيه ونبكى الاسـلام من بعده ، ولو لم نلق اخوانا من أهل المروءة يحملونه خلسة فى الليل لظل غير مدفون . وكم احزننى ما أصـاب الذين قتلوا معه فقـد جروهم بأرجلهم ولعلهم القوهم على التلال لتأكلهم الـكلاب . ولا أدرى اذا كان أبوك المسكين قد اصابه مثل مصابهم »

فلمـا سمعت أسـماء ذكر أبيها ارتجفت وامتقع لونها وصاحت : « وماذا اصاب أبى ؟ »

قالت : « ألم تعلمى ما أصابه وقد كنت معنا فى الدار ؟ »

قالت : « لا . . ماذا اصابه ؟ »

قالت : « بلغت انه قتل مع الخليفة فى بعض جوانب الدار »

فلطمت أسماء وجهها وصاحت : « ويلاه يا ابتـاه » . وأوغلت فى البكاء مذعورة وصاحت : « وأين هو الآن . أرونى اين هو ؟ »

ولم تكن نائلة تتوقع من أسماء حزنا شديدا على أبيها لما تعلمـه من حديثها عنه

أما اسماء فبكت وناحت والنسـاء يخففن عنها ويقلن : « أصبرى فان له اسوة بأمير المؤمنين وسوف يلقيان ربهما معـا والله ينتقم من القوم الظالمين . وسوف يثأر له بنو امية جيعا . انهم لم يدركوه حيا ليدفعوا عنه القتل ، ولكنهم سوف يسرعون الى الثـأر اذا رأوا قميصه الملوث بالدم وأصابعى المبتورة . فقد ارسلت القميص والاصابع الى معاوية فى الشام ، وأصبح الامر لبنى أمية وهم سواد قريش . ولقد ظن بنو هاشم انهم اذا قتلوا عثمان ضعف شأن بنى أمية ، ووالله انهم أكثر رجالا واوفر عدة واصعب مراسا ، وسوف يلقى بنو هاشم عاقبة ما جنته ايديهم »

فلما سمعت تهديد نائلة وحكاية قميص عثمان وأناملهـا وما ذكرته من تفضيل بنى أمية على بنى هاشم علمت انها انما أرسلت الاصـابع والقميص استحثاثا لبنى أمية على الثأر لدم عثمان ، وتحققت انها تضمر السوء لعلى ، فلم تسكت عن الدفاع عنه وقالت : « لقد كان بنو هاشم

أكثر الناس دفاعا عنه فان عليا أرسل الحسن والحسين لرد الناس عن بابه ، ولو أذن لهما أمير المؤمنين لجاهدا فى الذب عنه الى آخر نسمة من حياتهما . أمثل هؤلاء يطالبون بدم عثمان أم يقال انهم دافعوا عنه جاهدين ؟ »

قالت : « دعك من هذا . فوالله لوأرادوا دفاعا لما مات عثمان ، انما أخذوا الامر بالتريث والمداورة وأظهروا العجز وساء ما يضمرون . ولا يغرنك ارسالهم أولادهم » . قالت ذلك وحرقت أسنانها وسكتت فعذرتها أسماء لما رأت من هياج عواطفها على مقتل زوجها ولم تجبها ، ولكنها عادت الى السؤال عن أبيها فقالت لها احدى النساء : « لاتتعبى يا أسماء ان أباك قتل مع الذين قتلوا مع عثمان وهم اثنان هو ثالثهم . وقد حملوا جثثهم خلسة الى حيث لا ندرى . فتعزى وتأسى بمقتل أمير المؤمنين خليفة رسول الله »

وظلت أسماء تبكي مع الباكين حتى هدأ روعها وذكرت أن وفاة أبيها خير لها فى مستقبل حياتها فنظرت الى نائلة وقالت : « وما الذى اعتزمته الآن ؟ »

قالت : « لقد عزمت على الرحيل من هنا الى حيث لا ارى هاشميا ولا أسمع بهاشميَ ، ولكننى لا أستطيع الخروج الا خلسة وما مقامنا هنا الا خفية . ولو عرف هؤلاء الظالمون مقامى لأدركونى وقتلونى ولكن بنى حزم أهل جوار فقد خبأونى جزاهم الله خيرا »

ثم تذكرت أسماء انها تركت بيت العجوز على غرة ، فخافت أن تقلق عليها اذا افتقدتها ولم ترها ولا سيما اذا عاد محمد ولم يجدها ، وزد على ذلك انها خافت أن يجىء مروان فى حين انها لا تريد أن ترى وجهه . فنهضت واستأذنت محتجة بالذهاب الى بعض ذوى قرابتها فى أطراف المدينة

فقالت لها نائلة : « لو كان لى بيت لدعوتك اليه يا ابنتى ، ولكنى أصبحت غريبة بين أهلى اتوقع الشر فى كل لحظة . فاذهبى حرسك الله ووقاك ، واذا من الله علينا باللقاء فعسى أن أكافئك على صنيعك » . قالت ذلك وضمتها الى صدرها وودعتها وهى تبكى ، وبكت أسماء أيضا وقد انفطر قلبها لما سمعته من كلام نائلة ، وشق عليها أن تراها هكذا وقد كانت بالأمس زوجة أمير المؤمنين وصاحبة الأمر والنهى

☐

خرجت أسماء تلتمس بيت العجوزوهى تحسب انها تعرفه ، لكنها

تاهت لأن البيت صغير لا يرى عن بعد . ووصلت اليه بعد لأى وقد مالت الشمس الى المغيب فوجدت الباب مغلقـا فقرعته مرارا فلم يجبها احد

فوقفت تفكر فيما تفعله فلم تر خيرا من الذهاب الى بيت على تفتقد محمدا فاذا لم تجده باتت تلك الليلة هناك فقد طالما دعاها للاقامة عنده ، ولكنها خشيت ان هى سارت بلباس النساء أن تكون هدفا للناس فى الطريق أو فى فناء الدار لأن بيت على كان يعج بالغادين والرائحين . فأخفت نفسها وكانت ممنطقة (بكوفية) فحلتها ولفت بها رأسها كما يفعل الرجال فى أسـفارهم ، وتزملت بعباءة كانت قد خرجت بها بالامس ، وسارت صوب بيت على فلم تبلغه الا عند العشاء . فرأت نفرا قليلين فى فناء الدار وكانت تتوقع أن ترى ازدحاما ، ثم علمت ان اهل البصرة والكوفة والمصريين الذين كانت تزدحم بهم المدينة قبل مقتل عثمان ذهبوا الى مضاربهم خارج المدينـة للمبيت . فسألت عن على فقيـل لهـا انه فى خلوة مع بعض الامراء لايدخل عليه احد ، فوقفت تنظر فى الأمر فحدثتها نفسها أن تدخل المنزل فتبيت عند بعض نساء على ولكنها هابت الدخول عليهن وهى لا تعرفهن من قبل

وبينما هى فى ذلك رأت محمدا بن أبى بكر خارجا من الدار فتبعته فلما رأى عباءتها ومشيتها عرفها فدنا منها وتفرس فيهـا فقالت : « محمد ؟ » . قال : « أسماء ؟ » . قالت : « نعم أين أنت ؟ »

قال : « لقد قلقت لغيابك اين كنت ؟ »

قالت : « خرجت لحاجة سأقص عليـك امرها الآن . وأين هى عجوزك ؟ »

قال : « اتتنى فى الصباح وهى قلقة لغيابك ، وقد قضينا نهارنا كله فى البحث عنك ، فشغلنا به عما نحن فيه من عظائم الامور . تعالى معى أدخلك الى أمى »

قالت : « هل تقيم أمك فى منزل على ؟ »

قال : « نعم وهى زوجته بعد أبى ، واسمها مثـل اسمك ، بورك فى هذا الاسم »

فسرت أسماء لمعرفة أمه ورأت بابا للفرج بالاقامة عندها فقالت : « وهل تزوجها على من زمان طويل ؟ »

قال : « تزوجها بعد موت أبى ، وكنت انا طفلا فربيت فى حجره فأنا أعده بمنزلة الأب وهو يحبنى كأحد أولاده »

قالت : « لقد آنست فيه هذا البر فرحم الله والدا ولدك ، وعاش

والد رباك » . قالت ذلك وقد ابرقت اسرتها اعجابا ولكنها أظهرت فتورا فى كلامها لم يعهده فيها ، فشعر هو بذلك فقال : « أراك قد تغيرت يا أسماء بعد خروجك اليوم من بيت العجوز »

قالت : « بل أنا باقية على ما تعلم ، ولقد كنت سألتنى عن سبب خروجى منه »

قال : « نعم والى أين كان ذهابك ؟ »

قالت : « خرجت الى تلك المسكينة التى قتلتم زوجها وتركتموها حزينة وحيدة عسى ان أستطيع تعزيتها مثلما عزتنى فى أيام محنتى »

قال : « هل ذهبت الى نائلة ؟ »

قالت : « نعم سرت اليها ورأيت دفن قتيلكم رحمه الله . فقد حملوه على باب وساروا به خلسة ليدفنوه خارج المدينة ، وسمعت طعنا فيك ساءنى سماعه ، كما ساءنى الا أستطيع دفعه ، فانى رأيتك داخلا متعمدا قتل الخليفة » . قالت ذلك وفى رنة صوتها مالا يصدر الا عن سلطة الدالة وسلطان الدلال

فأدرك محمد ان اعتقادها هذا سيكون صفحة سوداء فى كتاب حبها فساءه ذلك ، ولكنه أعجب بأنفتها وصدق ادبها واحب ان يبرىء نفسه فى عينيها فقال وهو يبتسم تأكيدا لبراءة ساحته : « لقد قلت لك يا أسماء ان الرجل لم يقتل ظلما ، على انى لو كنت انا القاتل فلست بنادم ، وسأبرر الامر لديك عما قليل ، اما الآن فهيا بنا ادخلك على أمى وهى تتولى تقديمك الى على »

□

ولم يكد يدنو من الباب حتى سمع وقع أقدام فى الدار ثم رأى الحسن بن على يمر به ويسلم . فأجابه محمد : « وعليك السلام يا ابن أمير المؤمنين» . فقال الحسن : « أراك تبشرنى بخلافة انا خائف منها »

قال : « لاتخف يا ابن بنت الرسول ، انكم أولى الناس بها »

وكان الحسن يكلم محمدا وينظر الى اسماء ليعرف المتلثم فابتدره محمد قائلا : « ان صاحبى اموى جاء للمبيت عندكم فهل تقبلونه ؟ »

قال : « اهلا به أيا كان فليدخل » . قال ذلك ودخل ، فدخلا فى اثره واسماء لا تزال ملثمة والحسن ينظر اليها ويتوقع حسر اللثام . ولما وقع نظره عليها تذكر انه رآها فى منزل عثمان يوم الدار . فوقعت من نفسه موقعا حسنا واعجب بها . فقال : « اهلا بك يا أخية »

اما أسماء فتهيبت الموقف ونظرت الى الحسن فاذا هي امام شاب ابيض اللون مشرب بالحمرة ادعج العينين سهل الخدين كث اللحية ربع القامة جعد الشعر ، لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان اشبه الناس بالنبى ، وغلب عليها الحياء فاطرقت وقالت : « بورك فى بيت شرفه الله » . فقال محمد للحسن : « وازيدك معرفة بها ، فهذه أسماء بنت يزيد التى جاءت منذ بضعة اسابيع تدعو مولاى ابا الحسن الى امها على فراش الموت لتطلعه على سر ، فقضت رحمها الله قبل وصوله وذهب السر معها الى القبر »

قال الحسن وهو ينظر الى اسماء : « ان ابى لا يزال يذكر ذلك ويأسف لضياع السر ويعجب بما آنسه فى هذه الفتاة من الهمة والانفة » . قال ذلك وسار امامهما فمشيا فى اثره وقد اتقدت نار الحب والغيرة فى قلب محمد وكأنه ندم على مجيئه بها فسأل الحسن : « اين نحن ذاهبون ؟ »

قال الحسن : « الى خالتى امامة اعرفها بأسماء فتبيت عندها الليلة » . فلم يرق الأمر لمحمد لأن الحجاب يمنعه من الدخول معهما الى امامة ، فبقى خارجا على مثل الجمر ، ودخل الحسن الى حجرة امامة بلا استئذان . وكانت جالسة وحدها وقد لبست ثوبا بسيطا وفى عنقها قلادة من جزع كانت شديدة الاحتفاظ بها . فلما رات الحسن داخلا أرادت أن تسأله عن امر الناس والخلافة فاذا هى بأسماء تتبعه فلما راتها اعجبت بطلعتها ، فدنت اسماء تهم بتقبيل يدها فمنعتها وقبلتها فابتدرها الحسن قائلا : « هذه يا خالة اسماء . واظنك تذكرين حديث ابى عن امها وعن سرها ، الذى مات معها »

ثم التفت الى اسماء وقال : « انك بين يدى امامة زوج أبى . بنت زينب بنت الرسول ، وكان جدى يحبها كثيرا وانظرى الى هذه القلادة فى عنقها فقد اهداها اليها رسول الله وكانت احب اهله اليه »

فازدادت اسماء اجلالا لامامة وظلت واقفة حتى دعتها الى الجلوس فجلست على وسادة بالقرب منها . فقال الحسن : « انى اوصيك ضيفتك ، ولا سيما وقد علمت مكانتها عند ابى » . قال ذلك وخرج فرأى محمدا فى انتظاره على مثل الجمر ، فقال له : « كيف عرفت هذه الفتاة يا محمد ؟ » . قال : « عرفتها يوم جاءت تدعو مولاى ابا الحسن الى امها ، وقد صحبتها الى قباء وهى فى زى الرجال ثم رايتها مرة فى دار عثمان ، ورايتها اليوم جاءت تبحث عن منزلكم فانها غريبة ، وكان ابوك قد دعاها الى الاقامة عندكم تعزية لها على حزنها ويتمها »

فقال الحسن : « انها والله ذات جمال ووقار ، وليتها تبقى عندنا »

مبايعة على بالخلافة

أدرك محمد مدى اعجاب الحسن بأسماء ، فاتقـدت نار الغـيرة فى صدره ، ولكنها غيرة لم يشبها بغض لما يكنه للحسن وآل بيتـه من الحب ، فانتقل بالحديث الى سـؤال الحسن عن ابيـه ، فقال الحسن : « تركته فى مجلسه وقد اجتمع الأمراء حوله يريدون مبايعته ، وهو يقول لهم : « لا حاجـة لى فى أمركم فمـن اخترتموه رضيت به » . وهم يلحون عليه فى القبول ويقولون له : « لا نعرف احدا احق بهـا منك ، ولا أقدم سابقة ولا اقرب قرابة من رسول الله . . »

فقال محمد : « وهل قبل ؟ » . قال : « لا ، وقد تركته يقول لهم : (لا تفعلـوا فلأن أكون وزيرا خيرا من أن أكون اميرا) . وهم يقولون : (ما نحن فاعلون حتى نبايعك) . . »

فقال محمد : « انى لأعجب من رفضه امرا هو أولى به من سواه . ويجب والله الا يليها غيره »

فقال الحسن : « وانى اشد تعجبا منك » . قال محمد : « وماذا فعل طلحة والزبير ، فانى أخالهما غير راضـيين ، لأن كلا منهمـا يريد الخلافة لنفسه ؟ »

فابتسم الحسن وقال : « سيبايعان كارهين ان شاء الله ، على أنهما يتظاهران بالقبول ، وسنرى ما يكون منهما فى الغد فقد ذهب اليهما بعض الناس يدعونهما الى المبايعة »

وافترقا بعد هنيهة ، فسار محمد الى فراشه وقد أهمه أمر أسماء مثل ما أهمه امر الخلافة ، لعلمه ان الحسن اذا وسـط اباه فى تزويجها به ، فسينالها لا محالة ، فلم يبق لديه الا أن يسعى فى ابعادها عنه ، وقضى ليلته يفكر فى وسيلة ليخرج بأسماء من بيت على حتى يخلو بها فيقنعها ببراءته من دم عثمان ، ثم يتزوجها قبل ان يبدو من الحسن مايشعر برغبته فيها ، فبكر فى الصباح التالى وجاء الى حجرة الحسن فلم يجده ، وقيـل له : « انه ذهب الى حجـرة أمامة ، فعلم انه سيقابل اسماء هناك ، وسارع الى ارسال من يستقدمه ، فجاء الحسن مشرق الوجه ، بادى الابتهاج ، فانقبضت نفس محمد ، وكادت الغيرة

ن تبين فى وجهه ولكنه تجلد وحياه وقال : « كيف أصبحت فتاتنا اليوم ؟ »

فقال الحسن : « هى فى خير ولكننى أراها منقبضة النفس »

فسرى عن محمد اذ رأى فى ذلك دليلا على بقائها على عهده . وقال : « أظنها حزينة على أبيها فانه قتل فى دار عثمان ، وأرى أن نخرج بها لتحضر مجلس أبيك وحديث القوم فى امر البيعة لعلها تشغل بما تراه هناك عن أحزانها »

قال : « وكيف تجالس الرجال؟ » . قال : « أرى أن تذهب متنكرة »

وكان الحسن اشد ميلا من محمد الى اصطحابها ، ولايدرى ما يخالج قلب محمد فقال : « لقد رأيت صوابا » . وذهب لاستقدامها ، وما لبث ان عاد وهى معه وقد تنكرت . فلما رآها محمد حياها وهو ينظر الى وجهها نظرة لا يفقهها الا من عانى الحب والغيرة ، ولبث ينظر الى ما يبدو منها ، فأبرقت أسرتها حالما وقع نظرها عليه فسرى عنه وقال لها : « أظنك تودين حضور مجلس مولاى أبى الحسن ؟ »

قالت : « كيف لا ، وانت تعلم ما يجول فى خاطرى ! » . فأدرك محمد أنها تشير الى حبها ، فوثق من انها باقية على عهده ، فقال : « اذا فرغنا من هذا المجلس سلمت لك جوادك ومتاعك الذى كان لك فى منزل عثمان . وقد وعدتك أن أحتفظ به »

فأثنت عليه ، وأشارت بعينيها اشارة فهم محمدا منها مرادها والحسن لا يشعر

ثم قال الحسن : « هلم ندخل الى ابى قبل حضور الناس عنده » . فدخل هو أولا ، ثم دخلت هى ومحمد

□

وعندما دخلت أسماء وهى فى لباس الرجال حسرت بعض اللثام وهمت بتقبيل يد على ، وكان جالسا فوق وسادة وعليه ازار وطاق وعمامة خز ، وقد ازدادت هيبته ، وأرسل عمامته الى الوراء حتى ظهرت صلعته ، ثم اخذ يمشط لحيته بأصابعه وعيناه الدعجاوان تتلألآن فى وجهه والذكاء ينبعث منهما . فلما رأى اسماء مقبلة ابتسم وحياها وسألها عن حالها ، فقالت : « انى بفضل مولاى فى خير وعافية »

قال : « ان كلامك يا بنية ما زال يرن فى اذنى مذ جئتنا قبل مقتل عثمان رحمه الله ، فقد قلت : (ان فى مقتل الخليفة ايقاظا للفتنة) . وأراها

استيقظت وانك كنت على صواب »

قالت : « ان الفتنة لتستحيي من ابن عم رسول الله فتعود الى نومها اذا هو قبض على زمام الخلافة »

فأعجبه أسلوبها وحدة ذهنها ، ودعاها الى الجلوس وهو يقول : « اراك خلعت زى النساء ولبست زى الرجال يا أسماء »

قالت : « لقد ارتديت هذا اللباس لأستطيع أن القى رجل هذه الأمة »

ولم تكد أسماء تجلس حتى جاء فتى يستأذن عليا فى دخول بعض الصحابة فأذن ، ودخل عليه جاعة من المهاجرين والانصار فيهم طلحة والزبير ، وكانت أسماء تعرفهما من قبل . فجلسوا حتى غصت القاعة بهم ، وتصدرطلحة والزبيرالقوم وعلا وجهيهما انقباض كأنهما يخفيان أمرا ، فأدركت اسماء انهما جاءا مكرهين ، وما لبثوا حتى نهض واحد من اهل المدينة وخاطب عليا قائلا : « لقد جئنا الى على بن ابى طالب نطلب منه أمرا ونرجو الا يردنا فيه خائبين »

فقال على : « وماذا تريدون ؟ »

قالوا : « جئنا نبايعك على الخلافة لأننا لا نرى أحدا احق بها منك »

قال وهو ينظر اليهم جلة : « ما زلت ارجو اعفائى من هذا الأمر ، وانى أراه طريقا وعرا »

قال قائل منهم : « ومن ترى اقدم منك سابقة واقرب قرابة من رسول الله وقد صرح بأنه (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق) . »

قال : « كلكم لها أكفاء ، وسأبايع بها من تبايعون »

قالوا : « لا نرى غيرك احق بها وقد قال رسول الله : (على منى وانا من على ، وهو ولى كل مؤمن بعدى) . . »

قال : « قلت لكم دعونى واطلبوا غيرى فانا مستقبلون امرا له وجوه وله الوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول »

فوقفوا وقد نفد صبرهم وقالوا : « نناشدك الله ، الا ترى ما نحن فيه . الا ترى الاسلام الا ترى الفتنة . الا تخاف الله ؟ »

فلما سمع على تأنيبهم سكت وقد ضاق بهم درعا وعظم عليه الأمر فأطرق يتململ . ثم نظر اليهم فاذا هم سكوت ينظرون جوابه فقال لهم : « قد اجبتكم »

ولم يكد ينطق بها حتى ضج الناس استحسانا وتهللت وجوههم فرحا الا طلحة والزبير فانهما ظلا صامتين

فلمــا راى على حسن لقــائهم برغم ســكوت طلحــة والزبير نهض فنهض الناس وهم ينظرون اليه ليروا ما يقول فاذا هو يضطرب كأنه تنبأ بما يتوقعه من جلائل الامور ، ثم اشار اليهم وقال : « اعلموا انى اذا اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، فانما انا كاحــدكم الا انى اســمعكم واطوعكم لمن وليتموه »

فقالوا : « كلنا اطوع لك من بنانك ، ومن ذا الذى لا يطيع ابن عم رسول الله ، واخاه ، ووصيه ، ونصيره ، وربيبه وحبيبه وخليفته ، والذى قال فيه : (من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) . وقال : (على منى بمنزلة هــرون من موسى) . فكيف نبايع سواك ؟ »

فقال : « اذا كنتم لا ترون بدا من المبايعة فلتكن فى المسجد »

قالوا : « هلم بنا الى المسجد »

□

فنهضوا ونهض على بن أبي طالب ومشى وهو يتكفأ ، وبيده قوس يتوكأ عليها ، حتى اقبل على المســجد والناس بين يديه . وكان محمد وحسن وأســماء بالقرب منه . فلما دخلوا المســجد قرا على الفاتحه وصلى ، ثم وقف ووقف الناس ، فنظرت أسماء الى الجمع وقدهاجوا وماجوا فرات طلحة وقد تقدم اليه قبل الجميع ومد يده فمد على يده فصافحه طلحة ، وقال : « انا نبايع ســيدنا ومولانا الامام ، المفتــرض الطاعة على جميع الانام ، عليا بن أبي طالب . على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين . ونســلم له النظر فى امورنا وامور المســلمين لاننازعه فى شيء ونطيعه فيما يكلفنا به من الامر على المنشط والمكره . وعلى ألا خليفة سواه » . وأدركت أسماء من هيئة طلحة وغنة صوته ومجمل حاله انه انما بايع مكرها . ثم سمعت رجلا من الوقوف خلفهــا تقول لجاره همســا : « انا لله وانا اليه راجعون ؛ ان اول يد بايعت يد شلاء ، لايتم هذا الامر » . فالتفتت اسماء الى محمــد كأنها تستفهمه مغزى مايقوله الرجل ، فدنا منهــا وقال لها : « ان فى يد طلحة شــللا خفيفا من يوم احد ، والذى سمعته يتكلم رجل من أهل العيافة تشاءم بتلك المبايعة »

قالت : « ارجو الا تصــدق عيافته » . وبعد ان بايع طلحــة تنحى وتقدم الزبير فبايع ، ثم بايع غيره من الامراء جملة وفرادى

فلما تم الامر لعلى واصبح امير المؤمنين ، ارتقى المنبر . فلمــا رآه

الناس صاعدا علموا انه يريد ان يتكلم وهم طالما سمعوا خطبه وسحروا ببلاغته ، فأنصتوا الى ما سيقول . وظلت اسماء فى موقفها ومحمد الى جانبها ، فلما وقف الامام على اصغت كما أصغى الجميع ، فمسح على لحيته بيمينه وأجال نظره فى الناس والعمامة الخز على رأسه وعليه الازار وبطنه يتقدمه لأنه كان ذا بطن ، فلبث هنيهة لايتكلم حتى سكت الجميع وتطاولوا بأعناقهم لسماع كلامه وهو اول كلام له بعد الخلافة . فحمد الله واثنى عليه ثم قال بصوت سمعه من فى المسجد جميعا :

« ان الله تعالى انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا نهج الخير ، وأصدفوا عن سمت الشر . ادوا الى الله ، يؤدكم الى الجنة . ان الله حرم حرما غير مجهول ، واحل حلالا غير مدخول ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحل اذى المسلم الا بما يجب . ان الساعة تحدوكم من خلفكم . تخففوا تلحقوا ، واتقوا الله فى عباده وبلاده فانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . واطيعوا الله ولا تعصوه . واذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه واذكروا انكم قليلون مستضعفون فى الارض »

▭

وكان محمد قد خامر سروره قلق ، لما قام فى ذهنه من ميل الحسن الى اسماء ، فلما انفض الجمع ورأى الحسن مع أبيه والناس حوله يهنئونه اشار الى اسماء فتبعته وقد ادركت ما فى ضميره ، واحست ما فى نفس الحسن وقد استملحته ولكنها بقيت على حب محمد وهو اول من طرق قلبها . فلما دعاها سارت فى اثره وهى تتجاهل مراده حتى وصلا الى بيت العجوز

فلما خلا بأسماء نظر اليها نظرة لم يخف مغزاها عليها . فابتدرته قائلة : « ارى المدينة غاصة بالناس وقد شغلوا بخليفتهم فلم يعد يطيب المقام فيها »

فأعجب محمد بحسن فراستها ورقة احساسها ، ولكنه خاف أن تكون مضمرة غير ما تظهر فقال : « وما الذى بغض اليك الاقامة بالمدينة ؟ » . قالت : « بغضها الى ماحبب محمدا الى »

قال : « وكيف تتركين عليا واهله ؟ » . قالت : « مالى ولأهله ؟ »

قال : « الا ترين ان امامة تفتقدك ؟ » . قالت : « أظنها تفتقدنى وقد يفتقدنى غيرها ولكننى لا أبالى احدا »

فأدرك انها عرفت نيتـــه فقال : « لقد تم الامر لعلى فهو اليوم امير المؤمنين ، وقد استقام لنا الامر وسانظر مايكون من تبـــديل عماله على الامصار ، ونتدبر ذلك فى حينه . اما الآن فأرى ان تقيمى عنـــد أختى عائشة أم المؤمنين »

وكانت أسماء قد علمت منه انها سارت الى مكة لقضـــاء مناســـك الحج عندما كان عثمان محاصرا ، ولم تسمع انها عادت فقالت : « هـــل عادت أم المؤمنين من مكة ؟ »

قال : « لم تعد بعد وقد قتل عثمان وتولى على وهى غائبـــة ، وقد تقيم هناك حقبة أخرى » . قال ذلك وهو يعلم ان مجيئها قريب ولكنه خشى ان هو أعلم اسماء بذلك الا تعود ثمة حاجة فى خروجها من المدينة فتضطر الى أن تقيم ببيت على وتأبى عليه غيرته ذلك

قالت أسماء : « هل أذهب اليها ؟ »

قال : « ارى أن تذهبى فتقيمى عنـــدها وتشاهدى بيت الله الحرام ومشاهد مكة ، فاذا عادت أختى عدت معهـــا واذا أقامت طويلا ذهبت انا لاستقدامك ونكون قد عرفنا مصيرنا »

قالت : ان فى ذهابى اليها شرفا عظيما ، ولكن كيف اسير وحدى »

قال : « أرى ان تصحبك هذه الخالة (وأشار الى العجوز) فان لهـــا دالة على اختى ، وذهابها معك يغنينى عن الايصاء بك وسأرسل معكما من يوصلكما اليها . ويحسن بك أن تطلبى انت الشخوص اليهـــا » . قال ذلك ونظر اليها وهو يبتسم

ففهمت مراده وأدركت انه يخاف ان يعلم على أو الحسن انه هو الذى حملها على الشخوص . فقالت : « نعم فأنا الراغبة فى المسير لاكون بجوار أم المؤمنين . أين جوادى وأمتعتى ؟ »

قال : « هنا عند الخالة فامكثى عندها الى الغد فآتى اليك بمن يسير بك الى مكة » . قال ذلك وهم بالخروج

فقالت له اسماء : « ولا يبرح من ذهنك انى مازلت أتوقع اليقين عن مقتل عثمان وتفصيل ما تبرىء به نفسك »

قال : غدا تلاقين أم المؤمنين فاسأليها عن عثمان وهل اســـتحق القتل وهى تجيبك بما يغنيك عن سؤالى . الا ترضين بها حكما ؟ »

قالت : « ارضى » . قال : « انها من أول القائلين بقتله ، ومن قولها : (اقتلوا نعثلا ــ لقب عثمان ــ فقد كفر) . »

وتركها محمـــد ومضى ، فلما كان صـــباح الغد جاء وقد أعد جمـــالا وهودجا . فلما رات اسماء الجمال قالت : « وما تلك ؟ » . قال : « هى

جمال ولا يصلح لركوب الصحراء غيرها ، فان بيننا وبين مكة بضع مراحل والطريق وعر »

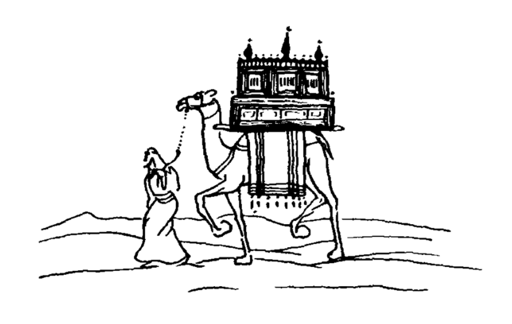
قالت : « ولكنني أوثر الفرس ، وكذلك فعلت فى قدومى من الشام ، وقد خوفونى ركوب الافراس فى الصحراء فأبيت الا ركوبها »

قال : « لا يجمل بك أن تركبى فرسا ورفيقتك هذه لا تستطيع ركوبه ، فاركبى الجمل فانه أصلح لهذا الطريق واتركى جوادك هنا فلا خوف عليه . وقد علمت ان رجلا من اخوال أم المؤمنين من بنى الليث واسمه عبيد بن ابى سلمة عاد الى مكة ، فعهدت اليه فى أن تسيرا معه فيوصلكما الى منزل أختى »

فعجبت أسماء لوصفه الرجل بأنه من اخوال اخته وحدها ، فسألته عن ذلك . فقال : « ان عائشة من أم غير أمي ولم تسنح لك الفرصة أن تريها بالامس ، فعسى أن تريها فى فرصة أخرى »

قال ذلك وأمر العجوز فأخذت فى اعداد مايلزم للسفر وجعلت تجمع صررها ، صرة فيها المشط ، وصرة فيها السواك ، وصرة للنعال ونحو ذلك . ولم يمض ساعتان حتى تهيأ كل شيء . وجاء عبيد بن ابى سلمة فأوصاه بالعجوز والفتاة خيرا وودعهما

فقالت له أسماء وهى تشد منطقتها حول خصرها وتتهيأ للدخول فى الهودج : « متى أراك ؟ » . قال : « أرجو أن أراك قريبا فى مكة أو أبعث فى استقدامك متى استقام الامر وهدأت الاحوال » . فودعته وسارت وقد تلثمت بلثام السفر



المطالبة بدم عثمان

لم تكد اسماء تخرج من المدينة ، حتى اشرفت على قباء فهاجت اشجانها وتذكرت امها ، فترجلت عند المسجد فلقيها خادمه الشيخ فدعا امراته فرحبت باسماء ومن معها ، فطلبت اسماء ان تزور قبر امها فزارته وبكت بكاء مرا حتى كاد يغشى عليها لو لم ينهضها الرفاق . ولما رآها ابن ابى سلمة على تلك الحال ، أسرع فى الترحال فشدوا الاحمال وركبوا قاصدين الى مكة . وكان قد تأثر لما رآه من حزن اسماء فاراد ان يواسيها فلما شارف جبل احد وهو على اربعة اميال من المدينة غربا احب ان يشغلها بالحديث فقال لها : « انظرى الى هذا الجبل فانه احد الذى وقعت عنده الوقعة بين المسلمين ومشركى قريش على عهد النبى صلى الله عليه وسلم » . وقص عليها حديث الغزوة

وقضوا فى سفرهم ثلاثة ايام حتى شارفوا جبال مكة عند قريه يقال لها « سرف » على ستة أميال من مكة ، فراوا ركبا فدوصل وفيه ناقة عرف عبيد انها ناقة عائشة لما راى هودجها وعليه رداء احمر يجلله كله ، فرحل وترحلت اسماء والعجوز واشتغل العبيد فى عقل النوق

وسرت اسماء برجوع عائشة على عجل لعلها ترجع معها الى المدينة فنلقى محمدا . فقالت للعجوز : « وأين ام المؤمنين ، ولم أسرعت فى الرجوع من مناسكها ؟ » . فالتفتت العجوز يمنة ويسرة حتى استقر بصرها على فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر عند بابه بدويان واقفان . فقالت : « هذا هو فسطاطها وقد وقف الخدم عند بابه »

فقالت : « وهل نذهب اليها الآن ؟ »

قالت : « تمهلى لنرى مايكون من ابن ابى سلمة» . ثم سارت العجوز اليه وكان يعقل ناقته ويصلح حاله قبل الدخول الى الفسطاط ، فازدادت اسماء تهيبا من الدخول على ام المؤمنين وقالت للعجوز : « وهل تنوى الاقامة بهذا المكان ؟ »

قالت : « يلوح لى انها على سفر » . ثم دنت من قائد جملها فسألته عن سفر ام المؤمنين فقال : « انها شاخصة الى المدينة »

فقالت اسماء : « وما العمل الآن هل نرجع معها أم نظل فى طريقنا الى مكة ؟ »

قالت : « سنرى فى ذلك متى التقينا بها ، فاذا أمرتنا بالرجوع معها رجعنا واذا إرادت أن ندخل مكة دخلنا »

قالت : « هل ننتظر رفيقنا لندخل معه أم نسبقه اليها ؟ »

قالت : « ارى ان ندخل فسطاطها قبله مخافة أن تكون هى مسرعة فى القيام فلا نتمكن من التكلم معها »

قالت : « وهل تعرفينها من قبل ؟ »

قالت : « اعرفها جيدا وقد عشت فى بيت ابيها رحمه الله ، وكثيرا ما حملتها على عاتقى وهى طفلة ، ولهذا احن اليها حنين الوالدة »

قالت : « فلندخل عليها » . قالت : «هلم بنا » . ومشت امامها فتبعتها اسماء حتى دنت من الفسطاط ، فاستأذنتا فى الدخول ، فأذن لهما ، فدخلتا وكلتاهما هائبة الوقوف بين يدى زوج النبى

اما أسماء فكانت على شجاعتها وثبات جأشها قد شعرت عند دخولها الفسطاط باضطراب وازداد خفقان قلبها واحمرت وجنتاها ثم امتقع لونها رهبة من لقاء أم المؤمنين

وكانت عائشة جالسة الاربعاء على وسادة من الخز فى صدر الخيمة . فنظرت اسماء اليها فاذا هى ربعة ممتلئة الجسم تتلألأ الصحة والذكاء من عينيها وفوقهما حاجبان متقاربان يشيران الى ما أودعه الخالق فيها من الانفة والمهابة . وقد تجلببت بجلباب من الحرير يغطى كل اثوابها فوقه نقاب يكسو راسها فيزيدها جلالا ووقارا

فاستأنست اسماء برؤيتها لشدة ما أشبهت محمدا ، حتى لايشك الناظر اليها انها اخته ، وكانت قد علمت انها قاربت الثالثة والاربعين من عمرها ، فلما رأتها خيل اليها انها دون الثلاثين لما فى وجهها من اشراق وصحة وشباب

فلما دخلنا حيتاها ، وهمت العجوز بتقبيل يدها فمنعتها عائشة وقالت : « اهلا بك ياخالة اهلا بك » . وامرتها بالجلوس فجلست وتقدمت اسماء فى خفر واحتشام وقبلت يدها ، ووقفت متأدبة حتى اذنت لها فى الجلوس فجلست مطرقة لاتتكلم وقد ذهبت عنها جراتها لتهيبها اللقاء

فنظرت عائشة الى العجوز وابتسمت كأن فى نفسها امرا تخشاه أو كأنها مشتغلة بأمرها ، وقالت : « مرحبا بك يا خالة ، ما الذى جاء بك الينا . كيف فارقت محمدا ؟ »

قالت : « فارقته فى خير وعافية ، وقدبعثنى اليك بهذه الفتاة اودعها عندك لتكون فى كنفك حتى يجيء » . قالت ذلك وتبسمت

فنظرت عائشة الى اسماء فأعجبها ما فيها من الجمال والكمال ، وادركت مما علا وجهها من ظلال الحياء عند ذكر محمد أنها تحبه ، فتبسمت ورنت الى العجوز بعينيها مشيرة اشارة اثبتت ظنها

فقالت لأسماء : « أهلا بالضيفة العزيزة وديعة اخى فانت اذا اختى»

فتوردت وجنتا اسماء خجلا ، ولم تجب

فقالت عائشة : « اظنكما جئتما لتقيما عندى بمكة ؟ » . قالت العجوز : « نعم يامولاتى »

قالت : « ولكننىشاخصة الآن الى المدينة فاذهبا الى بيتى بمكةحتى اعود ، أو تعاليا معي الى المدينة » . ثم التفتت الى اسماء وقالت : « ما بالك لا تتكلمين ؟ »

فرفعت اسماء راسها وقالت : « تلعثم لسانى بين يدى أم المؤمنين زوج الرسول »

فابتدرتها عائشة قائلة : « ولكنك ستكونين من ذوات قربانا باذنالله فلا تتهيبى . اهلا بك ومرحبا »

فقالت العجوز وهى تريد أن تداعب اسماء : « لنعلم مولاتى ان اسماء بنت يزيد من بنى أمية قدمت المدينة من قبل منذ بضعة اشهر فقط وكانت مقيمة بالشام فلا تعرف عادة اهل الحجاز »

فقالت عائشة : « مهما يكن من أمرها فلن تلبث حتى تصيرحجازية»

□

وسكتت عائشة هنيهة وهي مقطبة الوجه ثم استأنفت الحديث فقالت : « وهل جئتما فى رفاق أم مع قافلة ؟ »

قالت : « جئنا مع عبيد بن ابى سلمة احد اخوالك »

فلما سمعت عائشة اسمه أجفلت وقالت : « وأين هو ؟ » . قالت : « آت عما قليل »

فلم تصبر عائشة ونادت بعض من على بابها وأمرته أن يأتى به ، وارخت النقاب ولبثت صامتة ، وهما صامتتان هائبتان ، حتى دخل عبيد وهم بتقبيل يد عائشة فمنعته ، وقالت : « أهلا بالخال ، قل ما وراءك ، كيف فارقت المدينة ؟ »

قال : « فارقتها وقد قتل عثمان وبقى ثمانية »

فلما سمعت ذلك قطبت حاجبيها وظهر الغضب على وجهها ، فتفرست فى عبيد والشر يكاد يتطاير من حدقتيها واسماء تراقبها من خلال النقاب وقد ذهلت لما بدا منها

أماعائشة فلم تصبر حتى يتم حديثه . فقالت وكأنها تتحفز للنهوض : « ثم صنعوا ماذا ؟ »

فلم يستغرب عبيد مابدا منها ، ولعله كان يتوقعه فقال : « اجمعوا على بيعة على »

فهبت عائشة من مجلسها ، ثم وقفت واطرقت وقد امسكت طرف نقابها كأنها تصلحه ، ثم رفعت راسها بغتة واشارت بيدها الى السماء ثم الى الارض وقالت : « ليت هـذه انطبـقت على هـذه ان تم الامر لصاحبـك » . قالت ذلك وخرجت مسرعة وهي تقول : « ردوني ، ردوني الى مكة . قتل والله عثمان مظلوما . والله لأطالبن بدمه »

فبغتت اسماء لما رات من اهتمام عائشة بالامر الى هذا الحد ، وساءها ما سمعته من التعريض بعلى ، ولكن التهيب منعها من الكلام

اما عبيد فبقي رابط الجاش ، وربما كان على بينة مما سيبدو من أم المؤمنين فاعد لكل خطاب جوابا ، فاستوقفها وقال لها : « ولم ؟ والله ان أول من امال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر . الم تخرجي قميص رسول الله وشعره لما نقمت بأعمال عثمان وتقولي : (هذا قميصه وشعره لم يبل وقد بلى دينه) . . »

فلما سمعت عائشة قوله أدارت وجهها اليه وقالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقولي الاخير خير من قولي الاول » . قالت ذلك وأمرت رجالها ان يهيئوا الاحمال للرجوع الى مكة . فنظر اليها عبيد وهي خارجة وانشد :

فمنك البـداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطـر
وانت أمرت بقتـل الامام	وقلت لنـا انه قد كفر
فنحن اطعنـاك فى قتـله	وقاتله عنـدنا من امر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شـمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبـس للحـرب أثوابهـا	وما من وفى مثل من قد غدر

فلم تعبأ عائشة بقوله فتركها وانصرف

أما اسماء فلبثت هي والعجوز وكأن على راسيهما الطير لا يفقهان حديثا ، وكانت أسماء قد همت بأن تجيب عائشة ولكنها خافت غضبها فرات من الحكمة والتعقل ان تؤجل ذلك الى فرصه اخرى

فلما تهيأت الاحمال بعثت عائشة الى العجوز واسماء ، فركبتا معها وسار الجميع قاصدين البيت الحرام ، واسماء صامتة وقد أدهشها ما راته من تغير عائشة بغتة لأمر لم تكن تتوقعه . على انها مالت لمعرفة الدليل على صحة قولها في مقتل عثمان وهو الأمر الذى كان يقض مصجعها ، وكانت من جهة أخرى تخشى ان يثبت قتله ظلما فيحدث مايدعوها الى البعد عن محمد وهذا مالا تطيقه ، فقضت مسافة الطريق هائمة الفكر. حتي أطلت على مكة واشرفت على الكعبة وهى فى وسطها كأنها ملك والابنية حولها جنود . ولم يمض قليل حتى وصل ركبهم الى الكعبة فترجلت عائشة وترجل الجميع وسارت توا الى الحجر فاستترت فيه . وهو مصطبة محوطة بحائط الى ما دون الصدر منه ما تركت قريش من الكعبة واقتصرت فى بنيان الكعبة عنه ، ويقال أن فيه قبر سارة . فلما رأتها اسماء تدخل الحجر دخلت هى فى اثرها والعجوز معها ولكنهما لم تتكلما لتهيبهما من غضبها

□

ماكادت عائشة تدخل الحجر حتى اجتمع الناس حولها وفى مقدمتهم عبد الله بن عامر الحضرمى عامل عثمان على مكة . ورأت اسماء بينهم جماعة من بنى امية ممن غادروا المدينة بعدمقتل عثمان ولم يكن مروان معهم . ولم يكد يستقر بالناس المقام حتي وقفت فيهم عائشة وقالت وهم سكوت يصغون اليها وكانت جهورية الصوت : « أيها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهلالمدينة ، اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم من كان قبله . ومواضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها . فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام . وأخذوا المال الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الارض امثالهم ، ولو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من درنه »

فما انمت كلامها حتى هاج الناس وماجوا ، ثم تصدى عبد الله بن عامر الحضرمى وقال والناس يسمعون : « ها أنذا اول طالب » . وكان هو أول من أجاب الدعوة الى المطالبة بدم عثمان

وكانت اسماء تزداد حيرتها ولاتفقه لهذا الامر سببا معقولا، فالتفتت الى العجوز فراتها صامتة مطرقة وقد امتقع لونها وارتجفت شفتاها . فادركت ان فى الامر سرا لا تستطيع أن تبوح به

واذنت الشمس بالمغيب فاشارت عائشة الى الناس ان ينصرفوا

فتفرقوا ، وخرجت هى الى منزلها واسماء فى آثرها وقد هالها ما رأته فى يومها من المدهشات

وجاء القوم الى منزل عائشة فى العشاء فأطعموا ، ولم تجرؤ العجوز ولا أسماء أن يجلسا معها تلك الليلة ، فباتتا واسماء تنتظر الغد لترى عائشة وتستطلعهــا الخبر اليقين ، فلما اقبل الصباح نهضت أســماء والعجوز . وقالت أسماء : « لقد ادهشنى أمر لم يبــق لى صبر على السكوت عنه وليس لى من يفرج كربتى سواك »

قالت : « سلى ما تريدين ؟ »

قالت : « لقد سمعت من أم المؤمنين ما جهرت به فى شأن أمير المؤمنين على بن ابى طالب . وهو كما تعلمين ابن عم الرســول ، وهى زوجه ، فما بالها تحمل عليه وكان أولى بها أن تكون معه ؟ »

ففهمت العجوز، وجالت بعينيها ونهضت كأنها تقول : «لا يعنينى هذا ولا أريد البحث فيه » . وكانت ملامح وجهها تنم عن تكتمها ، فتوسلت اليها وألحت عليهــا فقالت : « ان فى الامر سرا قل من يعرفه ســواى ولكننى اخاف أن ابوح به »

فازدادت أسماء شوقا لسماع السر ، وجرت نفسها على البســاط حتى التصقت بها وقالت : « بالله عليك فرجى كربتى بكلمة ، ولن ابوح بشىء مما تقولين »

فالتفتت العجوز يمنة ويسرة تحاذر أن يسمعها احد وادنت شفتيها من اذن أسماء وهمت بالكلام ، ثم أجفلت بغتة وابتعدت عنها وأصغت فاذا بوقع اقدام خفيفة ثم بقارع يقرع الباب وجارية تناديها ، فنهضت وفتحت الباب فدخلت جارية حبشية حيتها وقالت : « ان مولاتى أم المؤمنين تدعوكما اليها »

□

فسرت أسماء لهذه الدعوة على أمل أن تتمكن من الاطلاع على شىء مما ترومه ودخلتا على عائشة فاذا هى جالسة على طنفسة من السجاد الثمين ، وقد خلعت الجلباب فبانت أثوابها الزاهية ، وبان معصــماها وعنقها ، وعليها الدمالج والاساور والعقود مما زادها مهابة وجمالا . فلما دخلتا قبلتا يديها وجلستا على وسائد من الدمقس الملون بالقرب منها . فلبثت برهة لاتتكلم ثم وجهت خطــابها الى العجــوز وقالت : « كيف قتلوا عثمان ياخالة ؟ »

قالت : « دخلوا عليـــه عنوة وقتلوه فى داره بعد ان احرقوا البـــاب والسقيفة »

قالت : « ومن قتله وكيف كان ذلك ؟ »

فسكتت العجوز برهة ثم قالت : « لا اظننى استطيع وصف الحادثة كما تصفها اسماء فقد شهدتها بنفسها وكانت فى داره ساعة مقتله » . فالتفتت عائشة الى أسماء وقالت : « هل كنت فى الدارساعة القتل؟ » .

قالت : « نعم يا مولاتى »

قالت : « وكيف كان ذلك ؟ » . فشق على أسماء ان تقص الواقعة كما جرت ، لانها تمس محمــدا ، ولــكنها لم تر بدا من الجواب فقالت « يطول الحديث لو اردت بسطه ، ولكنى أوجزه فأقول : انهم استتابو، فتاب ، ثم رجع . ولقد نصح له على بأن يصم أذنيه عن سماع مشور، كاتبه وابن عمه مروان فلم يصغ ، وغاد الى ماكان عليها . وعلم الثائرون ذلك فطلبوا اليه أن يسلمهم مروان فيعودوا ، فلما أبى ، دخلوا منزله عنوة وقتلوه »

قالت : « ومن قتله ؟ » . قالت : « اثنـــان لا اعرفهما ولــكنهما من صعاليك العرب وليسا من الصحابة ولا من ابنائهم »

فتأوهت عائشة وحرقت اسنانها وقالت : « كيف يقوى الصعاليك على قتل الخليفة ، وكبار الصـــحابة ينظرون لايدفعون عنه بسيف أو لسان ؟ »

فقالت أسماء : « انهم دافعوا عنه جهدهم ، ان عليـــا ارسل ابنيـــه الحسن والحسين الى الدار ، وكذلك فعل الصـــحابة . رأيتهم هنـــاك يدفعون الناس عن بابه حتى تلطخ وجه الحسن بالدم . ولــكن عثمان رحمه الله منعهم »

فتبسمت عائشة ابتساما انكاريا ، وقالت : « أتصدقين انعليا أراد أن يدفع الناس عن عثمان فلم يستطع ؟ » . وسكتت . كأنها ضاقت ذرعا بالخوض فى تفاصيل الموضوع ، وكادت تهم باســـتئناف الحديث فابتدرتها قائلة : « اسمحى لى يامولاتى أن أؤدى شهادة لا أستحى أن أصرح بها أمام الديان العظيم . أن عليا برىء من دم عثمان ، بل هوأول ناقم على هذه الفتنة ويراها مضعضعة الاسلام لا سمح الله »

قالت : « اراك يا بنيـــة تنظرين الى ظواهر الامور دون بواطنهـــا ، أيعقل ان عليا وهو صاحب الكلمة التى لاترد فى أهل المدينة قصد الى الدفاع عن عثمان وانه غلب على امره ؟ »

قالت : « عرفت يقينا انه أول غاضب على القائمين بهذه الفتنـــة ؛ ولقد سمعته اتفاقا ذات ليلة وهو يناجى رسول الله عند قبره ، يشكو

اليه ما أصاب أمته من التشتت بعده ، فسمعت كلاما يتفتت له الصخر يتخلله البكاء حزنا على الاسلام . ان عليا يا مولاتي مخلص فى قوله وفعله ولا لوم عليه ، ولعلك ان وجهت اللوم الى القاتلين او المحرضين وجدت القول ذا سعة ، واما الى على فلا » . قالت ذلك وهي ما زالت تتهيب موقفها بين يدى ام المؤمنين ، فما اتمت كلامها حتى تصبب العرق من جبينها . فتحركت عائشة فى مجلسها وقالت وقد اخذ منهــا الغضب مأخــذا عظيما : « ان اولئك القتلة قد اقترفوا اثما عظيمــا وأكثرهم لايشعرون ، وانما حرضهم على هذا المنكر شيوخهم ورؤساؤهم ، فانك تجهلين امورا أعلمها ولا اجهل شيئا تعلمينه » . وسكتت برهة واسماء مطرقة وقد تحيرت كيف تجيب . فاستأنفت عائشة الحديث وقالت : « لقد وقع الى ان اخى محمــدا كان فى عداد المغرورين » . ثم خفضت صوتها وقالت وهى تلقى يدها على الوسادة لتتكيء عليها : « ولكنه غير ملوم »

فلما سمعت اسماء ذلك ثارت ثائرة حبها محمدا وهمت بأن تدرأ عنه التهمة وخشيت أن يؤدى بها الدفاع الى الكذب فلبثت صامتة، ونظرت الى العجوز فرأتها ترتعش خوفا ورهبة ، وظل الجميــع برهة لا تفوه احداهن بكلمة حتى عادت عائشة الى الكلام فنظرت الى اسماء وقالت وهى تحاول اخفاء غضبها : « لا أنكر ان عثمان اخطــأ فى تصريفه أمور الخلافة ، ولكنه خطأ لايدعو الى القتل »

فأحبت اسماء ان تسمع رأى عائشة فيما ارتكبه عثمان من الخطــأ فقالت : « هذا ما سمعته من اخيك محمد ، ولكنه يرى ان خطأه اعظم من ان يغتفر »

قالت وقد عادها غضبها : « ان محمدا لايعرف ما اعرفه ، ولو جاءنى الآن لجادلته واقنعته بضلاله » . ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت احدى الجوارى تقول : « ان بعض الامراء بالباب » . فلما سمعت اسماء ذلك نظرت الى عائشة فرأتها توقفت عن صرف الجارية فأدركت انها راغبة فى مقابلة القــادمين ، فنهضت واســتأذنت فى الانصراف الى حجرتها فأذنت لها ، فخرجت والعجوز فى اثرها وكلتاهما صــامتة تفكر فيما سمعته

□

واحسـت اسماء عقب خروجها بقشعريرة شديدة فأوت الى الفراش والبرداء تعمل فى احشائها ، فتبعتها العجوز وجلست الى جانبها وجست يدها فاذا هى باردة كالثلج، فدثرتها واكثرت فى غطائها وهى تنتفض بردا .

فقلقت العجوز وسألتها عما بها فقالت : « أحس بارتخاء فى أعضائى ورعدة فى احشائى » . قالت ذلك واسنانها تصطك . فأرادت العجوز أن تخفف عنها فقالت لها : « لابأس عليك ، ان ما اصبت به من أثر التعب الذى قاسيناه فى الطريق »

وظلت العجوز تخفف عنها حتى خفت انبرداء واحمر وجهها احمرارا شديدا . فجسنها العجوز فاذا هى محمومة فخففت من دثارها ، وخرجت تستشير أهل الدار فى علاجها . فأشارت عليها بعض النساء بعسل تشربه ممزوجا بالماء فجاءتها بقدح من مزيجه فلم تتناول منه شيئا . فتقدمت اليها وقبلتها وتوسلت اليها ان تشرب العسل فلم تجبها ، ثم ما لبثت أن رأت دموعها تهمى وهى تحاول امساكها ، فألحت عليها أن تشرب فازدادت اسماء بكاء وشهيقا وقد احمرت عيناها وذبلت أجفانها واشتدت عليها الحمى اشتدادا عظيما

فحارت العجوز فى أمرها وحدثتها نفسها أن تنبىء أم المؤمنين بما حدث فتذكرت اشتغالها بمن قدم اليها من الامراء . فلبثت بجانب الفراش تنظر الى اسماء ولا تتكلم

ثم سكنت اسماء وأغمضت عينيها كأن النعاس غلب عليها ففرحت العجوز لنومها فتركتها وخرجت لعلها تلقى من تستشيره فى علاجها ، ولم تكد تخرج حتى سمعت أسماء تتكلم فظنتها تدعوها فأسرعت اليها فاذا هى تهذى وقد انكشف الغطاء عنها وانحسر درعها وقميصها عن صدرها وانكمشت اكمامها لفرط تقلبها . فهمت العجوز بأن تغطيها وتصلح أثوابها فخافت ان توقظها فدنت من الفراش لترفع الغطاء الى صدرها فرأت الحجاب فى عنقها ورسم الصليب على معصمها . فبغتت وتأملت فى وجهها فراعها ان رأت لمحة من غير ملامح العرب العرباء . وتفرست فى رسم معصمها فاذا هو رسم الصليب وتحققت أن الحجاب من احجبة النصارى فاستغربت الامر . ثم تذكرت ان اسماء قلما كانت تبالى التحجب فى حديثها مع محمد أو غيره . فقالت فى نفسها : « لعلها كانت نصرانية وربيت بين النصارى فى الشام »

وكانت اسماء ساكنة استغرقت فى النوم ، وقد أطبق جفناها وتوردت وجنتاها واسرع تنفسها من الحمى ، فكانت تلهث وفمها مفتوح فأزاحت العجوز الغطاء الى صدرها خوف البرد ، فسمعتها تهذى فأصغت لهذيانها فاذا هى تقول : « اماه يا اماه يا مريم ، آه ياعلى يا ابا الحسن كيف ضاع السر ؟ تعال ياحبيبى يامحمد . لا . لا . اذا كنت قد قتلت عثمان فأبعد عنى . لا . لا . بل تعال يامنيتى ورجائى . ان اسمك كان آخر مانطقت به أمى . آه يا اماه . من هو أبى؟ اخبرينى .

قولى . احى هو ام سبقك الى العالم الآخر ؟ » . ثم خفضت صـــوتها وتلجلج لسانها فلم تعد تفهم العجوز شيئًا منه . ثم سكتت سكوتا تاما واستغرقت فى النوم ، فجلست العجوز بالقرب من الفراش وهى تهم بأن تجسها لتتحقق الحمى وخافت أن توقظها فعاذت بالصمت تفكر فيما سمعت منها وتعجب لجهلها اباها

وفيما هي فى ذلك اذ جاءتها جارية تسعى وتقول : « ان ام الفضل جاءتك زائرة »

فلما سمعت اسم ام الفضل تحفزت لملاقاتها وقد سرت بقدومها . وبعد هنيهة أقبلت أم الفضل تمشى لايسمع لمشيها صـــوت وكانت فى نحو الستين من عمرها ، فهمت العجوز بها وحيتها وقبلتها ودخلت بها الى حجرة أسماء ودعتها للجلوس على البساط

فقالت أم الفضل وهى لم تنظر أسماء بعد: « انى أشم فى هذه الحجرة رائحة الحمى» . والتفتت الى الفراش وقالت : « من هو المريض عندك؟ »

قالت : « لقد جئتنى فى ساعة حرجة فعسي أن تخففى عنى »

قالت : « انما جئت لأسألك عن قتل الخليفة رحمـــه الله وما آل اليه الامر بعده ، فقد أهمني أمره كثيرا ، وسمعت بقدومك فأسرعت اليك، فأخبرينى اولا من هذا المريض عندك ؟ »

قالت : « هى فتاة جئت بها من المدينة بايعاز من ابن أختك محمد بن أبى بكر ، لتقيم بضعة أيام عند أم المؤمنين حتى نرى ما يكون »

قالت : « وما شأن ابن أختى وشأنها »

فالتفتت العجوز الى فراش أسماء حذر أن تستيقظ فتسمعهـــا ، ودنت من أم الفضل وهمست فى أذنها فقالت : « انه ينوى أن يعقـــد قرانه بها »

وأرادت ام الفضل أن تسأل العجوز عن تفصيل مقتل عثمان ، فاذا بأسماء تتـــأوه ، وأدارت رأسها نحوها وفتحت عينيهـــا . فنهضت العجوز وجست يدها فاذا هى مبللة بالعرق وقد خفت الحمى قليـــلا فقالت لها : « كيف أنت الآن يابنيتى ؟ »

فأشارت برأسها وعينيها انها فى راحة ، ثم رأت ام الفضل فاستحيت منها وهمت بالجلوس ، فنهضت أم الفضل اليها ودنت منها وهى تقول : « لا تزعجى نفسك يا ابنتى »

فتوسطتهما العجوز وقالت : « اظنك تستأنسين بلقاء أم الفضل لبابة خالة محمد بن ابى بكر أخت امه ، وازيدك علما بأنها أول من أسلم بعد خديجة ، وهى أيضـــا زوج العباس عم النبى ، وأخت ميـــمونة زوج

النبى . ومن ولدها عبد الله بن العباس من خاصة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، بل هو ابن عمه وابن عم الرسول ، وأظنك رأيته غير مرة فى مجلس على ، أو لعلك رأيتــه فى دار عثمان فقــد كان يتردد اليه وهو محاصر ، حتى انتدبه ليحج بالناس » . فلما سمعت أسماء ان أم الفضل خالة محمد استأنست بها ، ولما علمت انها زوج عم النبى وأم عبــد الله ابن العباس زاد احترامها لها ، فجلست وهى تمسح العرق عن جبينها . ورحبت بها فأسرعت أم الفضل وقبلتها وقالت : « أهلا وسهلا بك كيف فارقت محمدا ؟ »

فتعجبت أسماء لسؤالها عن محمد وهى لا تحسبها تعرف علاقتهــا به . فلما رأت العجوز استغرابهــا ضحكت وقالت : « لا تســتغربى يا أسماء فانها عالمة بكل شيء ولا يلبث المسك أن يضوع »

فأطرقت أسماء خجلا ولم تجب

فجلست أم الفضل الى جانب العجوز بالقرب من الفراش وقالت لها بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد : « هل اجتمعت بأم المؤمنين وكيف وجدتها ؟ »

قالت : « وجدتها ناقمة على قتلة عثمان ولا أدرى ماهى عازمة عليه »

قالت : « علمت أنها يوم وصولها الى مكة دعت الناس الى المطالبة بدم عثمان ، وكان أول من أجابها منهم عامل هذه المدينة »

قالت : « نعم ، وقد سمعت كلامها وكلامه ومعى أسماء . ولــكننى لا أظنها تقرن القول بالفعل »

فابتسمت أم الفضل استغرابا وقالت : « وما الذى حملك على هــذا الظن » . والتفتت الى أســماء فرأتها تلتحف وقد أحست بقشعريرة على أثر جلوسها . فأدنت أم الفضل فمها من أذن العجــوز وخفضت صوتها وقالت : « هل تجهلين ما فى نفسها على أمير المؤمنين ! »

فعضت العجوز شفتها وأشارت بعينيها كأنها لا تريد الخوض فى هذا الامر أمام أسماء وقالت : « ادن تظنينها مقدمة على الامر ؟ »

فتطاولت أم الفضل بعنقها نحو الباب حتى أطلت على الدار مخافة أن يسمعها أحد وقالت : « لابد لها من ذلك فان أهل مكة يد واحدة فى هذا الامر ، وفيهم بنوا أمية الذين هربوا من المدينة ؛ وقد وقع الى أن الزبير وطلحة قادمان أيضا وكل منهما يريد الخلافة . وقد ســار قوم لاستنصار أهل البصرة ، وآخرون للــكوفة ، وغيرهم لتحريض أهل اليمن ، وآخرون الى الشـام »

فابتدرتها العجوز قائلة : « أما أهل الشـام فليسوا فى حاجة الى من يحرضهم ؛ وفيهم معاوية ابن عم عثمان ، وقد حملوا اليه قميص عثمان

الملطخ بالدم وأصابع نائلة ليهيجوا اهل الشام على القاتلين »

فتنهدت ام الفضل وتأوهت وقد عظم عليهـا ما تتخوفه من نفاقم الفتنة حتى تناثر الدمع من عينيها ؛ وسكتت

□

كانت أسماء تسمع حديث أم الفضل والعجوز وهي مصطربة لاتقوى على جواب ؛ فلما رأت أم الفضل تبكي تذكرت بكاء على عند قبر النبي في الليلة التي رأت فيها محمدا لأول مرة . فانتقل ذهنها الى محمد وما يعترض آمالها فيه من أمر اتهـامه بقتل عثمان . وكانت لمـا سمعت من قبل كلام عائشـة انقلبت على محمد وكادت تتحقق ما سمعته لو لم يقم في قلبها برهان حبه . . على انها لم تزل على رغبتها في سماع دفاعه أو دفاع من يقول بقوله ويرى قتـل عثمان . فلما رأت سـعة علم أم الفضل وقد رافقت الاسلام في كل أطواره ، كلمتها بصـوت مختنق من تأثير الحمى فقالت : « ان في نفسي شـيئا لاصـبر لي عليه » . قالت : « وما هو ؟ »

قالت : « لقد شهدت مقتل عثمان رحمه الله وسمعت دعوى النـاس عليه . ولكنني تحققت مما وقع من حوادث كثيرة انهم ظلموه وان الذنب ليس ذنبه ولـكنه ذنب مروان ابن عمه فقد كان يصرف شئونه كيف يشاء . لكن ابن أختك (تريد محمدا) يزعم انه يستوجب القتـل وقد جادلته في الامر فوعد بأن يقنعني ويجيئني بالبرهان »

فلما سمعت أم الفضل كلامها تنهدت وقالت : « وقعت على خبير . فاني أعرف عثمان قبل اسـلامه ، وأعرف ترجمته ما استتر منها وما ظهر ، وهي لا تخلو مما يهيج الاحزاب عليه ويبعث الضغائن ، وأظنـه لو وفق الى وزير أو مشير عاقل أو كاتب غير مروان لما بلغ الامر حده . واليك ما صنعه عثمان مما أثار الصحابة عليه :

« أولا ــ انك قد تعلمين ان الصحابة هم الذين قاموا بنصرة الاسلام وتأييـد دعوته منذ ظهوره ؛ فهم أولى من سـواهم بولاية الامصـار وتولي الاعمال . وكانوا كذلك على عهد أبي بكر وعهد عمر بعده ؛ فلمـا تولى عثمان عزل الصحابة وولى آخرين من ذوي قرابتـه ؛ كما فعل بعمرو بن العاص في ولاية مصر وهو الذي فتحها وغرس الاسـلام فيها فعزله وولى مكانه عبد الله بن أبي سرح ، أخاه من الرضاعة ، وقد كان عبد الله هذا في جملة من ارتدوا بعد اسـلامهم ولحق بالمشركين فأهدر النبي دمه ، فأخذ له عثمان الامان بعد فتح مكة

« ثانيا ـ اسرف عثمان اسرافا شديدا فى بيت المال ، فكان يعطى منه اناسا من قرابته طردهم النبى (صلعم) . ولايغرنك ما يقال عن تقشفه وزهده فى طعامه

« ثالثا ـ اساء الى جماعة من اعلام الصحابة وذوى المكانة فى الاسلام ، منهم عبد الله بن مسعود ، وابو ذر الغفارى ، فنفاهم من أوطانهم وانتهك حرمة كعب بن عبدة البهرى وحرمة الاشتر النخعى فى امور يطول شرحها

« رابعا ـ اكثر من الضرائب على الاسواق ، وحمى سوق المدينة فى بعض ما يباع ويشرى ، فأمر الا يشترى منها احد النوى حتى يفرغ وكيله هو من شراء ما يحتاج اليه . وحمى البحر من أن تجرى فيه سفينة الا فى تجارته

« خامسا ـ اقطع اصحابه اقطاعات كثيرة من بلاد الاسلام مما لم يكن له فعله . وهناك اموراخرى نسبوها اليه كمخالفة الجماعة فى اتمام الصلاة بمنى ، وانفراده بأقوال شاذة ونحو ذلك . ولكن لاصحابه حججا يدفعون بها عنه وهى طويلة لو اردت ذكرها لطال بنا الكلام »

وكانت ام الفضل تتكلم بصوت منخفض ، واسماء تمد عنقها وكلها آذان مصغية فاطمأن قلبها لأنها وجدت لمحمد عذرا وافق هواها ، كأنها القت عن ظهرها حملا ثقيلا . وكان الاعياء قد بلغ منها مبلغه فاستلقت ونامت ، وخرجت العجوز وام الفضل الى بستان فيه نخلات متقاربة فجلستا تتبادلان الحديث واسماء نائمة ، وام المؤمنين فى شاغل عنهما بمن عندها من الامراء

وأخيرا قالت ام الفضل : « رحم الله عثمان ، وايد عليا ، فانى لا أرى خيرا منه للقيام بأمر المسلمين لقرابته وعلمه وفضله وشجاعته وسبقه الى الاسلام ، على ان ابنى عبد الله (عبد الله بن عباس) يرى انه ضعيف الرأى ولكنه يؤثره على كل من سواه ، وقد رأيته فرحا بخلافته عندما لقيته بالامس »

قالت : « اولايزال هنا منذ ان جاء للحج ؟ »

قالت : « حينما حاصروا عثمان امره أن يحج بالناس ، فلما جاءه نبأ قتل عثمان وولاية على ، اسرع ليكون بين يديه »

وتذكرت العجوز حال اسماء فقالت : « ماذا ترين ان افعل بأسماء ومرضها ؟ » . قالت اظنها تشفى غدا ، اسقيها العسل »

فقالت : « ساحمل ام المؤمنين على ان تسقيها اياه »

وبينما هما في الحديث راتا الغلمـان في حركة وهم يهيئون الخيـل ويعدون الجمال للركوب ، فعلمتا ان الامراء اوشكوا على الخروج من عند ام المؤمنين ، فنهضت ام الفضل وودعت العجوز وانصرفت

وسمعت العجوز جلبة ، ثم رات جماعة خارجين من الدار معظمهم من بني امية وعلى وجوههم سمات الظفر ، ولم تجد بينهم احـدا تعرفه فانزوت حتى انصرفوا ، ودخلت حجرة اسماء وهي في قلق لئلا تكون قد افاقت في اثناء غيابها ، فوجدت الحجرة مفتوحة وعند بابها خف عرفت انه خف ام المؤمنين فعلمت انها جاءت تتفقد اسـماء فأسرعت فراتها واقفة عند راس أسماء ، فاشارت ام المؤمنين اليها باناملها وشفتيها أن تمشي الهويني والا تخاف . فابطـات في خطاها حتى دنت من اسـماء فوجدتها نائمة وقد كلل العرق جبينها فسألتها عائشة عن حالها فقالت :

« انها شعرت بالبرداء عندما خرجنا من عندك ثم أصابتها الحمى »

قالت : « أسقيها العسـل »

قالت : « جئت اليها بقدح منه فلم تشرب »

قالت : « الي به . انا أسقيها فانه فيه شفاء . والتفتت الى اسماء فراتها تحركت واخـذت تمسح العرق عن وجههـا بكفيهـا فدنت من فراشها ففتحت اسماء عينيها ولما رات ام المؤمنين اجفلت ونهضت وقد توردت وجنتاها . فقالت لها عائشة : « لاتزعجي نفسك يابنيـة » . وجست يدها فاذا هي لاتزال حارة وقد ذبلت عيناها واحمرتا من شدة الحمى

فقالت لها عائشة : « الم تشربي العسـل يا اسماء ؟ »

فقالت : « لا اشتهي طعاما يا مولاتي ولا حلواء »

قالت : « انما هو دواء فيه شفاء للنـاس وقد سمعت رسـول الله يقول : (الشـفاء في ثلاث : شربة عسـل ، وشرطة محجم ، وكية نار . وانهى أمتي عن الكي) . وكان يحب الحلواء والعسـل) . » قالت ذلك ودفعت القدح الى اسماء فأخذته وشربته ، ولم يمض قليل حتى احست برطوبة حلقها . وأوصتها عائشة بأن تشرب شيئا من لبن الابل ايضـا فأطاعت ، وبعد شرب اللبن انتعشت فجلست في الفراش . ورجت من ام المؤمنين ان تمكث عندها لأنها استبشرت بها خيرا

فقالت عائشة : « بل أرى أن ننزل الى البستان بالعريش لأني مللت الخباء وقد تزاحم الناس على اليوم » . فنهضن هن الثلاث ومشين حتى وصلن الى البسـتان وهو محاط بسور من سـعف النخل وفي وسـطه عريش مصـنوع من الجريد يستظل به ، وقد نصبوا فيه مقـاعد من الجريد والخشب ، فدخلنه وجلسن فيه وام المؤمنين صامتة

طلحة والزبير

لم يكد يستتب بهن الجلوس حتى سمعن جعجعة وصهيلا وجلبة، فقطبت عائشة حاجبيها تطلعا لما يأتيها من أخبار القادمين وماعتم الخادم أن دخل فقالت: « ما وراءك ياغلام ؟ » . قال: « ان ركبا قادمين من المدينة وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام يستأذنون » . فلما سمعت أسماء ذلك اجفلت وتحفزت للنهوض للعود الى البيت لتخلو أم المؤمنين بالقادمين

فقالت عائشة: « لا أرى مايدعو الى دخولك البيت الآن، واذا رأيتما ألا تحضرا مجلسنا فكونا وراء هذا العريش »

فنهضتا الى مقعد وراء العريش جلستا عليه، وقد سرت أسماء ببقائها لعلمها أن طلحة والزبير قادمان من المدينة بعدها، ولابد من خبر جديد جاءا به، أو انهما جاءا فى أمر يهمها الاطلاع عليه لعلاقته بالامام على، وهى تعلم انهما بايعا عليا مكرهين . فلبثت مستترة بجانب العريش وأصاخت بسمعها وهى تنظر من خلال الجريد الى من يدخل العريش

فأذنت عائشة لطلحة والزبير، وأرخت نقابها، فدخلا وهما ما زالا بثياب السفر وقد علاهما الغبار، ومعهما رجال آخرون

دخل أولا طلحة بصدره العريض ولحيته البيضاء الكثيفة، وكان قصيرا، وقد ازداد وجهه احمرارا من طول السفر وأثر الشمس. وكانت أسماء قد رأته غير مرة فى المدينة فلم تستغربه . ثم دخل الزبير وهو يمتاز عن طلحة بخفة عضله وقلة شعر لحيته

ودخل فى أثرهما ابناهما . فقالوا: « السلام عليك يا أم المؤمنين »

قالت: « وعليكم السلام يا أصحاب الرسول ونخبة المهاجرين وحماة الاسلام » . وأذنت لهم بالجلوس فجلسوا مطرقين لاينظرون اليها اجلالا لحرمتها . فخاطبت طلحة والزبير قائلة: « من أين أتيتما ؟ »

فأجابها طلحة: « جئنا من المدينة »

قالت: « وكيف فارقتماها ؟ »

قال: « انا تحملنا هربا من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوما حيارى

لايعرفون حقا ولا ينكرون باطـلا ولا يمنعون أنفســـهم » . قال ذلك والغضب باد من خلال حديثه والزبير يهم بالكلام كأنه لم يكتف بما قاله طلحة

فقالت : « وكيف يقتل عثمان وانتم تنظرون ؟ »

قال الزبير : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لقد دافعنا عنه بأولادنا وانفسنا ، ولكن الغوغاء غلبتنا على أمرنا فلم نمنع قدرا واقعا »

قالت : « ثم بايعتم وانتم راضون ؟ »

فقالا بصوت واحد : « لم نبايع الا والسيف على اعناقنـا وما نحن براضين »

قالت : « انهضوا اذن الى الغوغاء واطلبوا دم ذلك المقتول »

قالا : « انما جئناك لذلك »

فقالت : « وقدجاءنا أيضا عبد الله بن عامر ابن خال عثمان وعامله على البصرة فانه لما سمع بقتله حمل ما فى بيت المال وجاء الينا ، وكذلك يعلى ابن منية جاء من اليمن ومعه ستمائة بعير وســتمائة الف درهم وقد اناخ فى الابطح وقد كانوا عندى اليوم »

ولم تتم كلامها حتى جاءها غلام ينبئها بقدوم ابن عامر وابن منيـه فقالت ليدخلا . فدخل أولا ابن عامر وهو شـــاب فى الثلاثين من عمره وعليه جبة حمراء ، ثم دخل يعلى بن منية وهو يمشى عرجا وقد كسر فخذه فى طريقه من اليمن وكان قد ســمع بقتل عثمـــان فجاء لينصره فسقط عن بعيره فى الطريق فانكســر فخذه ، فجاء برجاله وماله . فلما دخل ابن عامر وابن منية سلمــا على طلحة والزبير ، فقال طلحة لابن منية : « مالى اراك تمشى عرجا ؟ »

قال : « كسرت رجلى وانا قادم لنصرة عثمان ولكن معى المال والرجال قوموا بنا للأخذ بالثأر » -

فقال الزبير : « هلم بنا الى الشـام »

فاعترضـــه ابن عامر قائلا : « مالنـــا وللشام وفيهـــا معـــاوية وهو يكفيكموها ، ولكنى أرى أن تأتوا البصرة فان لى بها صـــنائع ، ولهم فى طلحة هوى ، وهم راغبون فى مبايعتـــه » . فقـــالوا : « قبحك الله انك تريد الفتنة فلنسر الى البصرة » . فأجمــع الراى على أن يسيروا الى البصرة يدعون من بها للطلب بدم عثمان وينهضونهم كما أنهضوا أهل مكة

وكانت أســـماء تسمع حديثهم من وراء العريش ، فلمـــا علمت بما اجمعوا عليه ، عظم الامر عليها وتحققت ان الفتنة واقعة لاريب فيها ، فحز ذلك فى نفسها فاضطربت وخفق قلبها ، وثارت الحمية فى رأسها

حتى كادت تهم بالنهوض والدخول على الجمـــــع . فادركت العجوز اضطرابها فامسكت بيدها فاذا هي ترتعش ، فأخذت تهدىء من روعها خوفا عليها ، ولكن هذه قالت لها : « لاصبر لي على ما اسمع ، وهم انما يريدون الانتقاض على الامام على ، بعد أن رايتهم بعبنى يبـايعونه ويقسمون على الطاعة »

وما لبثت أن سمعت صـوتا ارتعدت له جوارحها ، وكان صـوت مروان وقد اقبل ودخل العريش وقبل ان يلقى التحيـة خاطب طلحة والزبير ضاحكا يقول : « على ايكما اسلم بالامارة واؤذن للصلاة ؟ » . يلمح الى أن احدهما سيكون أمير المؤمنين

فأجابه عبد الله بن الزبير : « على ابى » . فاعرضه محمد ابن طلحة وقال : « بل على أبى » . فضحك مروان وقال : « بل اجعلوا الخلافة في ولد عثمان لأنكم انما خرجتم تطلبون بدمه » . فقال طلحـة : « كيف ندع شـيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنـــائهم ؟ » . فأجاب وهو يتمتم : « لا ارانى اسعى الا لاخراجها من بنى عبد مناف »

فابتـدرته أم المؤمنـين قائلة : « اتريد أن تفرق أمرنا يا مروان . ؟ ليصل بالناس ابن أختى » . تعنى عبد الله بن الزبير

فلما سمعت أسماء كلام مروان لم تعد تستطيع صبرا ، ولا سيما بعد أن رات عائشة تنتهره . فنهضت وأسرعت الى العريش واخترقت الجمع وهى ترتجف وقد امتقع لونها ، فلما رآها النـاس بغتوا ، وكان طلحة والزبير يعرفانها ، فوقفت غير هيابة ولا وجلة ونظرت الى مروان وقالت : « اما كفاك يا مروان ما ايقظت من الفتنة في المدينة . ؟ اما كفى انك السبب في مقتل الخليفة حتى جئت تلقى الشقاق بين بقية الصحابة ، والله لولا حرمة أم المؤمنين لأرقت دمك بين يديها . فلا أراك براجع عن غيك حتى تفنى المسلمين وتغرى بعضـهم ببعض » . والتفتت الى أم المؤمنين لترى ما يبدو منها

فلما سمع القوم كلامها ، لاذوا بالصـمت وهى ترتجف وتتجـلد ، فأجابها مروان وهو يضحك وقال : « تذكرين انى قتلت الخليفـة ، في حين لم يقتله الا صاحبك محمد ربيب على ، وسوف يلقى كل منهمـا جزاء ماقدمت يداه »

فقالت : « لا تنطق باسم ابن ابى بكر شقيق أم المؤمنـين ، ولا تلفظ اسم ابن ابى طالب امير المؤمنين ، ووالله لو انه بيننا لتلعثم لسانك وما نجوت »

فهم مروان بأن يجيبها ، فأسـكتته أم المؤمنين قائلة : « اتذكر أخى

محمدا يا مروان . اسكت . وانت يا أسماء خففى عنك وانت مريضة . اذهبى الى فراشك »

وكانت العجوز واقفه بجانبهــا فامسكتها وخرجت بها من العريش وهى تكاد تقع لفرط اضطرابها ، فلمــا خرجتا من البستان صاحت اسماء بالعجوز قائلة : « اخرجى بى من هنا انى لا أستطيع البقاء »

قالت : « والى اين يا ابنتى ؟ » . قالت : « الى يثرب »

قالت : « كيف نذهب ؟ وماذا نفعــل اذا افتقدتك أم المؤمنــين فلم تجدك ؟ »

قالت : « لا ادرى ما العمل ، ولكننى لا أستطيع البقاء هنا ولابد لى من الذهاب الى المدينة » . قالت : « لا أستطيع الذهاب اليها الآن ؟ »

قالت : « اذهبى بى الى منــزل آخر غير هــذا المنــزل » . قالت : « اتذهبين الى ام الفضـل »

قالت : « هيا بنا اليها » . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها غيظا . فسارت بها العجوز الى منزل ام الفضل، فلما دخلتاعليها رحبت بهما ، وقد استغربت مجيئهما ، رغم مرض أسماء

اما اســماء فلم تكد تصل الى المنزل حتى عاودتها الحمى واصــابها الدوار ، فهمت بالاستلقاء على المصطبة امام البيت ، ولــكن أم الفضل دعتها الى حجرتها فأبت وقالت وقد توردت وجنتاها من شدة الحمى « خذونى الى المدينة ، احلونى الى الامام على لأطلعه على مايكيدون . . انهم تواطــأوا على الطلب بدم عثمان . ولو طلبوه من قاتله لعذرناهم ، ولكنهم يريدون عليا وانا أعلم الناس ببراءته » . قالت ذلك وبكت

فعجبت أم الفضل لقولها ، وشق عليها أمرها وخافت عليها العاقبة وتاقت لسماع الخبر فقالت : « ما الذى حدث بعد مجيئى ؟ »

فقصت العجوز عليهــا ما جرى فى العريش ، فأجفلت وصــاحت : « ويلاه لقد تقدمت الفتنة ، ليت عبد الله ابنى هنا . اذن لحملته الخبر الى على فصــاحت أســماء : « دعونى اذهب بالخبر ، دعونى أسر الى الجهاد دفاعا عن المتهم زورا . ان عليا ياقوم برىء من دم عثمان فكيف يطلبونه منه ؟ »

فقالت أم الفضـل : « دعى هذا الى ، فانى مرسلة رسولا الىعلى بكل ماوقع » . قالت ذلك ودعت خادما فجاءها برجل من جهينــة يدعى ظفر ، فاستأجرته على أن يحمل كتابها الى على بالخبر ، فركب الرجل هجينه وسار ، وأسماء تشيعه بنظرها وتود أن تكون على رحله

فلندعها ولنرجع الى المدينة لنرى ماذا جرى لمحمد

ودع محمد أسماء عند ركوبها الى مكة ، وعاد وفى نفسه شيء أقلقه لايدرى ماهو ، وكان قد خامره شيء من الخوف على أسماء أن تميل عنه الى الحسن بن على ، ولكنه كان يحبه كثيرا وقد ربيا معا فى حجر على . فقضى مسافة الطريق غارقا فى لجة الهواجس . ومما زاده قلقا ارساله أسماء على هذه الصورة وقد شغلته الغيرة قبل سفرها عن تقدير الامر حق قدره . فوقع فى حيرة لايدرى ما يجيب به الحسن اذا سأله عنها . وكيف يعتذر او ينتحل سببا لسفرها وشعر لساعته بوطأة الحب وشدة سلطانه ، فأجال نظره فى الطريق الذى سلكته اسماء وتلفت قلبه ، فحدثته نفسه أن يعرج على مكان يقضى فيه نهاره قبل الذهاب الى دار على مخافة أن ينم ظاهره عند لقاء الحسن عما فى باطنه . ولكنه لم يجد عذرا لتخلفه يومئذ والناس يتألبون جماعات ووحدانا من كل صوب ، ويؤمون منزل الامام على وهم بين آمل وخائف وناصر وناقم وقد علم محمد أن بعض الناس قد بايع عليا وهم يضمرون السوء

فقضى برهة تتقاذفه الهموم وهو يمشي فلم يشعر الا وهو بباب على ورأى الناس قد تكاثفوا حوله والخيل فى بستانه والجمال معقولة الى جذوع النخل والخدم والعبيد وقوف بينها . فذكر هول ما يشغل عليا وبنيه فى ذلك الحين من مهام الخلافة ، وأحب أن يشارك الحسن فى حمل بعض العبء الى أن تنتهى الازمة

فدخل الدار ومشى الى حيث تقيم امه وقد عزم على كشف سره لها لعلها تواسيه ، فدخل فرآها جالسة وحدها والهم باد على وجهها فهشت له فحياها ورأت فى وجهه انقباضا فابتدرته قائلة : « مالى أراك مشرد الذهن يا محمد ؟ »

قال يغالطها : « ليس فى نفسى شيء غير ما نحن فيه »

قالت : « اخائف انت على مصير هذه الخلافة ؟ »

قال : « لست بخائف ، ولكننى أرى المركب خشنا ، فان طلحة والزبير لم يبايعا الا كرها ، والكوفيون والبصريون على رأيهما ، فأخشى أن يدعوا الناس الى نقض البيعة »

قالت : « لاتخف فقد تم الامر لأبى الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشدون أزره فاذا احسنوا الرأى استقام له الامر باذن الله »

قال : « لا تغرنك كثرتهم وفيهم من يضمر غير ما يظهر . ليت عبد الله هنا (عبد الله بن عباس) فان له رأيا سديدا وهو ابن عم أمير المؤمنين »

قالت : « لعله لايزال فى مكة منذ أن ذهب بالحجيج اليها » . قال : « نعم »

قالت : « ولكن لنا فى المغيرة بن شعبة خير مشير ، وقد وقع الى انه

دخل على امير المؤمنين فى الصباح وما يزالان مختليين »

فقال : « ان المغيرة يا اماه من خيرة الصحابة أصحاب الراى والدهاء ، ولا يخفى عليك انه أحد دهاة العرب الاربعة »

فقالت : « ومن هم الثلاثة الآخرون »

قال : « معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه »

وما اتم محمد كلامه حتى سمع وقع اقدام عرف انها خطوات الحسن ، فبغت وقال : « هذا اخى الحسن ، فلعله يخبرنا بما دار بين الامام على والمغيرة »

قالت : « ادعه » . فخرج محمد ليدعوه فاذا هو قادم ، فابتدره محمد بالسلام ، فرد الحسن تحيته ولم يزد عليها . فخشى محمد أن يكون فى نفسه شيء ، فقال : « اهلا باخى ابن امير المؤمنين ، لقد كنا فى حديث الخلافه ، وترانا فى شوق لمعرفة مادار بين مولاى ابى الحسن والمغيرة »

فجلس الحسن على وسادة بالقرب من الباب ، وتشاغل باصلاح عمامته ولم ذيل ردائه ، وهز راسه ولم يجب

فازداد قلق محمد وظهر الاضطراب على وجهه فتقدم اليه والح عليه ان يطلعه على جلية الخبر وهو يحاذر ان يسمع منه لوما او عتابا بشأن اسماء ، فاذا به قد زفر زفرة وقال : « تسألنى عن المغيرة ان حديثه لذو شجون »

قال محمد : « وماذا عسى ان يكون ؟ » . قال : « ان المغيرة صاحب راى وحزم ، ولكن ابى لم يرض أن يعمل بما اشار به ، وقد سمعت ما قال وأعجبنى رايه ولكن امير المؤمنين راى غير ما راه »

فقال محمد وقد اطمأن من ناحية اسماء : « وماهو الراى الذى رآه ؟ »

قال : « انت تعلم ان بعض الناس بايعونا على دخل (يريد طلحة والزبير) وان أخشى ما نخشاه ليس من اهل المدينة ولا من أهل مكة . وانما من عمال الامصار فى مصر والشام والكوفة والبصرة ، واشد هؤلاء دهاء واكثرهم عداوة معاوية بن أبى سفيان فى الشام ، وهو كما تعلم ابن عم عثمان ، وكذلك ابن عامر فى البصرة وهو ابن خال عثمان » .

قال محمد : « نعم ، ولكن بماذا أشار المغيرة ؟ » . قال : « اشار على أبى بأن يبقى عمال عثمان هؤلاء على أعمالهم ليأمن ثورتهم ، ولنرى ما يكون بعد أن يستقيم لنا الامر ، فلما أصر ابى على رايه ، قال له : « اعزل من شئت واترك معاوية فان فيه جراة وهو فى أهل الشام ، ولك حجة فى اثباته ، وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام قبل عثمان » . فأقسم ابى لايستعملن معاوية يومين ، فخرج المغيرة ولم يزد حرفا »

فقال محمد : « أترى المغيرة مصيبا ؟ »

قال : « نعم انه رأى الصواب لأن سكوتنا عن معاوية ورفاقه يهدئهم حتى نرى ما تؤول اليه الحال »

فقالت أسماء ام محمد : « تمهل ريثما يأتى ابن اخى عبدالله بن عباس من مكة فان الامام يقدر رايه حق قدره »

قال الحسن : « لا اظن ابى يلين فقد آنست منه اصرارا شديدا ، فلنصبر عسى أن يحدث ابن عباس امرا » . قال ذلك وسكت هنيهة يفكر ثم انبسطت أسرته فجاة كأنه تذكر امرا سره وتبسم وقال : « ان شؤون الخلافة شغلتنى عن امر آخر كنت قد ذكرته لك تلميحا ، وكنت قد عزمت على ذكره لأبى اليوم فأمسكنى عن ذلك اشتغاله بالمغيرة وحديثه »

فأدرك محمد انه يريد خطبة أسماء . فكادت البغتة أن تظهر على وجهه ولكنه تجلد وقال : « وماذا عسى أن يكون ذلك الامر ؟ »

قال : « لا اظنك تجهل ما فى نفسى نحو أسماء ، تلك الفتاة الاموية التى نزلت ضيفة علينا » . ثم حول وجهه الى ام محمد وقال : « انها ياخالتى بارعة الجمال وفى وجهها مهابة يندر مثلها فى النساء »

فارتبك محمد فى أمره ولم يدر بماذا يجيب ، ولكنه تجلد وقال : « لماذا لم تبد رغبتك قبل سفرها ؟ » . فبغت الحسن وقال : « اين سافرت ؟ » . قال : « الى مكة فى صباح هذا اليوم »

قال : « وكيف ذلك ، وما الذى حملها على السفر ، ومن سافر بها وهى وحيدة ؟ »

قال : « سافرت مع عجوز من قرابتى ورجل من بنى الليث من اخوال اختى أم المؤمنين »

فقطب الحسن وجهه وقال : « وما الذى حملها على السفر ؟ »

قال : « سمعتها تذكر أنها تؤثر البعد عن المدينة فى اثناء هذا الاضطراب ، وطالما أرادت التعرف الى أم المؤمنين فأظنها ذهبت لتقضى عندها بضعة ايام ثم تعود »

فاطرق الحسن يفكر ، ثم قال : « لابأس من ذهابها الآن وسأنتهز فرصة يخلو فيها وجه ابى فاطلب منه ان يخطبها لى ، فاذا لم تكن قد عادت نبعث فى استقدامها » . قال ذلك وخرج

فبغت محمد وامتقع لونه ولحظت امه ذلك فيه فقالت : « لقد اهمك حديث الحسن ؟ » . فتنهد ولم يجب

فقالت : « مالك لا تجيب ؟ » . فتردد بين ان يكشف لها سره وبين

ان يظل على كتمانه ، ولكنه لم يعد يستطيع صبرا فقال : « لقد اهمنى الامر اكثر مما تظنين بكثير »

قالت : « ولمـــاذا ؟ » . قال : « ان الفتـــاة التى اشـــار اليها الحســن مخطوبة » . قالت : « ولمن ؟ »

قال : « لى » . قالت : « ماذا تقول ؟ » . قال : « هذا هو الصدق »

قالت : « وكيف يطلبها هو لنفســـه ؟ » . قال : « لأنه لايدرى من الامر شيئا »

قالت : « ولماذا لم تطلعنى على هذا من قبل ؟ »

قال : « كنت قد عزمت على ذلك وجئت بها اليك فلم أجدك »

قالت : « وما العمل الآن ؟ » . قال : « لا ادرى وساصبر » . ق ذلك وحرق أسنانه

قالت : « اتغضب أخاك الحسن من اجلهـــا ؟ » . قال : « معاذ فانت تعلمين حبى له ، ولكننى ســـارى ما ياتى به القدر » . ث وقد اخذ القلق منه مأخذا عظيما



عبد الله بن عباس

مرت أيام والحسن يترقب فرصة يخاطب فيها اباه فى شـــان اسماء فلم يتسن له ذلك لاشتغالهم جميعا فى ايفاد العمـــال وتقلب الاحوال . فان الامام عليا لم يهدأ له بال منذ ولى الخلافة . وكان اكثر عمال الامصار ناقمين عليه ، ولعله لو اطاع المغيرة لخفف شيئا من نقمتهم ، ولكنه اصر على ان يستبدل بهم عمالا من رجاله وموضع ثقته

وكان الحسن متهيبا مفاتحة ابيه فى امر الخطبـــة لئلا يخيل اليه انه نل بالحب عن الخـــلافة فبدا له أن ينتظر مجىء عبد الله بن عبـــاس طه فى الامر لما يعلم من دالته على ابيه . وذكر ذلك لمحمد بن ابى م يجبه ولكنه قلق واشتدت غيرته . فلما سمع محمد بمجىء عبد عباس اراد أن يشغله بحديث الخـــلافة عن السعى فى الخطبـــة ، اليه قبـــل أن يعلم الحسن بمجيئه وانبـــاه بما كان من حديث بن شعبة ، وما أشار به على الامام على ، الى ان قال : « قد كنا ار مجيئك لعلك تثنى الامام عن عزمه ، فقد أصر على خلع عمال ، وهم ناقمون ولهم انصار ، ومن بينهم معاوية »

ال عبد الله : « أصاب المغيرة والله ونعم الراى رايه »

ل محمد : « وهذا مانراه نحن جيما فما العمل ؟ »

ال : « ها أنذا ذاهب اليه الساعة » . قال ذلك ونهض وقد اهمـــه امر كثيرا لغيرته على الاسلام ولقرابته من الرسول ومن على

وكان ابن عبـــاس يناهز الاربعين من العمر ، جميـــل الوجه ، ابيض اللون مشربا صفرة ، جسيما فصيح اللسان . وكان اعلم الناس بالحديث والشعر وكلام العرب ، سديد الرأى ، عالما بتفسير القرآن وبكل علم من علوم تلك الايام ، لم يدرك احد من أهل زمانه ما ادركه . فلمـــا سمع كلام محمد اسرع الى عمامته وجبته وهرع الى منزل الامام على ومحمد يتبعه

ولما وصلا الى الدار رأيا المغيرة بن شعبة واقفا بباب حجرة الامام على يشـد نعاله فادركا انه كان عنده . فقال عبـــد الله لمحمد : « اتراه جاءه ثانية أم لعلها الزيارة التى ذكرت ؟ »

قال : « هذه غيرها ولا ادرى ما جاء به »

وبينما هما فى ذلك ، مر بهما الحسن فلما رأى عبد الله بغت ووقف وسلم عليه ودعاه الى حجرته وهو يريد أن يذكر له امر الخطبة ، فرآه فى شاغل آخر وقد أسرع الى حجرة على ، فدخل معه ومحمد فى أثرهما

□

فلما اقبل عبد الله على الامام حياه بتحية الخلافة قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » . وكانت أول مرة رآه فيها بعد خلافته . وكان على جاثيا وبين يديه مصحف فلما سمع تحية عبد الله أحسن ردها ورحب به وقال : « وعليك السلام يا ابن عم الرسول » . قال ذلك والانقباض ظاهر على وجهه كأنه كان فى جدال عنيف . فمشى عبد الله حتى جلس بجانبه ، وجلس الحسن ومحمد فى بعض جوانب الحجرة

فلما استقر بهم المقام قال ابن عباس : « رايت المغيرة خارجا من عندك وعهدى به ذو دهاء وسداد راى فهل أحدث حدثا ؟ »

قال على : « والله لقد أخلف ظنى فقد اشار على منذ أيام بأن أقر معاوية وسائر عمال عثمان على اعمالهم . وانهم هم الذين بعثوا فتنة اودت بعثمان وأخذوا يؤلبون الناس علينا . فخالفته فيما ذهب اليه . وابيت الا عزلهم ، فتقدم الى بأن أبقى معاوية على الشام ، فأقسمت لا أستعملنه يومين فخرج وهو يرى أن ستبدى الايام صحة ما رآه . ثم عاد اليوم فقال : (انى اشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذى رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به ، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان) . فحمدت له رجوعه الى الصواب »

قال ابن عباس : « يا ابن عم ، اترى المغيرة قد صدقك اليوم ؟ . اما انا فما اظنه والله الا قد نصحك فى الاولى وخدعك فى الثانية . ان معاوية واصحابه أهل دنيا . فمتى تثبتهم لا يبالون من ولى هذا الامر ، ومتى تعزلهم يقولون اخذ هذا الامر بغير شورى عثمان . ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام واهل العراق . وانى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك . ولهذا اشير بأن تثبت معاوية فاذا بايع فعلى أن أقلعه من منزله » . وكان ابن عباس يتكلم وعلى مطرق مقطب الوجه ، وقد اقلقه الامر كثيرا . واما الحسن ومحمد فكانا يسمعان كلام ابن عباس ويودان لو يقتنع الامام فيقر معاوية تجنبا للحرب . فلما فرغ ابن عباس من كلامه لبثا ينتظران مايقوله على فاذا هو لا يزال مطرقا عابسا ، والسكوت

بسود الحجرة ولايلبس احد ببنت شفة . ثم رفع على راسه ونظر الى ابن عباس ويده على سيفه وقال : « والله لا اعطيه الا السيف » . ثم رد يده الى لحيته وقال :

« وما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها »

فلما سمع ابن عباس قوله ورأى ما بدا على وجهه من امارات الغضب ، شق عليه الامر كأنه راى بأم راسه المركب الخشن الذى هم على بركوبه وما يتوقعه من سوء العقبى وكانت له دالة ووجاهة عنده فقال له : « انت رجل شجاع لست صاحب سياسة ولارأى فى الحرب . اما سمعت رسول الله (ص) يقول : (الحرب خدعة ؟) . أما والله لئن أطعتنى لأصدرنهم بعد ورد ، ولأتركنهم ينظرون فى دبر الامور لايعرفون ماكان وجهها فى غير نقصان عليك ولا اثم لك» . وما فرغ من كلامه حتى اندى العرق جسمه حميه وغيرة ، ولكنه لم يكد يفرغ حتى ابتدره على قائلا : « يا ابن عباس ، لست من هناتك ولا من هنات معاوية فى شيء »

قال ابن عباس : « اطعنى واغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك . فانك والله ان نهضت مع هؤلاء القوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا »

وكان ابن عباس يتكلم ولا تلوح على حركاته امارة الرضى . فلما فرغ من كلامه قال له على : « تشير على وأرى فاذا عصيتك فأطعنى »

فقال ابن عباس : « افعل . ان ايسر مالك عندى الطاعة »

فقال على « سر الى الشام فقد وليتكها »

قال ابن عباس : « ما هذا برأى فان معاوية رجل من بنى أمية . وهو ابن عم عثمان وعامله . ولست آمن ان يضرب عنقى نقمة لعثمان ، وان ادنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم على لقرابتى منك ، وان كل ماحمل عليك حمل على ، ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده » . فقطع على كلامه قائلا : « لا والله لا كان هذا ابدا »

فسكت ابن عباس ولبث برهة ثم استأذن وخرج . وخرج فى أثره الحسن ومحمد وكان على رؤوسهم الطير . اما على فأمر فى انفاذ عماله الى الامصار ، فبعث عثمان بن شهاب الى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس (اخا عبد الله) على اليمن ، وقيسا بن سعد الى مصر . وسهلا بن حنيف الى الشام

الفتنة والحرب

وقضى علي في ذلك اياما لايخلو مجلسه من الامراء يخوضون في شئون الخلافة ، فلم ير الحسن سبيلا الى مفاتحته في شأن أسماء ، وكان هو نفسه في شاغل بتلك الشئون. فلما فرغ علي من تنصيب العمال، وقل ورود الناس على بابه ، رأى الحسن أن يخاطبه في الامر ، وكان يطلع محمدا على ماينويه وهو لايعلم ما في نفسه من أمر أسماء ، وكان محمد اذا خاطبه الحسن في هذا حدثته نفسه أن يطلعه على مايكنه لها في قلبه ثم يمسك . فقضى اياما لايدرى ما يعمل ، وكان اذا ذكر له الحسن انه عزم على مخاطبة ابيه في الامر سكت أو نقل الحديث الى شيء آخر ، فلقى الحسن محمدا ذات يوم قاصدا الى المسجد وقال له : « أرى أمير المؤمنين قد فرغ من ارسال العمال الى الامصار ولا أرى أمير المؤمنين اصلح من هذه الساعة لأكلمه في شأن أسماء ، فأرجو منك أن تكون عونا لي في هذا »

فحار محمد في أمره لايدرى بم يجيبه فقد كان يتنازعه عاملان : حب أسماء ، وصداقة الحسن . فلبث لايبدي ولايعيد ثم حانت منه التفاتة الى ما بعد من سور المدينة فأخذ يحدق كأنه يرى شبحا قادما لم يتبينه ، ونظر الحسن ليرى هدف محمد في تحديقه فتراءى له هجان مقبل من بعيد

قال محمد : « كأني به رسول » . فقال : « ممن يكون يا ترى ؟ »

قال محمد وقد سر لتبديل الحديث : « اني والله ما رأيت رسولا مقبلا الا تشاءمت خيفة أن يأتينا بما يسوء »

فقال الحسن : « ومن أين ترى الرسول قادما ؟ »

قال : « يظهر لي انه من الشام فلعله رسول معاوية »

قال الحسن : « هيا نستقبله وسنرى ما هناك »

قال محمد : « هلم بنا فانه ان كان رسول معاوية فما جاء الا لحرب لا سلم ، لأن أمير المؤمنين كتب اليه منذ ثلاثة أشهر ولم يجب بعد » . ثم انطلقا ، وكان الرسول قد دخل باب المدينة ، فلما دنا منهما تفرسا فاذا هو رجل من بني عبس وعليه قيافة أهل الشام وقد التف بالعباءة

وتلثم وعلاه غبارالسفر، فلمادخلالمدينة اخرجمنجيبه صحيفةمختومة قبض عليها من اسفلها ورفعها والناس وراءه ينظرون اليها فاستوقفه محمد وقال له: « ممن أنت ؟ »

قال الرسول: « من معاوية بن ابى سفيان » . قال: « الى من ؟ » قال: « الى على ابن ابى طالب »

قال الحسن: « وماذا تحمل اليه ؟ » . قال: «هذا الكتاب» . فقال: « اذهب الى امير المؤمنين انه فى داره » . فانطلق الرسول وهما فى اثره وقد شغلا بما عسى أن يكون فى ذلك الكتاب ، ولولا حرمة امير المؤمنين لفضا الختم تلهفا على علم ما فيه

ووصل الرسول الى دار على ، فترجل واشتغل بعقلجله ، فسبقه محمد والحسن الى الخليفة وكان متكئا فى حجرته فاعلماه بقدوم الرسول فامر بادخاله اليه

فدخل وعلى جالس ، ومحمدوالحسنوغيرهما من الصحابة بين يديه، فتقدم الرسول فى غير تهيب ورفع الكتاب بيده ، فهم بعض الحاضرين بان يتناوله منه ، ولكنه ابى ان يسلمه لغير الامام على

فمد على يده وتناول الكتاب ، فقرأ على ظاهره : « من معاوية الى على» . ثم فضه والناس كأن على رؤوسهم الطير ، فلم يجد فيه شيئا فبغت وغضب ، والتفت الى الرسول وقال: « ما وراءك ؟ » . قال: « آمن انا ؟ »

قال: « نعم ان الرسولآمن» . قال: « تركت ورائى قوما لايرضون الا بالقود » . قال على: « ممن ؟ »

قال: « من خيط رقبتك . وتركت ورائى ستين الف شيخ ، يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد جعلوه على منبر دمشق »

فنظر على اليه وقال: « امنى يطلبون دم عثمان . اللهم انى ابرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا من يشاء الله » . قال ذلك وادار وجهه عن الرسول كانه لم يعد يستطيع أن يراه واشار اليه ان يخرج

قال: « الخرج وانا آمن » . قال: « وانت آمن » . فمشى الرجل يريد الخروج فاعترضه بعض رجال على وهموا بقتله ، فصاح فيهمعلى ومنعهم ، فنجا العبسى وهو لايكاد يصدق

واشار الامام الى الناس فخرجوا ، وخلا الى خاصته وفيهم اولاده ومحمد ابن ابى بكر ، وبعث الى عبد الله بن عباس ، وقال لهم: « قد سمعتم ما قاله معاوية فلم يبق ثمة بد من القتال فتهيأوا » . فقالوا

بصوت واحد : « انا معك أنى سرت، وما تنتدبنا اليه فانا طوع أمرك » .
فجند جندا عقد لواءه لابنه محمد بن الحنفية ، وجعل على ميمنته عبد الله بن عباس وعلى ميسرته عمرو بن سلمة . وتثاقل اهل المدينـة فى بادىء الامر ولكنهم أطاعوا اخيرا

وقضى على اياما يعد الجيش ويجند الجند ، ومحمد والحسن فى مقدمة العاملين معه . ولكنه لم يندب محمدا للقتال فصغرت نفسـه فى عينه لعلمه انه اولى بالمسير الى الحرب ، وكان يذكر اسماء فيود لو يبقى ليعلم مايؤول اليه أمرها ، ثم ترجع اليه حماسته ليقوم على خدمة على ويحمل معه عبء القتال

ذهب محمد بن ابى بكر الى على ، فرآه وحده فى غرفته ، ورأى فى يده رقعة يقرؤها ويعيد تلاوتها ، وقد أخذ القلق منه ماخذا عظيما . فتهيب الدخول عليه وظل واقفا عند الباب مترددا فلمحه على فناداه فدخل وحيى ، فرد على التحية وهو مقطب الوجه فلم يجرؤ محمد أن يبداه بالكلام وتربص عساه أن يسمع منه خبرا جديدا . وظل على يذرع الحجرة حتى وقف الى نافذة من نوافذها واجال نظره فى الأفق وهو غارق فى بحار التفكير ، ثم تحول الى محمد بغتـة وقال : « اين الحسن ؟ »

قال : « لعله فى المسجد فهل من امر اقوم به ؟ »

قال : « سأطلعك على ما حدث عما قليل . وبماذا جئت انت ، انى ارى فى وجهك خبرا ؟ »

قال : « انما جئت التمس من ابى الحسن ان يساوينى باهل الثقة من رجاله »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى انك استنفرت الناس ، وامرت من امرت للجهاد ، وتركتنى وانا اولى منهم به »

فتبسم الامام على تبسما يشوبه قلق وقال : « بورك فيك يا ابن اول الخلفاء ، لانت عندى بمنزلة ولدى ولكننى امرت سميك محمدا ابن الحنفية فى هذه الحملة واستبقيتك انت لاخرى »

قال : «انى طوع بنانك ، واراني مكلفا بعبء هذه الحرب قبل سواى»
قال : « لا تستعجل الأمر يا بنى ، فلن تعدم طريقا تسير فيه الى حرب أخرى ، فقد كثرت اليها الطرق »

فلمح محمد من وراء ذلك امرا مكتوما فقال : « وماذا يعنى مولاى بالحرب الاخرى وهل حدث ما يدعو الى حرب ؟ »

فألقى على الرقعة اليه وقال : « اقرأ هذه فقد اتتنى الآن بالخبر اليقين »

فتناولها محمد ونظر فيها فاذا هى كتاب ام الفضل من مكة تنبىء الامام عليا باجتماع طلحة والزبير وأم المؤمنين على الطلب بدم عثمان وانهم تهيأوا للمسير الى البصرة

فبهت محمد وتلا الرقعة مثنى وثلاث . وتحول على الى مصحف على منضدة أمامه فتناوله وجعل يقلب صفحاته

وهم محمد أن يتكلم فرآه يقلب صفحات القرآن فلبث صامتا ، وقد هاله ما أحاط بهذا الخليفة من البلاء وتذكر أخته وأسماء عندها

ورفع على رأسه ونظر الى محمد وقال له : « أرأيت ما فعلت بنا اختك ؟ »

فقال محمد : « انى أعجب من عملها ولا اكاد اصدق انها تقدم على هذا . فما الذى حملهم جميعا على الانتقاض ؟ »

قال على : « أتسألنى يا محمد عن السبب وقد أنبأتكم بهذه الاحداث قبل وقوعها . كم قلت لكم : دعوا عثمان وشأنه لا تقتلوه لأن قتله سيؤدى الى الفتنة ، لطمع بعضهم فى الخلافة ، فلو ظل عثمان حيا لم تكن ثمة ما يبعث على هـذه الحروب ، وقد بايعونى وأنا أعلم أنهـم يضمرون غير ما يظهرون ، فان طلحة والزبير يريدها كل منهما لنفسه دون سواه ، فهما فى انقسام عليها . وسترى اذا كتب لهما النصر ان الحرب ستقوم بينهما حتى يفنى أحدهما الآخر ويقتل الألوف من المسلمين ؛ ولو تيقنت ان خلعى من الخلافة يخمد الفتنة لتنازلت عنها اليوم . ولكنها تصبح بعدى فوضى كل منهم يتطلبها لنفسه . ناهيك بمعاوية فى الشام وما يجول فى خاطره من الطمع فيها ، ولا يغرنك ما يدعيه من الثأر لدم عثمان ، لأنه لو أهمه لنصره قبل أن يقتل . ولكنه اتخذها ذريعة الى التماس الخـلافة لنفسه ، على علمه انى أولى الناس بها . فالغيرة على الاسلام تدعونى الى الدفاع عن خلافتى لعلهم يجمعون على بيعتى فترقد الفتنة . وأما خروجها من يدى طوعا او كرها فانه يدعو الى فتنـة عظمى أخشى أن تقضى على الاسلام والعياذ بالله »

وكان يتكلم والعرق يقطر من جبينه وخديه على لحيتـه ، وقد احمرت عيناه واغرورقتا بالدمع . وتجلت فى وجهه ملامح تشف عما قام فى نفسه من الغيرة على الاسـلام ، فازداد مهـابة حتى لم يعـد محمد يستطيع النظر اليه تهيبا من غضبه وخجلا من نفسه لأنه كان فى جملة الذين رأوا قتل عثمان ، فارتج عليه ولبث صامتا

وكأنه اراد ان يعتذر لأخته فقال : « يلوح لى يا مولاى ان اختى لم تقم للأمر الا بتحريض طلحة والزبير ، وقد خرجا من المدينة غاضبين وانى لأرجو ان لقيتها أن احولها عن عزمها . ولكننى لم ار وجه الحكمة فى مسيرهم الى البصرة دون سواها »

قال : « اظنهم راوا اهل المدينة بايعونى فاستنهضوا اهل مكة على نقض البيعة وساروا يفعلون مثل ذلك فى البصرة والكوفة »

قال محمد : « وهل سالت الرسول عن تفصل الأمر ؟ »

قال : « لم اساله الا قليلا »

فقال : « أتأذن لى ان استقصى منه ؟ »

قال : « لا اراه يعلم شيئا كثيرا ، وارى ان تسير الى مكة لتستطلع سر الأمر بنفسك ، وانت اجدر الناس بذلك وأختك ام المؤمنين فى حملة القائمين به »

فسر محمد بهذه المهمة سرورا عظيما لأنه يخدم بها الاسلام ويرضى الامام ويستطلع حال اسماء

فأجاب قائلا : « لبيك يا مولاى وعلى خيرة الله وارجو ان أحول اختى عن عزمها فقد يكون طلحة والزبير هما اللذان حرضاها عليه . وهل أكتم مسيرى ؟ »

قال : « لا أرى أن يعلم به أحد »

قال : « هل تأذن لى ان ارى الرسول الذى حمل الكتاب اليك لأساله شيئا ؟ »

قال : « انه فى دار الاضياف »

فخرج محمد وسار الى دار الأضياف ، فلقى الرسول فعرفه فسأله عن عجوزه هل لقيها فى مكة ؟ فاجاب بانه رآها يوم سفره عند ام الفضل ومعها فتاة مريضة

فقال محمد : « وهل تعرف الفتاة ؟ »

قال : « لا اعرفها فانها غريبة الدار ولكننى علمت انهـا جاءت مع العجوز عند ام المؤمنين ، ثم انتقلت الى بيت ام الفضل ورأيتها تشكو من حمى شديدة »

فأحس محمد بنار تلك الحمى فى أحشائه وخاف ان تكون اسماء قد اصيبت بسوء ، فأصبح يدفعه الى الاسراع فى الرحيل دافعان : خدمة امير المؤمنين ، والبحث عن اسماء

فودع عليا وخرج لساعته وركب هجينا واصطحب خادما من السبئية وركب قاصدا الى مكة يود لو يطير اليها على اجنحة النسيم . فبات ليلته فى قباء ، فتذكر اول مرة رأى فيها اسماء تندب امها ، واصبح قبل الفجر على هجينه يطوي السهل والوعر وهو لا يصدق انه يصل الى مكة ويرى اسماء على قيد الحياة

وكان كلما اقترب من مكة تعاظم الامر لديه ، وثارت فيه الحمية الاسلامية والغيرة على الامام على ، وهان عليه امر الحب وعوامله . فلم يخل باله من هذه الهواجس لحظة ، وتذكر نصح اسماء وما تنبات به من عواقب الفتنة ، وكم اشارت على الناس بالكف عن عثمان منادية ببراءة ساحته ، فعظمت فى عينيه وازداد اعجابا بتعقلها ودقة نظرها ، وايقن انهم لو انصاعوا الى رأيها لكانوا تجنبوا هذه الحروب

قضى طريقه كله فى مثل هذه الخواطر ، وكان يستحث جمله لا يلتفت يمنة ولا يسرة مخافة أن يضيع عليه الوقت ، فأمسى وهو على بضعة أميال من مكة فشق عليه المبيت خارجها وصمم على مواصلة السير حتى يدخلها ولو ليلا . فأشار عليه خادمه أن يستريح هنيهة ويريح الجمل ريثما يطلع القمر فيسيران على نوره فاستحسن الرأى ونزلا بمكان رأيا فيه بيتا عند بابه شيخ توسد حصيرا من سعف النخل وامامه جرار واكواب من الخشب يسقى بها من يستسقيه فى تلك الصحراء

فسلم على الشيخ وحياه ، فرحب به ونادى ابنة له وعيالا ليقدموا لضيفهم مايحتاج اليه من الماء أو العلف للجمال . فصعد محمد الى رابية خلا فيها الى نفسه وقد غابت الشمس فأجال نظره الى مغيبها فى الافق وكان الجو صافيا وقد ظهر الشفق بالوانه من خلال اغصان الأشجار المبعثرة على الآكام . وكان الجو قد هدأ فلم يعد النسيم يهب الا عليلا واوت الطيور الى اعشاشها الا الخفاش فانه خرج يطير . فاتكأ محمد على بساط فرشه له خادمه وعيناه شاخصتان الى الافق يراقب تلونه ، فما زالت الوانه تتحول من الزهو الى الكمود حتى خيم الظلام ، فأوقد الشيخ نارا يهتدى بها المارة الى ذلك المستقى . وظل محمد غارقا فى هواجسه حتى غلب وجدانه فنبهه ضب مر عند قدميه فوقف وقد لفت نظره من الافق اشباح تتراءى بينه وبين السماء فتفرس فيها فاذا هى بضعة جمال على احدها هودج وعلى سائرها اناس قد حجب البعد هيئتهم ، واسرعوا فى المسير فخيل اليه انهم خارجون من مكة يريدون المدينة . فلما تواروا عن بصره ولم ير احدا فى اثرهم علم انهم ليسوا من الطلائع . ولكنه عجب من خروجهم

من مكة فى ذلك الليل واسراعهم بالسير فى غير الطريق العام كأنهم سائرون خلسة ، وتمنى أن يعلم أمرهم . ولكن الظلام حجبهم عنه فعاد الى هواجسه

ولم تمض هنيهة حتى طلع القمر من وراء تلك الأكمة كأنه رقيب اطل للكشف عن لصوص فى الظلام فلما رأوا وجهه بادروا الى الفرار الا من كان منهم قريبا ولم يستطع فرارا فاختبأ وراء التلال وفى أعماق الأودية ثم لحق برفاقه وتلاشى . وكان القمر ساعتئذ دون البدر ، وقد ابيض وجهه وسطع نوره فحرك ما فى نفس محمد من الشجون فنادى خادمه فهيأ الهجن وودع الشيخ وركب قاصدا الى مكة

□

ولم يسر ساعة حتى اشرف على مكة وهى فى منبسط من الارض تحدق بها جبال من كل ناحية ، فصعد الى أكمة واطل منها على ضوء القمر ، فكانت الكعبة أول ما لفت نظره . وكان يتوقع أن يرى مضارب او جنودا فى مكة او حولها فلم ير شيئا ، فواصل السير يريد منزل أخته ام المؤمنين ، فمر بالأسواق فلم يجد ما كان ينتظره من الجلبة والازدحام حتى بلغ دار أخته فترجل عند بابها وقرعه فاطل عليه عبد حبشى عرف من صوته انه من عبيد ام المؤمنين فناداه باسمه ففتح له الباب فدخل فراى المنزل خاليا فسأله عن أم المؤمنين فقال : « انها خرجت من مكة بالامس »

قال : « والى اين ؟ » . قال : « الم تسمع بما اجمعوا عليه ؟ »

قال : « هل ساروا الى البصرة ؟ » . قال : « نعم »

فسأله عمن سار معها فأنباه ، فاستعاذ بالله وتكدر لوصوله بعد سفرهم ، واراد العبد أن يحل جمله ويهيىء له الطعام فقال : « لاتفعل انى خارج وقد اعود » . وامر خادمه أن يمكث هناك حتى يرجع وخرج وهو بلباس السفر قاصدا الى بيت أم الفضل وهو يكاد يتعثر بأذياله لسرعة مشيه فوصل الى منزلها فرآه مغلقا وقد اطفئت مصابيحه ، فظن اهله نياما فتردد فى أن يوقظهم او يصبر الى الغد ولكن شوقه الى رؤية اسماء هون عليه ايقاظهم . فدنا من الباب وامسك بحلقته وشدها فراى الباب موصدا فقرعه قرعا شديدا فأجابه البستانى . فقال : « افتح » . فلما فتح سأله عن أم الفضل فقال « انها ذهبت الى فراشها واظنها لم تنم »

قال : « قل لها ان ابن أختك محمدا بالباب »

فلما علم البستاني انه ابن أبي بكر هرول الى مصباح اناره ، ودعا محمدا الى الجلوس على المصطبة ، ودخل الى أم الفضل فأخبرها فأسرعت اليه وقد علتها البغتة وصاحت قبل أن يحييها : « ما الذي جاء بك يا محمد . وأين كنت ؟ »

فعجب للهفتها وقال : « اني قادم من المدينة . أين أسماء ؟ »

قالت : « كيف تسألني عنها وقد بعثت في استقدامها ؟ »

قال : « الى أين ؟ » . قالت ألم تبعث اليها كتابا تستقدمها به

فقال : « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت : « رأيت رسولك بأم عيني ومعه كتابك دفعه اليها عند العصر وكانت لا تزال ضعيفة لا تقوى على السفر فلم تصبر الى الغد وشدت رحلها وسافرت »

قال : « ماذا تقولين ؟ . هل سافرت أسماء ؟ لقد زوروا الكتاب على لساني . من جرؤ أن يفعل ذلك . من هو النذل الذي اقدم على هذه الجريمة ؟ »

فضربت أم الفضل يدا بيد وصاحت : « ماذا تقول يا محمد ؟ »

فأخذ محمد ولم يجب ثم قال : « في اى الطرق سارت ؟ »

قالت : « سارت في هذا الطريق المؤدى الى المدينة »

فتذكر محمد الاشباح التي رآها خارج مكة ، وقال : « لقد لقيتها والله في طريقي ، يا ليتني اعترضت ذلك الركب وهي معهم . ولو كانت في عافيتها لما خفت عليها بأسا ولكنها مريضة فأخشي ان أحرجوها أن تموت غيظا . لاحول ولا قوة بالله » . وصمت برهة يفكر فلم يستطع ادراك سر الامر ثم هب من مكانه وقال : « أستودعك الله » . وخرج

قالت : « تمهل يامحمد » . قال : « ان الوقت ثمين ، دعيني أتعقب الركب الذين رأيتهم في طريقي لعلي أظفر بها معهم » . ولم يكد يخرج من الباب حتى وقف بغتة كأن شيئا اعترضه فعاد الى أم الفضل وسألها عن الحملة ووجهة مسيرها ، فقصت عليه خبرها فوعى ذلك في ذهنه وخرج مسرعا يلتمس الطريق الذي رأى الركب سائرين فيه

فمر بخادمه في منزل أخته فرآه غارقا في نومه من شدة التعب وقد ارسل الجمال الى المربط للشرب والعلف، فأيقظه وامره أن يتهيأ للرجوع فنهض وعيناه لاتنفتحان من النعاس . وعلم اهل المنزل بمجيء محمد فجاءه قيم الدار يدعوه الى الطعام فاعتذر بأنه لايستطيع المكث ، ولما ألح عليه قيم الدار واظهر له أن الجمال تحتاج الى الراحة اقتنع واكل قليلا مما اعدوه وهو يحث الخادم للتأهب للمسير . وما لبث أن ركب وسار

على أسرع مايكون . وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو فالتمس الطريق الذى ظن ان الركب ساروا فيه ، فقضى برهة لايتكلم ولايسمع صوتا الا جعجعة الجمال . وانتصف الليل والخادم يتوقع أن يأمره بالنزول للمبيت فلم ير الا حثا على الاسراع ، ثم رآه يسلك طريقا غير الذى جاءوا فيه فنبهه الى ذلك مخافة أن يكون قدضل السبيل، فأجابه بانه يعرف الطرق ولايحتاج الى تنبيه ، فسكت وظل سائرا حتى بلغا مكانا يتشعب فيه الطريق الى شعبتين احداهما تتصل بطريق المدينة والاخرى تنتهى الى طريق البصرة ، فوقفا هناك صامتين

□

لم يجرؤ الخادم أن يستفهم من محمد عما يريد ، وان كان قد رابه قلقه وغضبه . فلما وقفا فى مفترق الطرق وكان الرجل من النباهة والذكاء على جانب عظيم عارفا بالاسفار خبيرا بمسالك البر حاذقا فى قيافة الاثر ، تشجع وساله : « هل من خدمة أقدمها لمولاى ؟ »

وكأن محمدا افاق من سبات ، فانتبه وتذكر مهارة خادمه فى قص الأثر فقال فى نفسه : « لعله ينفعنا »

وكان الخادم كهلا عركه الدهر ، قضى معظم ايامه فى الاسفار وتحمل مشاقها ، وكان طويل القامة سريع الحركة لايبالى بالتعب ولا يخاف الموت فقال له محمد : « هل لك فى قيافة الاثر يامسعود ؟ »

قال : « انى من امهر القائفين يا مولاى »

قال : « اترى على الرمل آثرا لمشاة أو فرسان ؟ وهل تستطيع تحقق ذلك على ضوء القمر ؟ »

قال : « نعم يا مولاى » . ونزل عن راحلته وجعل يتفرس فى رمال الطريق كانه يقرأ كتابا ، ومحمد بالقرب منه يراقب حركاته ، فرآه يتنقل بخفة ولباقة فلا يضع قدمه الا حيث يرى انها لا تفسد اثرا سابقا ، وما زال يروح ويجيء وهو يتفرس ويعد ويحسب ويقيس باشباره وأصابعه ويراقب جهة الاقدام أو الخفاف أو الحوافر ، ومحمد يعجب لما يبدو من خفته وحذقه حتى كاد يمل الانتظار ، وأدرك مسعود قلقه فقال وهو لايزال يتفرس فى الرمال : « لا تضجر يامولاى من طول الانتظار فانى أرى ارتباكا فى الركب الذين مروا من هذا المكان وكأنهم وقفوا فيه برهة يروحون ويجيئون وربما تضاربوا وتقاتلوا ، فاصبر قليلا ان الله مع الصابرين» . وعاد مسعود الىعمله وهويجلس القرفصاء ويحنى رأسه يتفرس فى الرمال حتى يكاد يلامس وجهه

الارض . وقضى فى ذلك ساعة ومحمدكانه واقف على الجمر، وربما خيل اليه لعظم قلقه ان الليــل قد انقضى . وفيما هو فى ذلك رأى مسعودا وقد انتصب بغتة وتحدب وتمطى كانه تعب من القرفصــاء والانحناء ومشى اليه ، فتقدم محمد نحوه وقال : « ماذا رأيت ياصاح ؟ »

قال : « ان الآثار تشابهت على لاختلاطها ومع هــذا علمت انها آثار قافلة صغيرة مؤلفة من بضعة جمال بينها جملان يسيران متواليين كأنهما يحملان هودجا ، ومعهما مشاة من الرجال اكثرهم يحملون رماحا لأنى أرى آثار كعابها بجانب الاقدام . ويظهر ان القوم وقفوا هنا وترددوا فى المسير واختل نظامهم ، وقد يكونون تخاصــموا أو تقاتلوا يدلك على ذلك ما فى آثاراقدامهم من الارتباك مع كثرة الابعار المتجمعة . ثم بدا لى انهم اتفقوا أخيرا على سلوك هذا الطريق »

قال محمــد : « والى أين يؤدى ؟ » . قال : « يؤدى الى البصرة او الكوفة »

فسكت محمــد وقد رجح لديه انهم هم الركب الذين رآهم فى ذلك الليل عن بعد ، فأعمل فكره وحدثته نفسه أن يتبع الآثار ولكنه خاف أن يشغله ذلك عن المهمة التى جاء بها الى مكة . فوقف صامتا يتردد بين أن يطلع مسعودا على سر الامر وبين أن يظل على كتمانه ، فتحير فى أمره ثم ســأله بغتة : « وما ظنك يامســعود بالزمن الذى مر على مسيرهم ؟ »

قال : « اظنهم مروا فى أوائل الليل منذ اربع ساعات او خمس، وهم سائرون على عجل »

فقال : « وهل تظننا ندركهم اذا اقتفينا اثرهم ؟ »

قال : « اذا ظلوا هم على مسيرهم لا اخالنــا ندركهم قبل يومين او ثلاثة . قال ذلك وقد مل من تكتم محمد الغرض من هذا البحث ، فأراد استطلاع السر فقال : « هل يرى مولاى أن يطلعنى على ما أهمــه من هذا الركب لعلى استطيع أن أحسن خدمته ؟ »

قال : « يهمنى يامســعود من هــذا الركب أمر كبير . هل تعرف خادمتنا العجوز التى كانت فى المدينة ؟ » . قال : « نعم اعرفها »

قال : « انها جاءت مع فتــاة اموية الى مكة وأقامت عنــد أختى أم المؤمنين ، فلمــا أجمع أهل مكة على المسير الى البصرة جاءهمــا أناس بكتاب مزور على لسانى يدعونهما الى المدينة ، فسارتا معهم فى غروب هذا اليوم ، ولا أدرى من تجرأ على هــذا الفعل ، ولا الى أين ســاروا بهما ، ولكن يظهرمما بينته قيافتــك انهم هم الركب الذين مروا بهذا المكان »

فقال مسعود : « هل ترى أن أقتفي آثارهم وآتيك بالخبر واذا استطعت انقاذهما فعلت »

فاستحسن محمد رايه واثنى على غيرته واوصاه بان يحتاط لنفسه وحثه على الاسراع وودعه وركب هجينه ويمم شطر المدينة

□

اما الامام علي فانه خلا الى نفسه بعد خروج محمد من عنده ، وفكر فيما هم فيه ، فرأى من الحزم ان يحول عزمه عن الشام الى البصرة ، فاستشار ابن عباس وغيره من كبار الصحابة فوافقوه على ذلك ، فدعا وجوه أهل المدينة وخطب فيهم ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « ان آخر هذا الامر لايصلح الا بما صلح به اوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح امركم » . ولكنه رأى تثاقلامنهم وقدكان يتوقع تلبية ونهضة ، فلم يقلل ذلك شيئا من عزيمته . على ان جماعة من الصحابة تقدموا لنصرته واستحثوا الناس فعادوا الى نصرته فعبأ التعبئة التى أعدها لأهل الشام آخرربيع الثاني سنة ست وثلاثين، وانضم اليه من نشط من الكوفيين . وبينا هو فى تأهبه اذ أقبل محمد بن ابى بكر وانبأه بما كان من خروج عائشة وطلحة والزبير ومن معهم الى البصرة فعجل بالمسير ، وكان الناس يتوقعون ان يرسل الحملة ويبقى هو فى المدينة حفظا لمكانته فيها ، فلما رأوه ركب فى مقدمة الحملة تقدم اليه عبد الله ابن سلام فاخذ بعنانه وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله ان خرجت منها لن يعود اليها سلطان المسلمين »

فقال : « لابد من خروجي »

فتكاملت الحملة واجتمعت فى الربذة على ثلاثة أميال من المدينة ، وتاهبوا للخروج ومحمد والحسن معهم . وكان الحسن لانهماكه بمهام الخلافة ربما مرت أسماء فى ذهنه فيصبر نفسه الى ما بعد ما هو فيه

واستبطأ محمدخادمه وهولايدري ماصار اليه ، فقلقعليه ولكنه سر لسيره هو فى الحملة لعله يعلم شيئا عن اسماء

ولما اجتمع جند علي فى الربذة جاءه رجال من طي واسد وانضموا الىجنده فاشتد ازره ، على ان الحسن لم يكن راضيا عنخروج ابيه فى تلك الحملة فلما رآه عازما على ذلك قال له : « لقد نصحتك فعصيتني فستقتل غدا ، ولا ناصر لك »

فقال له علي : « انك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذى نصحتني فعصتك ؟ »

قال : « نصحتك يوم أحيط بعثمان ان تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم نصحتك يوم قتل الا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت علي ، ونصحتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد ، كان على يد غيرك . . فعصيتني في ذلك كله»

فقال : « أي بني أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان والله لقد احيط بنا كما أحيط به . وأما قولك لاتبايع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر امر أهل المدينة ، وكرهنا ان يضيع هذا الامر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحدا أحق بهذا الامر مني ، فبايع الناس أبا بكر الصديق فبايعته ، ثم ان ابا بكر انتقل الى رحمه الله وما أرى أحدا أحق بهذا الامر مني . فبايع الناس عمر فبايعته . ثم ان عمر انتقل الى رحمة الله وما أرى أحدا أحق بهذا الامر مني ، فجعلني سهما من ستة أسهم ، فبايع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين ، فأنا مقاتل كل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لي بما قد لزمني ؟ أو من تريدني ؟ اتريد أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال ثبت ههنا حتى يحل عرقوباها ؟ واذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الامر ويعنيني ، فمن ينظر فيه ؟ . فكف عنك يا بني »

وفي الربذة أعد علي بن ابي طالب حملته . فجعل ابنه محمدا بن الحنفية صاحب الراية ، كما كان الشأن عند عزمهم على غزو الشام ، وأعدوا لعلي ناقة حمراء يركبها وفرسا كميتا



أسمـــاء فى الأسر

وكان محمد بن ابى بكر فى شغل شاغل من امر الحرب والاســتعداد لها ، ولكنه كلما خلا الى نفســه لحظة ذكر اسماء ، وكلما راى قادما من سفر ظنه مسعودا ، فلما ابطأ مسعود فى القدوم خاف أن تكون أسماء اصيبت بسوء ، وكلما تصور ذلك زاد قلقه واقشعر بدنه ، وود لو أنه يذهب فى مهمة الى البصرة او الـكوفة لعله يلقاها او يســمع بخبرها فيطمئن قلبه

فبات ذات ليلة فى خيمته وقد تسلط عليه القلق لما هم فيــه من النصرة للامام على وما يتوقعونه من البــلاء . فعظم عليــه الامر وأرق ورأى أن يلتمس الذهاب بنفســه الى البصرة يستنهض اهلهــا لنصرة الامام ، وعزم على أن يبكر فى الصباح لمخاطبة الامام فى ذلك . وانه لفى هــذا اذ سمع صوتا خارج الخيمة يشبه صــوت مسعود ، فهب من فراشــه وناداه ، فجاءه ودخل عليــه فى ثيــاب السفر ، ودخلت فى اثره امراة لم يعرفها محمد فى بادىء الامر لضعف نور المصباح ، ولــكنه ما لبث أن تبين أنها العجوز فبغت وتذكر أســماء فقال : « ما وراءك ياخالة ، أين أسماء ؟ »

قالت : « أظنها الآن فى البصرة أو فى الكوفة او لا ادرى أين هى »

قال : « وكيف تركتها وجئت وحدك ؟ » . قالت : « هى أمرتنى أن اجيء ، وسأقص عليك نبأها بعد أن استريح » . قالت ذلك وتنهدت وقد أضناها التعب ، فسأل محمد مسعودا : « اين لقيتها وما الذى دعا الى هذه الغيبة ؟ »

قال : « طال على الامد فى البحث عن الركب ، وكأنهم غيروا طريقهم وتعرجوا فى مسيرهم ، فتشابهت على سبلهم فقضيت اياما استقصى حتى كدت ادرك البصرة ، ورايت جيش أم المؤمنــين عن بعــد ، ثم تحولت الى طريق آخر فعثرت على هذه الخالة سائرة وحدها ، فسررت بلقياها ، وسألتها عن أسماء ومكانها ، فقالت : « أن الركب ساروا بها الى حيث لا ندرى . وان أسماء بعثتها اليك برسالة لا أدرى ما فيها ، وكنت عازما على مواصلة البحث عنها فمنعتنى ، فجئت بها اليك »

فعجب محمد لذلك والتفت الى العجوز وقال : « قصى علينـا الخبر ياخالة من أوله الى آخره »

فجلست واخذت فى سرد الحديث فقالت : « هل اقص خبرنا منـذ ودعتنا فى المدينة وسرنا نحن الى مكة ؟ »

قال : « سمعت هذا من خالتى أم الفضل ، ولـكننى اريد ان أعلم كيف خرجتم من مكة ؟ »

قالت : « كانت أسماء مريضة عند ام الفضل وهى على مثل الجمر فى انتظار اشارة منك للانتقال الى المدينة لأنها اصـبحت بعد ما رأت من عزم أهل مكة على طلب دم عثمان لا تستطيع الاقامة بهـا . وكانت مع ضعفها كلما ذكرت عليا والحرب والانتصار له تتشدد وتتقوى حتى خيل الى انها كانت تشتاق النزول الى سـاحة الوغى دفاعا عن الامام على لقوة ايمانها ببراءته من دم عثمان . وكانت كلما ذكرت ذلك تبكى وتحرق اسنانها غيظا لقعودنا فى مكة بالرغم منها . وعظم الامر لديهـا يوم خرجت أختك ورجالها من مكة يريدون البصرة لطلب دم عثمان ، فانها أصبحت فى ذلك اليوم على اشدها لفرط ماهاج من عواطفها رغبة فى المسير الى المدينـة ، وانما كان يقعدها قولك لها يوم وداعهـا انك ستبعث اليها من يستقدمها ، فبعد سفر ام المؤمنين بيوم أو يومين ، جاءنا رسـول بكتاب زعم انه منك . ولم تكد اسماء تتم قراءته حتى هبت من فراشها وقد اشرق وجهها وابرقت اسرتها وقالت : « هيا بنا ياخالة الى المدينة فان محمدا بعث من يحملنا اليه . فنظرت الى الرسول فلم اذكر انى أعرفه فقلت له : أين الجمال والاحمال ؟ . قال : هى خارج المدينـة وقد سرحنـاها للراحة . فلم يرق لى كلامه لأنى لا أعرفه ، وكانت خالتك أم الفضل جالسة فسألتها فقالت : انها لا تعرفه أيضا ، فخلوت بأسـماء وحذرتها من المسـير مع قوم لاتعرفهم . فأبت الا الركوب وقالت : انها لا تبالى من كانوا فانما غرضـها الخروج من ذلك السجن . فأطعتهـا وخرجنا والرجل يسير أمامنـا وأسماء لا تزال ضعيفة من عقبى الحمى ، وكنت قبل خروجنا من البيت قد عرضت عليها ان يذهب الرسول فيأتينا بالجمال الى البيت فنركب من هناك ، ولكنها لم تستطع صبرا وأبت الا المسير حالا ، فوصلنا الى المكان الذى اشار اليه الرسول ، فرأينا هودجا على جلين وجـالا أخرى وبضعة رجال لم اعرف أحدا منهم ، فخامرنى الريب ونبهت أسـماء الى ذلك فلم تنتبه ، كأن رغبتها فى المسـير اليك أسكرتها وأعمت بصـيرتها ، فركبنا والخـدم فى ركابنـا حتى أتينا مكانا تتشعب فيـه الطريق الى شعبتين ، وهناك رأينا أناسا مسلحين ينتظروننا ، وفيهم شاب بلباس

ثمين كانه سيدهم ، فلما وصلنا الى المفرق ، وقفت جمالنا ودنا الرجال برماحهم فتحققنا وقوع الخيانة . وكان الليل قد اسدل نقابه فلم نعرف أحداً من هؤلاء ، فلما رأيناهم تحولوا عن طريق المدينة الى طريق البصرة قلت : (الى اين انتم ذاهبون بنا ؟) . فقالوا : (الى حيث نشاء) . فهالنى جفاء الجواب ونظرت الى اسماء على ضوء القمر فاذا هي ثابتة الجأش على ضعفها ، وقد كنا فى الهودج معا . فحالما تحولنا الى ذلك الطريق ، أنزلونى من الهودج وحملوه على جمل واحد واركبونى الجمل الآخر فاطعت مرغمة »

وكانت العجوز تتكلم ومحمد مصغ يتطاول بعنقه لسماع تتمة الحديث وقد ظهر القلق على وجهه ، فاستأنفت العجوز حديثها وقالت : « وما زلنا سائرين مسرعين طول الليل حتى أصبحنا وتبينت الوجوه وتفرست جيداً فرأيت بينهم رجلا تذكرت انى رأيته فى خدم بيت اختك أم المؤمنين ، وتأملت الشاب ذا اللباس الفاخر فاذا هو ذو جمال وقيافة فظننته سيدهم ، ولم أعرف من هو ولكننى عرفت أن اسمه سعيد ، ويلوح عليه انه من أهل البصرة

« ولم تكد جمالنا تستريح حتى دنا الرجل من هودج اسماء وانا أنظر اليه من بعيد واسمع شيئاً مما يقول ففهمت انه يسألها عن حالها وهل لا تزال تفضل المدينة وأهلها ، ورأيت منه احتفاء عظيما بها ، اذ أمر بطعام فاخر قدمه لها وجعل كل رجاله فى خدمتها »

فقاطعها محمد قائلا : « وهل أكلت من طعامه وأجابته على كلامه ؟

فقالت : « والله يا بنى انى لم أشاهد فى حياتى كلها لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام فتاة ولا شابا اثبت جأشا من أسماء ولا أصبر على المكاره منها ، فقد كانت مع ضعفها وعلمها بالخطر الذى وقعت فيه مطمئنة لايبدو على وجهها شىء من دلائل الخوف والاضطراب ، وقد لحظت لما كان ذلك الشاب يكلمها انها كانت تجيبه بكلام لم أسمعه ، ولكننى رأيت أثره فى وجه الشاب تهيبا وخوفا منها . وكأن الخطر قد زاد أسماء هيبة وجلالا كما زادها الضعف حسنا وجمالا . وأما أنا فكنت خافقة القلب مضطربة الحواس لاأكاد أستطيع الوقوف لشدة الارتعاش وهى جالسة فى هودجها والقوم ولا سيما سعيد وقوف على خدمتها لتلبية كل اشارة منها »

فقال محمد : « لم تجيبينى ياخالة عن سؤالى هل أكلت من طعامهم ؟ » . قالت : « لا ياسيدى لم أرها تأكل ، ولكننى لا اظنها استطاعت البقاء بلا طعام »

قال : « ثم ماذا ؟ » . قالت : « ولم نسترح الا قليلا . ثم نهض

الركب وسرنا نطوي البيداء ووجهتنا العراق ، وانا لا ادري ماذا اعمل. ولو رات أسماء فائدة من المقاومة لفعلت ، ولكنها وجدت نفسها عزلاء وحولها رجال مدججون بالحراب والسيوف والرماح ، ولكنى اعجبت بشجاعتها وسكينتها ، وكانت طول الطريق ساكتة تتامل كأنها تفكر في طريقة للنجاة . واما سعيد اصل البلاء وراس الخطيئة فلا ريب انه أقدم على فعلته واسماء طلبته ، ولكنه كان متهيبا وربما هم بأن يكلمها بشيء في نفسه فلاذا دنا من هودجها ارتج عليه فتظاهر بأمر آخر . وقضيت اليوم الثاني وانا أحاول الدنو من اسماء لعلنا نتعاون على سبيل للنجاة فلم استطع ، لانهم كانوا يفرقون بيننا عنوة . فبتنا ثم اصبحنا وقد مللت هذه الحال ، فلاح لى اخيرا أن أتظاهر بالتعب والمرض لعلهم يسمحون لى ان اراها وأرى مايكون، فشكوت ألما وعجزا عن الركوب فقال سيد القوم : (اتركوها في الطريق وسيروا) . فصحت : دعوني انظر ابنتي ، دعوني أودعها) . وأخذت في البكاء فسمعتني اسماء وطلبت ان تراني فحملوني اليها ، فأجلستني في هودجها وارخت ستائره ، ومشى الركب بنا ،- فلما خلونا سألتها عما في نفسها فتنهدت وقالت : « اني لم اقع عمري في مثل ذلك ، وانا اعلم الناس بما يحدق بي من الخطر ، ولكنني لا ارى الخوف يجديني نفعا ، ولا انا أستطيع دفاعا فأنا عزلاء وهم عشرة مسلحون . ويلوح لى انهم سائرون بنا الى معسكر ام المؤمنين ، وان هذا الشاب المغرور من رجالها ، واظنه طامع في . فليطمع ماشاء ، ولعلي أجد سبيلا للنجاة ولكني اريد ان ابلغ محمدا خبرا مهما ، فكيف العمل ؟ . فقلت لها : (انا ابلغه اياه فان هؤلاء الرجال يريدون التخلص مني فاذا انا تظاهرت بحب التخلف عنهم خلفوني وساروا فقولي ما تريدين) . قالت : (سأكتب ذلك في كتاب توصلينه اليه) . وسرنا هنيهة ثم وقف الركب وجاء ذلك الشاب ورفع الستر عن الهودج وقال : (انزلي من هذا الهودج ان الجمل لايستطيع حملك) . فشكوت له التعب والمرض . فقال : (لايعنيني) . فقالت له أسماء : (تمهل ريثما نصل الى مكان نستريح فيه جميعا فاذا لم تقدر على الركوب معنا تركناها أو أوصلناها الى قافلة تسير بها) . وكانت اسماء تتكلم والشاب ينظر اليها وقد هام بها ولم تزده انفتها الا حبا ، وكأنها سحرته فأصابه خبل ، فقال : (حسنا) . فوصلنا في المساء الى مكان فيه آبار وشجر ، فنزلنا جميعا ، ونصبوا الخيام ، فطلبت أسماء الخلوة فتركوها ووقفوا خارج خلوتها لئلا يدهمها أحد، فقضت هناك ساعة حتى قلقت عليها ثم خرجت الى وقد احمرت عيناها وتبللتا وبيدها منديل قطعته من قميصها دفعته الى وقالت : (احتفظي بهذا الكتاب وادفعيه الى محمد) . فتناولته وخبأته بين اثوابي وانا

احاذر أن يرانى أحد . وقالت أسماء : (أسرعى فى المسير الى محمد ما استطعت) . وكانت هناك قافلة قادمة نحونا فعلمت ان ركبنا سيرحل قبل وصولها ، فتظاهرت بعجزى عن الركوب والمشى ، فلما راى أصحابنا القافلة آتية تهيأوا للرحيل وطلبوا الى أن اركب أو امشى ، فلما اعتذرت هموا بتركى ، وطلبت أن أودع أسماء فأذنوا لى فى ذلك ، وقد بكت حين ضممتها وقبلتها مرارا ولكنها اسمعتنى كلاما عزانى على فراقها وطمان قلبى عليها فقالت : (لا تخافى على ياخالتى فانى ارجو أن يكون هذا ذريعة الى خدمة عظيمة اقوم بها للامام على ومحمد وعلى الله اتكالى) . ولم أكد أجيبها حتى اقلع جملها وسار وهى تلتفت الى وتبتسم وانا ابكىّ . فظللت وحدى أنتظر وصول القافلة فاذا وجهتها غير ما ظننت وطريقها غير طريقى ، فنهضت أسعى فى اثرها فسبقتنى ، وما زلت أسير تارة وحدى وطورا أصطحب راعيا أوماشيا حتى لقيت مسعودا على ما قصه عليك »

▭

وفرغت العجوز من كلامها وقد تعبت ومحمد شاخص اليها ثم قال : « أين كتاب أسماء ؟ »

فمدت يدها الى جيبها واخرجته ، وكانت قد خاطته بباطن ثوبها. ثم دفعته اليه فاذا هو قطعة من قميص أسماء ، فاستأنس به وأدنى المصباح منه ونظر فاذا فيه كتابة بمداد أحمر وأحرف لم يألفها لقربها من الشكل النبطى الذى كان يكتب به عرب الشام وتستغرق قراءته زمنا . فأومأ الى مسعود أن يذهب بالعجوز الى مكان تستريح فيه وأغلق باب خيمته وجلس الى جانب المصباح وطفق يقرأ الكتاب فاذا فيه :

« اكتب اليك هذا بمداد من دمى ، اذ لا سبيل الى غيره وأنا فى صحراء قاحلة وحولى أناس لا أدرى غرضهم من أسرى ، على انهم لن ينالوا منى وطرا ، وقد علمت أنهم سائرون بى الى معسكر أم المؤمنين بالبصرة ، واظنهم من رجال تلك الحملة . لا تجزع يا محمد ولا تخف على أسماء فانها بحول الله لا تخشى باسا . وقد كتبت هذا اليك لانبئك بحالى وادعوك الى عهد بيننا نجعله نذرا علينا هو أن تكون اعمالنا وحواسنا وقوانا مكرسة لخدمة أمير المؤمنين ابن عم رسول الله (ص) فقد اتهموه ظلما بدم عثمان وانا وأنت أعلم الناس ببراءته . فعلينا القيام بنصرته حتى اذا انتهينا واستقام الامر نظرنا فى انفسنا واجبنا داعى القلب

« هذا ما أدعوك اليه وأرجو ان تعاهدني عليه ولا اظنك تخالفني فيه وأنا منذ الآن ساعية فى هذا السبيل وارجو ان يكون اسرى عونا على هذه الخدمة ، فأنت تعمل من جهة ، وأنا من جهة اخرى أعمل لاقناع أم المؤمنين حين القاها ببراءة الامام . آه يا ليتها كانت معنا ليلة وجدناه يبكى عند قبر الرسول . آه من تلك الليلة كم لقيت فيها من الاهوال ، على انى سأذكر لها ذلك ، واننا سمعناه يندب الاسلام ويتخوف وقوع الفتنة ، ولعلها تؤمن ببراءته . أقول هذا على أمل تذليل العقبة الوعرة التى أراها فى سبيلى ، فاذا مت فانى اموت شهيدة العفاف والغيرة على الاسلام والنصرة للامام رجل هذه الأمة . . . ومرة اخرى أدعوك الى العهد على نصرة الامام على والتفانى فى ذلك فاذا فرغنا منه على خير فكرنا فى أنفسنا والسلام أسماء »

ولم يفرغ محمد من تلاوة الكتاب حتى امتلأ قلبه حمية وطفح اعجابا بأسماء وعجب لتوارد الخواطر بينها وبينه ، فقبل كتابها وأثنى على غيرتها ، ولكنه مازال خائفا عليها من غائلة ذلك الاسر ، فقضى ليلته مضطربا وقد مال الى الذهاب فى مهمته الى العراق لعله يلقى أسماء فينقذها

□

خرج محمد فى صباح اليوم التالى قاصدا فسطاط الامام على لعله يسمع خبرا جديدا ، فلما دخل عليه رأى فى مجلسه جماعة من الصحابة يتحدثون فيما هم فيه من الأحوال ، ويتشاورون ، والامام مقطب الوجه يفكر فيما قام من الفتنة

وفيما هم فى ذلك دخل غلام مبغوتا فسأله على : « ما وراءك ؟ »

قال : « ان فى الباب ركبا قادمين من البصرة وفيهم رجل ملثم »

قال : « فليدخل كبيرهم »

فدخل رجل ملثم الوجه ، حيى الامام عليا وكشف عن وجهه فاذا هو احلط الوجه أملط لا شعر له فى لحيته ولا شاربيه ولا حاجبيه ولا أشفار عينيه ، فأنكره على وتأمله وقال له : « من الرجل ؟ »

قال : « أنا عثمان بن منيف عاملك على البصرة »

فبغت الامام وقال : « ما الذى أصابك ؟ »

قال : « بعثتنى بلحية فجئت أمرد »

قال على : « أصبت أجرا وخيرا . احك لنا خبرك وما دعا الى نتف شعر وجهك على ما نرى »

قال : « بعثتني يا مولاى عاملا على البصرة ، فلقيني الناس وسروا بخلافة الامام على ، ثم ما لبثت أن سمعت أهل البصرة يتحدثون بأمر حدث ، وان كتبا وردت على بعضهم من أم المؤمنين تدعوهم فيها الى الاخذ بثأر عثمان ، وانها قدمت من مكة واقامت فى الحفير على بضع ليال من البصرة تنتظر الجواب ، فأهمنى الأمر كثيرا ، فبعثت رجلين : احدهما رجل عامة ، والآخر رجل خاصة ، يسألانها عما تريده. فعادا واخبرانى ان أم المؤمنين وطلحة والزبير مصرون على طلبهم دم عثمان منك ، وأن الآخرين لم يبايعاك الا كرها . فشاورت رجالى فقال بعضهم : « ننصرهم » . وقال آخرون : « نردهم » . ورأيت لهم نصراء فى البصرة فخفت اتساع الخرق ، ثم علمت ان عائشة جاءت المربد (وهو السوق خارج البصرة) ومعها رجالها ، فخرجت اليها بنفسى ومعى بعض أهل البصرة ممن يرون رأيى ، فلما انتهينا الى المعسكر سألناهم عن غرضهم ، فوقف طلحة وتكلم بفضائل الخليفة عثمان وحث على الاخذ بثأره ، ثم قام الزبير بمثل ذلك ، وأيدهم من معهم من الرجال . فقلت لهما : (بايعتما عليا وجئتما تقولان ما تقولان) . فوقفت ام المؤمنين وألقت كلاما حرضت فيه الناس على طلب دم عثمان ، وقالت قولا كثيرا وكان لكلامها تأثير شديد على كل من سمعها حتى ان جماعة كبيرة من رجالى مالوا اليها . ثم اشتد اللجاج بين الرجال ونشبت الحرب فقتل من رجالى جماعة كبيرة ، فتنادينا الى الصلح وتواعدنا على أن يبعثوا الى المدينة فان كان طلحة والزبير اكرها على البيعة سلمت اليهما الامر والا فانهما يرجعان ، فبعثت اليكم وفدا فى ذلك »

فقال على : « وقد اجابهم أهل المدينة انهما بايعا طائعين »

قال عثمان : « نعم يا مولاى جاءهم الوفد بذلك فأنكروه ، وبعثوا الى ، وكانت ليلة ذات رياح ومطر ساروا فيها الى المسجد وقت صلاة العشاء ، فأرسلت بعض رجالى لأرى ماذا يريدون ، فقتلوهم ثم جاءوا الى واخرجونى ونتفوا لحيتى وشعر حاجبى وأشفار عينى كما ترى ، فجئت بالخبر كما وقع »

فقال على : « انا لله وانا اليه راجعون ، وكيف اهل البصرة الآن ؟ »

قال : « ان سوادهم مع أم المؤمنين »

فأطرق على ، وكل من فى مجلسه سكوت ينتظرون ما يبدو منه فظل ساكتا ، حتى شعر الناس أنه يريد ان يخلو بخاصته ، فخرجوا جميعا وفى جملتهم محمد بن أبى بكر وقد ساءه تعاظم الامر الى هذا الحد ، ولم يكد يدرك خيمته حتى جاءه رسول يستقدمه الى على ، فأسرع

اليه فلم ير عنده الا محمدا بن جعفر ، فدخل وحياه وهو يتوقع ان يسمع منه امرا جديدا ، فلم يكلمه حتى جلس على وسادة بجانب محمد بن جعفر ، فقال له والاهتمام ظاهر فى وجهــه : « اتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « خيرا ان شاء الله »

قال : « أسمعت مافعلت اختك وطلحــة والزبير فى البصرة ؟ . لقد اساءوا الى عاملنا وحضوا الناس على حربنا لأننا على زعمهم قتلنــا عثمان ، وانت تعلم أن أهل الكوفة حزب كبير يهمنا استنفارهم ليكونوا معنا فى هذه الحرب اذا كان لابد منهــا ، وقد انتدبتك انت وابن اخى هــذا لتسيرا الى ابى موسى الاشعرى عاملنا على الــكوفة تستنفران الناس لنصرة الحق »

فوقف محمد وقد ثارت حميته وقال : « اننا طوع امرك وان الدفاع عن الحق ونصرة امير المؤمنين فرض واجب علينا »

قال على : « تأهبا واخرجا الى ابى موسى ، واقرآ هذا الـكتاب على الناس ، وادعواهم الى الاصــلاح فاننا لا نريد سواه ، وانا لاحق بكما واستعين الله فى نصرة الحق وكبح جماح الباطل »

فخرجا يتأهبان للرحيل

فلنتركهما سائرين فى هذه المهمة ولنعد للبحث عن أسماء

□

اما اسماء فقد كان السبب فى اسرها ان احد كبراء البصرة ممن جاءوا مع ابن عامر الى مكة شاهدها ساعة وقوفها فى العريش ومخاطبتها مروان بتلك الشجاعة مع ما كان يتجلى فى محياها من المهابة والجمال ، فوقعت من نفسه موقعا عظيما وعلق قلبه بها . وكان من اهل اليسار والبذخ ، فلما انفض المجلس سأل عنها فأخبره بعض الذين اطلعوا على حديثهــا سرا من خدم أم المؤمنين انها مخطوبة لمحمد بن أبى بكر ، وانها باقية فى مكة تنتظر امره بالذهاب الى المدينة ، فحدثته نفســه أن يخطفها ويغريها بحبه ويتزوجها ، وهو يعتقد أنها لا تلبث أن ترى جماله وتعلم بجاهه وغناه حتى تهواه وتفضله على محمد ، فيحظى بها وينتقم من محمد لنقمته على عثمان . فاصطنع ذلك الكتاب على لسان محمد وبعث به مع بعض رجاله فجاءت معه ، فســــــار بها كما تقدم وهو تارة يستعطفها ، وطورا يعدها بالسعادة عندما يصل بها الى البصرة ، وخيل اليه فى بادىء الرأى انها مالت اليــه لمــا آنسه من سكوتهــا

وتصبرها ، ولم يعلم انها انما فعلت ذلك حزما وتعقلا . وكان يود التخلص من العجوز فتيسر له ذلك على اهون سبيل كما رأيت . فقضى أياما فى مسيره وهو يعرج فى الطريق روحة وجيئـة يلتمس رضاها قبل الوصول الى البصرة ، فلمـا دنا من البصرة عرج على طريق ينتهى بالكوفة وكان له فيها منازل وصنائع

وكانت هى تفكر فى طريقة للنجاة ، وكثيـرا ما حدثتها نفسها أن تجافيه وتظهر احتقارها له ، ولـكنها كانت تعود فتصبر مخافة ان يفتكوا بها

فلما صاروا على مقربة من الكوفة لم ير بدا من استجلاء أمرها ، فصبر حتى أسدل الليل نقابه وجاءها وهى مستلقيـة فى الهـودج التماسا للراحة ، وكان بجانب الهودج نار أوقدوها للاستضاءة ، فرفع ستائر الهودج فانتبهت أسماء وجلست ، ولما رأت سعيدا استعاذت بالله . أما هو فحياها بلطف وقال لها : « الا تظنين البصرة خيرا من المدينة يا أسماء ؟ »

فأطرقت ولم تجب ، فجثا أمامها ومد يده محاولاان يمس معصمها. بينما أخذ ينظر الى وجهها وقد انعكست عليه اشعة لهيب النار ، فلم يكد يمس يدها حتى أجفلت وجذبتها من بين انامله وبالغت فى الاطراق

فقال لها : « ما بالك يا مليحة ؟ الا تزالين تجافيننى وانت تعلمين انى أسير هواك ؟ فهل تخشين الا تلاقى فى منزل محبك الاكرام الذى يليق بك ؟ . انك لا تلبثين أن تنزلى فى بيتك بالبصرة أو فىالكوفة حتى تشعرى بالسعادة التى تنتظرك هناك مما لا يتأتى لأحـد سواى ان يهبك اياه . فهناك تجدين الخدم والحشم ، والدور والمنازل ، والخيل والماشية ، والملابس الفاخرة . وكل أسباب الراحة . الا تمنين على بنظرة تدل على رضاك ؟ »

وكان سعيد يتكلم وعينا أسماء شاخصتان الى تلك النار الموقدة بجانب هودجها ، لا يحاكيها فى ذلك الليل الهادىء الا نيران قلبها المتقدة حبا لمحمد وغيرة على الاسلام ، وقد ازدادت اتقادا وحدة لما سمعته من كلام ذلك الشاب وارادت أن توبخه وتردعه ولكنها علمت انها اذا فعلت ذلك عرضت نفسها للخطر فتنهدت وظلت صامتة

اما هو فظن تنهـدها دليـلا على أثر كلامه فيهـا ، فابتسم ومضى نحوها جاثيا ومد يده ليمسك أناملها وهم بالتكلم ، فجذبت يدها منه، ونظرت اليه والشرر يكاد يتطاير من عينيها ثم أعرضت عنـه وهى تحرق أسنانها ، فابتسم هو وهش وقال بنغمـة المحب الولهـان : « بالله الا رحمت قلبا قيدته بسلاسل هواك ، ورمقته بلفتة أو بكلمة ،

قولى يا اسماء ، قولى انك راضية بى عبدا رقا وانا اكرس حياتى لخدمتك . والله انى لم أقل هذا لأحد قبلك . تعطفى بالله وارفقى ، كفى سكوتا واعراضا ، اعلمى يا مليحة اننى انما أريد سعادتك وأن الله ساقنى اليك لحسن حظك وحظى . وان ابن ابى بكر ليس أهلا لك ولا هو يستحقك ولسوف ترين ما يحل به اذا احتدم القتال »

ولم تعد أسماء تستطيع صبرا على ذلك بعد ان سمعت التعريض بمحمد ، فحدثتها نفسها أن تصفعه على وجهه ، ولكنها كظمت غيظها بالرغم منها ، وعمدت الى توبيخه فقالت بنغم ضعيف وصوت رخيم : « انى لا اراك أهلا للنزال »

فسر سعيد لكلامها وان يكن توبيخا له لانه رجا ان يصل بالحديث معها الى استرضائها فقال : « وما أدراك يافاتنتى انى غير أهل لذلك ؟ »

قالت وهى تنظر اليه نظرة التأنيب : « لأن الرجل الذى يقطع الفيافى والقفار طلبا للثأر او نصرة للحق على ما تزعمون ، لا يرتكب جريمة التزوير ، ومن كان حرا صادقا يلقى الرجل فى حومة الوغى لا يكلم فتاة يعلم أنها تحب سواه »

فأحنى الرجل راسه عند كلامها وقال : «لقد صدقت أيتها العذراء، ولكنى انما زورت التماسا لقربك اذ لم يبق لى اليه غير هذا السبيل ، فأنا أستغفر لذنبى لديك »

قالت : « انك انما اذنبت الى غيرى ، فاذا كنت رجلا فالق محمدا واستغفره ، فاما أن يغفر لك ، واما أن ينازعك فنرى من هو الرجل ! »

فجلس سعيد ودنا منها حتى كاد يلامسها ومد يده فقبض بواحدة على زندها وجعل الاخرى على نقابها واراد أن ينزعه . فجذبت يدها منه ووقفت وقد اخذ الغضب منها مأخذا عظيما وقالت : « ابتعد عنى ولا يغرنك سكوتى ومرضى ، والله ان تمدد يدك الى لأكسرنها »

فضحك سعيد وقال : « لا تغضبى يا حبيبتى فانى لم أفعل شيئا يغضبك ، ولكننى أسترضيك واستعطفك ، فأفيقى من غفلتك ولا ترفضى نعمة انعم الله بها عليك »

قالت وهى تتحفز للخروج من الهودج : « اذا كنت تزعم أنك تريد رضاى فاعلم انك تطلب عبثا ، واذا حدثتك نفسك بوطر تبغيه فاعلم انها تحدثك باطلا وان احتراقى فى هذه النار أيسر مما تدعونى اليه »

فقال وقد حار فى أمره وهو يكظم غيظه ولا يزال يرجو رضاها : « تمهلى يا حبيبتى وتبصرى فيما أقوله لك ، ولا ترفسى النعمة التى اعرضها عليك باسم الحب »

فقالت بنغمة جافية : « لا تنطق بالحب فانك تتكلم باطلا ولاتستعظم قوتك وتستكثر رجالك فان ذلك لا يرهبنى »

□

ولما رأى سعيد من اسماء هذا الاصرار ، وقف على قدميه بغتة وصاح فيها صيحة دوت فى ذلك الليل الهادىء وانتهرها قائلا : «أراك قد بالغت فى القحة ، واستخففت بى وانك تعلمين انك أسيرة بين يدى » . قال ذلك وأمسك بيديها ، فانتفضت من بين يديه ورفسته برجلها فألقته على الارض وأعرضت بوجهها عنه

فهب من وقعته وصاح برجاله فتجمهروا حول اسماء وقبض بعضهم على يديها وبعضهم الآخر على كتفيها ، فتملصت من بين أيديهم وصاحت فيهم قائلة : « عار عليكم وانتم رجال مسلحون أن تجمهروا على فتاة عزلاء »

فصاح سعيد فيهم : « قيدوا هذه الخائنة وشدوا ساعديها »

فقالت : « ما الخائن الا انت يا نذل ، اتظن ان القيود تقيد شيئا من حريتى ؟ » . وهمت بعصا من عصى الهودج استلتها فى وجوه الرجال فتفرقوا امامها تهيبا من منظرها ورفقا بها ، فوبخهم سعيد وحثهم فعادوا وتكاثروا عليها وهى تحاول دفعهم ، فعثرت رجلها بعقال الجمل فوقعت على الارض فأسرعوا اليها وشدوا وثاقها وهى لا تبالى بما يفعلون وسعيد واقف ينتفض غيظا ، وأمرهم أن يلقوها فى الهودج ويربطوها به ففعلوا

فلما أيقنت بالخطر القريب ترقرقت الدموع فى عينيها وصاحت : « آه يا محمد أين أنت . يا ويل الأنذال اللئام الذين لا ذمة لهم ولاذمام»

فلما سمعها سعيد تنادى محمدا ضحك ضحكة تخالطها رعدة الغضب وقال : « لا تذكرى محمدا ولا ترجى نجاة من هذا الأسر » . ثم امر رجاله فتفرقوا ، ودنا منها وعاد الى الملاينة فقال : كيف انت الآن الا ترجعين عن غيك ؟ انك اسيرة بين يدى وحياتك رهن اشارتى الا اذا أجبت طلبى فتصيرين انت الآمرة الناهية . قولى انك رضيت بى ؛ قولى انك تحبيننى وكفى »

فصاحت به قائلة : « لا . لا . لا احبك ، اذهب عنى يا شيطان ولا ترنى وجهك »

قال : « أعناد وروحك فى قبضة يدى ؟ »



« وأصابت أسماء أحدهم بضربة على عنقه فخر قتيلا »

قالت : « لا تهددني بالموت فانه خير مما اتوقعه . واقتلني وارحني من هذه الحياة »

قال : « لا أقتلك بل اذيقك العذاب . لا بل أعيد النصح وادعوك الى حبي » . ومد يده الى شعرها ولم يكد يلمسه حتى اقشعر جسمها وانتفضت وكان الوثاق محلولا من بعض اطرافه فتملصت يدها واخرجت ذراعها ودفعت يده بعنف ، فجرد حسامه وهجم عليها به ليخوفها لعلها تطيعه ، فوقفت وذراعها الاخرى مشدودة الى جسدها ومدت يدها الى سيفه فأخذته من يده وهو لا يمنعها منه فقطعت بقية الحبال واغارت عليه والسيف مشهر بيدها ، ففر امامها . فأسرع رجاله اليه فأصابت أحدهم بضربة على عنقه فخر قتيلا ، وهمت بالباقين فتكاثروا وتهافتوا عليها بالرماح والحراب والسيوف فأصابها رمح فى زندها فسقط السيف من يدها ووقعت مغشيا عليها من شدة الالم ، فأسرعوا وشدوا وثاقها وهي لا تعى . فلما رآها سعيد مغمى عليها امر بالماء فرشوها به حتى افاقت فقال : « اتركوها لتستريح » . وحسب انها ستذعن لأمره فجلس بالقرب منها يعلل نفسه برضائها بعد ما أصابها من الضنك

واما هي فازداد نفورها منه ويأسها من الحياة ، ولما رات ما فيه من الخطر الأكيد عظم عليها الأمر فلم تتمالك عن البكاء والشهيق

فدنا سعيد منها وقال بنغمة الظافر : « والآن يا اسماء كيف ترين نفسك ؟ »

قالت : « لا اراني ازداد الا نفورا منك اذهب من امامى »

قال : « يا للعجب أبعد هذا ترجين خلاصا »

قالت : « لا . لا أرجو ولا أطلب غير الموت فانه غاية ما ارجوه الآن » . وعادت الى البكاء وهي تقول : « اين انت يا محمد . ارنى وجهك قبل الممات ولو لحظة »

فلما سمعها تذكر محمدا اتقدت الغيرة فى قلبه وصمم على الفتك بها ، فجرد حسامه ووقف فوق راسها . فنظرت الى السيف وضوء اللهيب ينعكس عليه فيلمع ، فايقنت انه قاتلها لامحالة فصاحت : « أين انت يا محمد يا ابن ابى بكر ، زودنى بنظرة منك قبل الممات »

فقال سعيد : « اتظنين انى اقتلك الآن ؟ لا . لا تعللى نفسك بهذه الامنية فانني سأميتك صلبا » . واشار الى بعض الوقوف من رجاله فرفعوها عن الأرض واوقفوها الى شجرة من السنط الصقوا ظهرها بها ، وشدوها اليها شدا وثيقا بحبال مجدولة من ألياف النخيل وكان فى

جذع الشجرة نتوءات واشواك اصابت بدنها فآلمتها ، لكنها لم تبال فى جانب ما شعرت به من الشوق لرؤية محمد فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، وحزنت على فراقها الحياة دون التزود بنظرة منه ، وكانت تفكر فى ذلك وهى ترسل نظرها الى الظلام من حولها فلا تتبين غير تلك النار الموقدة بين يديها

اما سعيد فتركها مشدودة الى الشجرة وذهب هو ورجاله يلتمسون الراحة او النوم وظلت هى مصلوبة تنظر تارة الى الافق وطورا الى السماء وآونة الى النار امامها وهى غارقة فى بحار الهواجس ، وحدثتها نفسها أن تلين لسعيد وتعده خيرا ريثما ترى ما يجىء به القدر ، ولكنها علمت أنه لا يكتفى من رضاها بالكلام فقط ، فعادت الى اضطرابها وهى تنظر الى النار فرأتها قد اخذت فى الخمود فخافت أن تنطفىء فلا يبقى ما يؤانسها ، على أن خودها جعل الافق اكثر ظهورا فقد كانت لا ترى فيه الا ظلاما دامسا . فلما خمدت النار ظهر فى أطراف الافق بعض الاشباح من الشجر او التلال ، وكانت لفرط قلقها تحسب الاشباح اناسا قادمين لانقاذها

□

وفيما هى تحدق فى الافق رات أشباحا تتحرك فتفرست جيدا فاذا هى هجن وافراس عليها رجال فاستأنست بهم وهمت بأن تستنجدهم فمنعتها الانفة وعزة النفس فقالت فى نفسها : « اذا كان لى نصيب فى الحياة اتى أولئك الركب لانقاذى بالهام من الله »

وظل سعيد ساهرا يتوقع أن تسترضيه أسماء فرأى الأشباح عند الأفق وعلم ان ناره ستهديهم اليه فأمر باطفائها ، فلما رأت اسماء الرجال يهمون باطفاء النار أيقنت انهم خائفون ، فقالت فى نفسها عسى أن تقع عاقبة خوفهم على رؤوسهم ، واستبشرت . على انها لم تكد تفعل حتى رات سعيدا قادما نحوها والحسام مجرد فى يده وصاح وهو يحسبها لاترى احدا قادما وقال : «هل لان قلبك الآن ام ماذا ؟ ». فلم تجب . فقال : « قولى . أجيبى . ان حياتك بين شفتيك فاما أن تعيشى سعيدة ، واما أن يجرى دمك على جذع هذه الشجرة »

فحارت فى أمرها ولم تدر بم تجيبه وهى تعلم أنها إذا أجابت بالرفض ضربها بالحسام وهى مشدودة الوثاق ، فرأت المماطلة خير ذريعة لنجاتها ريثما يصل اولئك الركب عساهم أن ينجدوها . فلم تجب

فأدرك سعيد قصدها وخاف ان هو انتظر جوابها أن يصل الركب فشرع الحسام بيده وصاح بها : « قولى حالا فاما أن أسمع صوت قبولك واما أن تسمعى صوت حسامى على عنقك »

فعظم عليها هذا التهديد وهجرها التعقل ، فقالت : « لا . لا . لا أرضى !.. فاضرب عنقى والله يجزى الظالمين . ثم صاحت آه يا محمد يا ابن أبى بكر اين أنت . آه .. لو تعلم مصير أسماء »

فلما سمع سعيد قولها نزل بالسيف على عنقها وهو لا يريد قتلها لأنه لا يزال يرجو رضاءها فاضطرب السيف فى يده فوقع على جذع الشجرة فوق كتفها فأصاب وثاق أسماء فانحل ، فلما رأت وثاقها محلولا ظنت نفسها فى حلم ، وأدركت أنه أخطأ الضرب فانطلقت مسرعة نحوه وهى تتميز غيظا

ورأى هجومها عليه فصاح برجاله فتكاتفوا حولها بحرابهم وسيوفهم فصاحت فيهم : « أما فيكم من يرعى الذمام ويخاف الله ؟ ». قالت ذلك ولاحت منها التفاتة فرأت الركب قد أصبحوا منها قاب قوسين أو أدنى ، وسمعت صوتا كالرعد القاصف وقع فى أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، الا وهو صوت محمد بن أبى بكر يقول : « لبيك يا أسماء لقد جاءك الفرج .. اخسأوا يا أنذال »

اما هؤلاء فما كادوا يسمعون صوت محمد ويرون معه رجاله حتى حملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وولوا الادبار ، وما لبثوا أن تواروا عن الابصار تاركين بعض جمالهم والهودج

ولا تسل عن أسماء وما حل بها لما سمعت صوت محمد فانها أخذت ولبثت صامتة تحسب نفسها فى منام ، حتى دنا وناداها باسمها .. فقالت : « محمد ؟. أين كنت ياحبيبى ؟. هل بعثك الله لتنجينى ؟ أفى يقظة انا ام منام ؟ »

قال : « بل فى يقظة . ما الذى أصابك . هل من بأس عليك ؟ »

قالت : « لا بأس بى غير جرح خفيف فى زندى أصابنى وأنا أدفع هؤلاء اللئام ، ولولاه لقتلتهم جميعا ولكن السيف سقط من يدى وعثرت بعقال الجمل فشدوا وثاقى » . ونظرت فرأت مع محمد رجلا آخر لم تعرفه فخجلت لما أبدته من دلائل الحب ، فأدرك محمد مابها فقال : « لا تجزعى ، هذا محمد بن جعفر ابن أخى أمير المؤمنين ، وهؤلاء خدم سائرون فى ركابنا الى الكوفة وقد جئنا بمهمة فى خدمة أمير المؤمنين ، فاجلسى الآن واستريحى وقصى علينا خبرك » . فجلست ومحمد بن جعفر يعجب بما يبدو من همة تلك الفتاة ، وكان قد سمع من محمد حديثها وأعجب بغيرتها على الامام وعلى الاسلام ، فأحبها بالسماع .

فلما راى فيها تلك الحمية رغب فى سماع حديثها ، فجلسا وقصت اسماء ماجرى لها وهماشاخصان يزدادان اعجابا . وقص محمد ماحدث له بعد مجىء كتابها ، وقضوا الليل فى الاحاديث ، وقبل الفجر اغمضت أجفانهم ساعة فاستراحوا ، فلما انبلج الصبح وأفاقوا نظروا الى ماحولهم فاذا ببقايا الهاربين . وفيها كثير من الزاد والآنية وجثة ملقاة عن بعد ، فنظر محمد اليها وسأل أسماء عنها ، فقالت : « انه أحد أولئك الطغام أدركته بضربة ذهبت بحياته »

قال : « بورك فيك ، نحن الآن ذاهبون الى الكوفة وهى على مقربة منا فهلم بنا اليها لنقضى مهمتنا ثم نذهب بك الى المدينة تقيمين بها حتى تنقضى الحرب »

فقالت وهى تنظر اليه نظر العاتب : « لعل كتابى لم يصل اليك ؟ »

قال : « لقد وصل » . قالت : « فكيف تدعونى الى الاقامة بالمدينة وقد آليت لأنصرن الامام عليا ما استطعت الى ذلك سبيلا ؟ »

قال : « لقد جاهدت وسعك ، وأنت مريضة الآن » . قالت : «لابأس على باذن الله »

قال : « فلنذهب معا الى الكوفة ثم نرى ما يكون »

قالت : « لا أرى فى ذهابى اليها فائدة » . قال : « وماذا اذن ؟ »

قالت : « أنت تسير فى مهمتك ، وأما انافأذهب الى أختك أم المؤمنين بالبصرة عسى أن أوفق الى اقناعها ببراءة الامام على فتكف عن الحرب حقنا لدماء المسلمين . ان الامر لأعظم مما تتصوره يامحمد وقد آليت على نفسى أن أضحى بكل شىء فى سبيل دفع هذه الفتنة » . فأعجب بحميتها وقال لها : « ولكننى لا أرى سعيك الا ذاهبا عبثا »

قالت : «على السعى وعلى الله التوفيق . وكيف الطريق الى البصرة ؟ »

قال : « إذا كان لابد من ذهابك اليها فانى أزودك بخبير من رجالى يسير فى خدمتك حيث تشائين » . قال ذلك ونادى مسعودا وكان فى جملة صحبه فى هذا السفر ، فجاء مسرعا فقال محمد : «هذه اسماء التى حملت الى كتابها ، وهى تريد البصرة ، فأوصلها الى معسكر ام المؤمنين وعد الى فى الكوفة »

فنهضت اسماء وامرت مسعودا ان يهيىء الجمل . فقال : « الا تركبين الهودج ؟ »

قالت : « لا ليس ذا وقت التنعم اركبنى جملا خفيفا »

ونظرت الى محمد وقالت : « ان الوقت ثمين يا محمد ، فلنسر فى مهمتنا عسانا أن نوفق الى تلافى الفتنة »

فنهض محمد وركبوا جميعا . فسارت أسماء ومسعود نحو البصرة ، ومضى الباقون نحو الكوفة وهم يعجبون بما آنسوه من بسالة أسماء وحميتها وغيرتها

سارت أسماء تستحث جملها ، ومسعود على جمله أمامها ليهديها الى الطريق ، فمضى معظم النهار لم يستريحا ولا تناولا طعاما ، فلما كان الغروب سألته أسماء عن البصرة فقال : « انها على بضع ساعات منا ، فأرى أن نبيت هنا الليلة ، لندخل المدينة صباحا » . قالت : « لا صبر لى على الانتظار ، هلم بنا ولا بأس من وصولنا الى البصرة ليلا فنقيم فى المربد »

قال : « ان جيش أم المؤمنين مخيم هناك »

قالت : « سر بنا على خيرة الله فانى انما أقصد معسكرها »

فلم يستطع مسعود مخالفتها ، وظل سائرا يتلمس الطريق تلمسا لأن الظلام كان حالكا ، واتفق ان هبت الريح وتلبدت الغيوم ، فلم يعد يرى الطريق أمامه ولا النجوم حتى يهتدى بها ، ولكنه رأى نورا بعيدا ، فعلم انه نور دير لبعض النساطرة كان قد زاره فى بعض سفراته فى تلك الأنحاء ، فجعل ذلك النور وجهته واسماء سائرة فى أثره وهما صامتان لا يسمعان الا وقع أخفاف الجمال

□

وكان مسعود قلقا لمسيرهما فى هذا الظلام ، وخاف أن يعترضهما وحش أو يهويا فى هوة ، وقد عجب لشجاعة أسماء وتحملها مشقة السفر . على أنه ما عتم أن سمع طنين سهم فى الجو مر أمام عينيه فجفل وصاح : « من ذا هناك ؟ » . ولم يتم كلامه حتى سمع صوت أسماء تقول : « آه . . قتلتنى قتلك الله ! » . فعلم ان السهم أصابها فتحول اليها وقال : « ما بالك يا سيدتى ما الذى أصابك ؟ »

قالت : « أصابنى سهم فى جنبى وأظنه قاتلى » . فترجل وأناخ جملها فاذا هى تسند جنبها بيدها والسهم ما زال مغروسا فيه ، فنزعه بخفة ، فصاحت صيحة دلت على شدة تألمها ، فتحير فى أمره وخاف أن تموت أسماء بين يديه فى ذلك القفر المظلم ، فوضع يده على جرحها وضغطه بكفه وهو يرعش خوفا ثم سألها عن حالها فقالت : « انى مقتولة لا محالة . فلم ير مسعود خيرا من أن يحملها على جمله ويسرع الى ذلك الدير . فأردفها وساق جمله وقاد جملها وراءه وأسرع الى الدير ، ولما وصله وجده مقفلا وسوره عاليا لايمكن اجتيازه ، ثم

تذكر ان القوم يعلقون على الاديار اجراسا يدقها من يجيء طارقا ، وبحث عن حبل الجرس حتى وجده فدق الجرس ، ولكن لم يجبه أحد، فكرر الدق فسمع صوتا جهوريا يقول : « من الطارق ؟ » . فأجاب مسعود قائلا : « افتح ناشدتك الله واسرع الى اغاثتنا »

فقال : « من أنت ؟ » . قال : « اننا غرباء فى ضنك شديد افتح رعاك الله » . قال ذلك وصبر فلم يعد يسمع صوتا ، ونظر الى اسماء وهى مطروحة عند الباب تئن انينا عميقا فامسكها بيدها ويده ترتجف خوفا عليها فرآها باردة ، فجس جرحها فغاصت انامله فى الدم وكان قد تخثر وملأ ثوبها فحاول أن يجلسها ليتحقق حالها فاذا هى تشخر وقد ارتخت مفاصلها فزاد اضطرابه وهم بأن يصيح ببواب الدير فرأى رأسا عاريا قد وخطه الشيب قد أطل من الكوة والمصباح فى يده ينعكس نوره على لحيته البيضاء ويقول : « اصدقنا ايها الطارق . . من أنت ؟ »

فصاح مسعود قائلا : « اننا غرباء ومعى مريض مشرف على الموت انجدنا جزاك الله خيرا »

ولم يتم مسعود كلامه حتى سمع صوت مزلاج الباب كأنه شد بحبل فانفتحت خوخة صغيرة فى وسط الباب المصفح بالحديد ، فرأى مسعود أنه لا يستطيع الدخول من الخوخة واسماء على تلك الحال فسأل الراهب ان يفتح الباب كله ، واشار الى اسماء وهى بين يديه ، فأسرع الراهب خفيفا برغم شيخوخته وجر عضادة ضخمة من خشب كان الباب موصدا بها ففتحه ، وساعد مسعودا فى نقل اسماء الى اقرب غرفة هناك ، وأجلساها على الفراش ، وخف الراهب الى رئيس الدير ليخبره الخبر . وما لبثوا حتى جاء الرئيس وهو شيخ هرم قد رق بدنه وتجعد جلده واشتعل رأسه شيبا وعيناه تشعان قوة وصحة وقامته مستوية تدل على نشاط وهمة . فتقدم الى الفتاة وهى ملقاة على الفراش وسأل مسعودا عما بها فقص عليه الخبر . فأدارها على جنبها الصحيح واخذ فى كشف الجرح ، فحول مسعود وجهه عنها حياء واحتشاما ، واشتغل الرئيس وراهبه بغسل الجرح وتضميده ، وأمر بلبن فغسله به ، ثم صب عليه ماء مقدسا يحتفظون به لمثل هذه الحال وربطه ، وأمر بملاءة من نسيج الصوف فغطاها بها لتدفئتها ورش وجهها بالماء المقدس ودهنه بزيت من مصباح الدير المضيء امام صورة المسيح وهو يدعو الله أن يقرب الشفاء . وأفاقت اسماء لحظة ، ولكنها لم تقل شيئا ، ثم عادت الى الأنين . وكان رئيس الدير وهو يغسل وجهها يتفرس فى ملامحها كأنه تذكر

شخصا يشبهها ، واخذ يعتذر لمسعود من الابطاء فى فتح البـاب لتخوفهم من الطارقين الذين كثروا يومئذ على أثر قدوم أهل مكة الى البصرة ووقوع بعض الوقائع الحربية . فلما فرغ من تضميد الجرح تحول الى مسعود فسأله : « من الفتاة ؟ »

قال : « انها فتاة لبعض كبار الصحابة » . ولم يزد

فأعاد الرئيس نظره اليها وادنى المصباح من وجههـا ، وكان قد امتقع ونحل وهي مغمضة العينين كأنها فى سبات وقال : « فهى اذن مسلمة » . قال : « نعم »

فلمح الرئيس فى صدرها حجابا اعتاد النصارى جعله على صدورهم ، وكان زندها مكشـوفا فراى عليـه رسـم الصـليب ، فالتفت الى مسعود وقال : « ولكننى ارى عليها بعض شارات النصرانية »

فضجر مسعود من تدقيقه وهو لا يهمه ساعتئذ الا شفاؤها فقال : « لاادرى ياسيدى سوى انها مسلمة فلعل لتلك الشارة سببا لاأعلمه »

فسكت الرئيس وجلس على مقعد بالقرب من فراش المريضة وهو تارة ينظر الى وجهها وطورا يطرق متأملا كأنه يبحث فى ذاكرته عن شخص يشبهها

ثم نظر الى مسـعود وقال له : « امض يا بنى الى غرفة الاضـياف اذا أردت طعاما ، ثم اذهب الى رقادك مطمئنا فلا يمضي على هذه الفتاة قليل حتى تصحو وتتحسن صحتها بقوة الله وبركة صاحب هـذا الدير »

فقال مسعود : « انى لا أشعر بالجوع ولا أنا فى حاجة الى الرقاد واوثر ان أبقى هنا لأرى ما يصيبها »

قال : « لا خير فى بقائك ، ولا بأس عليها لأننا ما مسحنا جريحا أو مريضا بهذا الماء المقدس الا شفاه الله ، اذهب الى فراشك واذا شئت البقاء خارج الحجرة فلا بأس »

فاستحيى مسعود من تكرار الاعتـذار ، فخرج وجلس على حصير وراء الغرفة

أما الرئيس ، فخلا الى الراهب واخذا يتساران ويتخاطبان بلسان نصارى العراق الكلدانى ويشيران الى أسماء . وكان مسعود لقلقه لا يغفل عن حركة تحدث ، فقلق لهذه المسارة ، وأصاخ بسمعه فلم يفهم من كلامهما شيئا ، فجعل يرصد مايبدو منهما فاذا بالرئيس قد أمر الراهب فخرج ثم عاد وبيده كتاب ضخم ففتحه فقرأ وتمتم ثم

ركع الاثنان ، فعلم انهما يصليان ، فصبر حتى فرغا من الصلاة وقاما ، فرأى الرئيس دنا من أسماء وهو يمسح الماء عن جبينها ويتأملها ، ثم جلس الى جانبها ولبث ينتظر ما يبدو منها . وبعد قليل تحركت كأنها تتقلب من جنب الى الآخر ، وما كادت تفعل حتى صاحت من الالم . فسر مسعود لصياحها لعلمه انه يدل على اليقظة ، فدخل الغرفة فرأى اسماء قد فتحت عينيها ونظرت الى ما حولها فوقف بصرها عند وجه الرئيس وحاولت التفرس فيه ولكن الضعف غلب عليها فذبلت اجفانها واطبقت عينيها ، وعادت الى الرقاد ، فأومأ الرئيس الى مسعود بيده وابتسم كأنه يقول : « ابشر انها قد أفاقت » . ففرح مسعود وظهر البشر عليه وتوسل الى الله أن يتم شفاءها . وقضت اسماء ليلتها راقدة وتنفسها هادىء

□

وفى الصباح جاء مسعود الى غرفتها فرأى الراهب الشيخ الى جانبها يهتم بالكشف عن الجرح وتبديل رباطه ، فخرج حتى اذا فرغ الراهب من عمله نادى مسعودا فدخل ونظر الى وجه أسماء فاذا هى قد أفاقت وفتحت عينيها فحمد الله ودنا منها ، فلما رأته قالت له : « آه من النذل الذى عجز عن لقائى وجها لوجه فأراد قتلى غدرا » . وحرقت اسنانها

فقال مسعود : « لا بأس عليك يا سيدتى ولا تعبئى بما فعله ذلك الغادر على اننا لا ندرى من هو »

قال : « لا ريب عندى فى انه ذلك الجبان الذى حاول اختطافى فليس فى هذه الديار من يعرفنى سواه قبحه الله »

قال : « هل اذهب الى مولاى محمد لأروى له ما وقع ؟ »

فقطعت عليه الكلام قائلة : « لا . لا تفعل فان أخشى ما أخشاه أن يسرع الى اذا علم بما حدث ويهمل مهمته التى انفذه فيها أمير المؤمنين ، وهى تمس المسلمين عامة ، فلا يليق أن نشتغل عنها بحياة فرد من أفرادهم . فضلا عن انى بحمد الله فى عافية ، ولا اخالنى الا راكبة جملا اوجوادا الى معسكر أمير المؤمنين عما قليل لأؤدى المهمة التى ندبت نفسى لها » . ثم صعدت بصرها واشارت بيدها كأنها تقول : « فقدر لى الله ان أتأخر هنا الى حين » . وشفعت اشارتها بدمعتين كبيرتين انحدرتا على خديها ، ثم التفتت الى أيقونة معلقة امامها شغلت نفسها بالنظر اليها

وكان الراهب فى اثناء ذلك مشتغلا بقراءة درج (رق) فى يده ، فيه فرض من فروض الصلاة

ولما سمع مسعود كلام أسماء وشاهد الدمع ينحدر من عينيها تأثر من منظرها واستعظم كتمانها حالها عن محمد ، فقال لها : « كيف اكتم عنه حالك وقد عهد الى فى العناية بك ؟ »

قالت : « افعل ما أقول لك . اتركنى هنا واذهب اليه لعله يحتاج اليك فى شىء ، وانا لا بأس على فى هذا الدير فان أصحابه أهل ضيافة ورعاية ، وقد صرت على مقربة من معسكر أم المؤمنين ، وبعد أيام انقه من جرحى فأذهب اليها والاتكال على الله »

فتركها ومضى الى غرفة الرئيس ، فرآه خارجا ، فسأله عن رأيه فى جرح أسماء ، فطمأنه بألا خوف منه ، وبأنه سيتولى العناية بها حتى تشفى

وبات مسعود هناك ، وفى الصباح خف الى رؤية أسماء فسر لتحسن حالها ، ثم ودعها ومضى وهى تلح عليه فى ان يطمئن محمدا عنها



عود إلى السر

قضى رئيس الدير نهاره وليله ينظر الى اسماء ، ويجهد فكره لعله يتذكر عنهـا شيئا فلم يفتح عليه ، ثم خرج لوداع مسعود وعاد اليها وكانت قد تعبت من الرقاد وجلست فى الفراش ، فلما دخل نظرت اليه وتأملت وجهه فتذكرت انها رأته مرة قبل ذلك فى دمشق يوم سفرها منها مع أمها الى المدينة . وكانت قد لحظت تفرسه فيها ، فلما عاد من وداع مسعود جلس على طنفسة بقرب فراشها فنظرت اليه وقالت : « ألا تذكر ياحضرة الاب المحترم انك رايتنى قبل الآن ؟ »

قال : « هـذا ما شـغل بالى منذ أتيتنا امس ، ولكننى لا اذكر اين رايتك »

قالت : « أظنك رأيتنى فى دمشق فى العام الماضى »

فلما سمع قولها انبسطت أسارير وجهه ، وتفرس فى وجهها وقال : « نعم ، نعم . رايتك مع أمك وقدجئتما الى كنيسة ماريوحنا فى دمشق لزيارة القسيس مرقس الشيخ البار . نعم اذكر ذلك . أين أمك ؟ »

فلما سمعت أسماء ذكر امها ترقرقت الدموع فى عينيها فبادرت الى مسحها بطرف كمها وسكتت

فأدرك الرئيس ان هناك أمرا محزنا دعاها الى البكاء فسكت قليلا ثم قال : « هل أصابها سوء ؟ »

فقالت وهى تبكى : « نعم يا سيدى انها ماتت وا أسفاه عليها ولولا مماتها . . » . وشرقت بدموعها

فأطرق الرئيس ونظر الى الراهب ، وكان ما زال جالسا ، وأشار اليه أن يخرج من الغرفة ففعل . فلما خلا الرئيس الى أسماء جعل يخفف عنها ويعزيها حتى هدأ روعها ثم قال لها : « وهل عرفت اباك؟ »

فلمـا سمعت سـؤاله آنست من ورائه نورا لعلهـا تهتدى به الى استطلاع ذلك السر الذى كانت تظنه دفن مع امها . فقالت : «لا ياسيدى لم اعرفه وهل تعرفه انت ؟ » . فسكت ثم قال : « لا يا ابنتى ، لست اعرفه ولكن » . وسكت

فقالت : « ولكن ماذا ؟ قل ياسيدى ان معرفته تهمنى كثيرا ، وقد

كنت احسب امر ابى مكتوما عن كل بشر سوى امى . ولما توفيت حسبته ضاع ودفن معها . فكيف عرفت انت ان ابى مجهول ، وقد كان ذلك سرا مكتوما عن كل انسان على ما اعلم ، فاطلاعك عليه يستلزم معرفتك حقيقته ، فهل تعرف شيئا عنه ؟ » . قالت ذلك بلهفة

فلبث الرئيس الشيخ صامتا يجيل اصابعه فى لحيته كأنه يكتم امرا ود لو انه ظل كذلك . ولكنه لما رآها متلهفة قال لها : « صدقينى يا ابنتي انى لا اعرف من هو ابوك ، ولكننى اعلم ان الذى كان مع أمك يوم رأيتك فى كنيسة ماريوحنا بدمشق ليس أباك »

قالت وهى تخفض صوتها احتراما لمقام الرئيس وشيخوخته : « وكيف عرفت ذلك ياسيدى ؟ ربما لايهمك امر هذا السر مطلقا ولكنه يهمنى كثيرا لأننى علمت كذلك أن يزيد الذى كان مع أمى رحمة الله عليها ليس ابى ، وان لى اباغيره كانت أمى قدوعدتنى بذكره فقضى الله بموتها قبل وصولنا واحسرتاه عليها . . فظللت مجهولة النسب . واظن ان الله قد أراد كشف هذا الذل عنى على يدك » . قالت ذلك وهمت بتقبيل يده وهى تقول : « اتوسل اليك أن تطلعنى على ماتعرفه فى هذا الشأن »

وكانت تتكلم والرئيس مطرق، فلما انتهت من كلامها رفع نظره اليها وقال : « قلت لك يا ابنتي انى لا أعرف من هو ابوك ، واما كيف عرفت ان لك أبا غير يزيد ، فلهذا قصة لا بأس بأن ارويها لك لعلها تفيدك »

فاعتدلت أسماء فى مجلسها ويدها على جنبها المجروح تضغطه تخفيفا للألم واصغت لما يقوله الرئيس

فقال : « اتذكرين يوم جاءت أمك الى كنيسة ماريوحنا فى دمشق وكنت انت معها فتركتك مع زوجها خارجا ، ودخلت هى لوداع القسيس الشيخ مرقس قسيس الكنيسة ثم خرج بعد ذلك لوداعك؟ »

قالت : « نعم ياسيدى اذكر ذلك الشيخ الهرم وخروجه لوداعنا »

قال الرئيس : « قد كنت انا يومئذ ضيفا عنده ، فلما عاد رأيت على وجهه آثار القلق ، فقلت له : (مابالك ؟) . فقال : (ان لهذه المرأة سرا عهدت به الى منذ بضع وعشرين سنة ، وهى الآن شاخصة الى المدينة لتبوح به هناك، واخشى لضعفها ومرضها ان تموت قبل وصولها فاذا حدث ذلك ظل الامر مكتوما عندى وحدى ، وأرانى قد شخت وربما دنا أجلى فيذهب السر ضياعا وهو يهم ابنتها التى كانت معها) . فقلت له : (أهو سر اعتراف ؟) . قال : (نعم) . فقلت : (لاسبيل اذن الى كشفه لى ، ولكننى اود ان اعرف موضوعه بحيث لايكون فى ذلك ما يعد اباحة) . فتردد كثيرا قبل ان يجيبنى ثم قال : (ان الفتاة

التى رأيتها مع هذه المرأة هى ابنتها ، وأهل دمشق يظنون هذا الرجل اباها ، ولكنه ليس كذلك) . فقلت : (ومن هو أبوها اذن ؟) . قال : (لا استطيع كشف هذا السر الآن ، ولكنه سيظهر بعد قليل لأن المرأة منطلقة بنفسها لكشف أمرها لأصحاب الشأن فى يثرب ــ المدينة ــ لأن ابا الفتاة الصحيح احد كبار المسلمين هناك) . . »

فبغتت أسماء وخفق قلبها . فصعد الدم الى وجهها فتورد بالرغم من ضعفها وتطاولت بعنقها لسماع الحديث . فلما وقف الرئيس عند هذا الحد قالت بلهفة : « وما هو اسمه ؟ » . قال : « لا أعلم يا ابنتى ولم اسأل القسيس عنه لعلمى انه لايبوح به حفظا لسر الاعتراف »

فبهتت وقد عاد اليها اصفرارها للهفتها وتأثرها وقالت : « وكيف يكون ذلك وأنا لا أعرف يثرب قبل هذه المرة . ولم أسمع أمى تذكرها ! »

قال : « علمت يا ابنتى ان أمك كانت تبالغ فى اخفاء هــذا الامر عن كل انسان ، لأنها رومانية الاصل حملهـــــا بعض قواد المسلمين الذين فتحوا الشام فى جملة الســبايا وأهداها الى أبيك . فمكثت عنده بضع ليال ، ثم قدم عليها أخوها خلسة وحرضــها على الفرار . ففرت الى دمشق ، ولم تستطع الظهور خوفا من العيون فيممت مصر . فظهر حملها هناك وقبل أن تضعك طلبت القسيس مرقس وكان فى كنيسة المعلقة ، وكانت تعرفه من الشام واعترفت له بسرها ، وذكرت له اسم أبيك . ثم كانت الحرب بمصر ففتحها العرب ، وقتل خالك ، ووقعت أمك بين السبايا ثانية وأنت طفلة . فتزوجها يزيد الذى تعرفينه وأقام بها بدمشق وأنت معها . فلا تعجبى لاغفالها ذكر أبيك لأنها كانت تعد نفسها مجرمة ، وتخشى اذا عرف مكانها أن يقتص منها »

ولم يتم الرئيس كلامه حتى استولت البغتــة على أســماء وعرتها الدهشة ولبثت صامتة وهى تأمل أن يكون الرئيس عارفا اسم أبيها ، فتوسـلت اليه أن يخبرها به . فأكد لهـا انه لايعرفه ثم قال : « اذا لقيت القسيس مرقس فى دمشق فانه يطلعك عليه ، وربما أطلعك على أمور كثيرة ، فأسرعى اليه حال شفائك قبل ان يقضى أجله لأنه شيخ طاعن فى السن . أنظرى الى شيخوختى واعلمى انى اذا قيست الاعمار بالسنين كنت أصغر من أولاده »

وكانت أسماء قد تعبت من الجلوس فلما يئست من معرفة اسم أبيها من الرئيس غلبها التعب على أمرها فألقت بنفسها على الفراش وتنهدت تنهدا عميقا وهى صامتة تفكر فيما سمعته ، واشــتاقت نفسها الى المسير الى دمشق ، لعلها تلقى القسيس فيقص عليها الخبر

وقعة الجمل

قضت أسماء فى الدير اياما تتقلب على فراش الوجع والقلق ولا تدرى اذا هى شفيت هل تسير الى دمشق لمقابلة القسيس أم الى أم المؤمنين لأداء مهمتها . وكانت تتململ لانحباسها فى الدير فلم تستطع الوقوف والخروج الى فناء الدير الا لتتمرن على المشى

وصعدت ذات يوم الى سطح الدير فأطلت منه على سهل واسع رأت فى آخره مما يلى البصرة معسكرا فيه الخيام والاعلام وحوله الجمال ترعى فى بعض المغارس ومعها العبيد ، فعلمت انه معسكر أم المؤمنين فى ضاحية البصرة ، وكان الوقت أصيلا فجعلت تفكر فيما تنويه من مخاطبة أم المؤمنين وما تتوقع ان تسمعه من دفاعها وتهيىء الرد عليه . وبقيت غارقة فى تصوراتها حتى مالت الشمس الى المغيب فنظرت اليها وقد كبر جرمها وتكورت ومالت الى الاحمرار. فاشتغلت بالنظر الى الافق والتمتع بذلك المنظر البديع . ولم تكد تغيب الشمس حتى أحست بالبرد فدخلت تلتمس الدفء فى الفراش ، فباتت تلك الليلة وهى تتوقع ان تصبح ناقهة فتنظر هل تسير الى معسكر أم المؤمنين أم الى الشام

فلما أصبحت شعرت بنشاط ، ولكنها لم تأنس من نفسها القدرة على ركوب الجمل أو الجواد . فلم تر بدأ من الاصطبار حتى يتم التئام الجرح وتتقوى ، فالتمست من رئيس الدير ان يأذن لها فى الخروج للرياضة فى بساتين الدير ، فأذن لها فخرجت وحدها الى البستان تمشى الهوينى ، فابتعدت عن الدير مسافة طويلة وهى لاتدرى ، فانكشف لها من الافق قسم كان مستترا وراء التلال فرأت فيه خياما واعلاما وجمالا وعبيدا ، وما كادت تتفرس فى ذلك الحشد العظيم حتى علمت انه معسكر الامام على فخفق قلبها ومشت قليلا حتى دنت من اكمة صعدت اليها وجعلت تتأمله ونفسها تحدثها بالذهاب اليه لعلها ترى محمدا فيه أو تسمع شيئا عنه ، على انها تشاءمت من قدوم جيش الامام لأنه نذير الحرب

وبينما هى هكذا ، اذ سمعت صوت رجل يزجر جملا على مقربة منها التفتت فاذا ببعير سائب يعدو ورجل يركض فى أثره يستنجد الناس

ليعينوه على القبض عليه ، فلم يسع اسماء السكوت مع ضعفها فاعترضت الجمل ليرجع ، وكان قد جمح ولكنه ظل مسرعا فى سبيله فركضت نحوه وتعلقت بعنقه لأنه لم يكن له رسن فظل راكضا واسماء ممسكة عنقه بذراعيها كأنها تحاول الصعود الى ظهره . ولكنها ما لبثت ان شعرت بخور قواها واحست كأن شيئا تمزق فى مكان الجرح واشتد بها الالم حتى لم تعد تستطيع صبرا عليه . وكان البعير فى أثناء ذلك قد قلل سرعته فادركه صاحبه وامسك بعنقه حتى اناخه ، فسقطت اسماء الى الارض لا تعى من شدة الالم

وكان صاحب البعير شابا من عبد القيس احدى القبائل التى انجدت عليا وجاءت معه للحرب ، فلما راى اسماء ساعدته فى القبض على بعيره ثم راى ما الم بها من التعب حتى سقطت خائرة القوى ، شعر بانه السبب فيما اصابها فدنا منها واجلسها وقد بهره جالها واعجبته هيئتها فكلمها فأفاقت ويدها على جنبها تتقى الالم . ولما رات ذلك الغريب بجانبها علمت انه صاحب البعير . اما هو فحالما نظرت اليه هابها ، ولم يسعه الا الاعتذار عما اصابها بسببه

اما هى فتجلدت وضغطت جنبها بيدها واغتنمتها فرصة لاستطلاع امر ذلك الجند ، فقالت له : « ممن انت ؟ » . قال : « من عبد قيس »

قالت : « ومن هؤلاء الجند الذين امامنا ؟ »

قال : « أما سمعت بما قام بين الامام على وأم المؤمنين »

قالت : « سمعت وعلمت ، وهل هذا الجند هو جند الامام على ؟ ».

قال : « نعم ونحن فى نجدته لاعتقادنا فضله على سائر الناس »

قالت : « وكم عدد رجاله ؟ »

قال : « عشرون الفا بين راجل وفارس »

قالت : « أتعلم عدد جند أم المؤمنين ؟ »

قال : « اظنهم ثلاثين الفا »

فبهتت وهى تفكر فى الفرق بين الجيشين ، والالم يمنعها من مواصلة الكلام ، على انها تشددت وقالت : « ولمن ترى الغلبة ؟ »

فابتسم الشاب وقال : « لقد قضى الامر امس »

قالت : « ماذا تعنى ؟ » . قال : « لقد تم الصلح وانصرف العداء »

فبغتت اسماء ولم تصدق مقاله فقالت : « وكيف ذلك ؟ اصدقنى الخبر » . وشعرت مذ سمعت خبر الصلح بنشاط ساعدها على النهوض ، فمشت وهى تخاطب الرجل حتى جلست على حجر تحت شجرة ، واسندت ظهرها اليها وضغطت الجرح بكفها فوق اثوابها فأراد

الرجل ان يشرح لها أصل العداء لظنه انها خالية الذهن منه ، فابتدرته قائلة : « لا تشرح القصة فاني اعلمها ، ولكن اخبرني كيف تداعوا الى الصلح »

فعجب الرجل لعلم أسماء ، وود لو يعرف من هي ، ولكنه اجابها عن سؤالها قائلا : « وصل جيشنا الى هنا أمس ، فلما تقابل الجيشان خرج من جيش ام المؤمنين طلحة والزبير على فرسيهما يطلبان المبارزة فخرج اليهما الامام على حتى اختلفت أعناق دوابهم ونحن ننتظر عاقبة ذلك الملتقى ، لأنه سيكون قاضيا اما علينا واما لنـــا ، فتجاولوا مدة ونحن ننظر اليهم لنرى مايبدو منهم ، فاذا هم وقوف يتخاطبون. وعلمنا بعد رجوع الامام انه لما لقيهما قال لهما : (لعمرى قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، ان كنتما أعددتما عندالله عذرا فاتقيا الله ولاتكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا . الم اكن اخاكما فى دينكما تحرمان دمى واحرم دمكما ، فهل من حدث احل لــكما دمى) . فقال طلحة : (ألبت على عثمان) . قال على : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. ياطلحة تطلب دم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، ياطلحة أجئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت ، أما بايعتنى ؟) . قال : (بايعتك والسيف على عنقى) . وقال على للزبير : (ما اخرجك؟) قال : (أنت ولا أراك لهذا الامر أهلا ولا أولى به منا) . فقال له على : (الست له أهلا ، قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا) . وذكره أشياء وقال له : (أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم فنظر الى فضحك وضحكت اليه فقلت له : (لايدع ابن أبى طالب زهوه) . فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس بمزه ، لتقاتلنه وأنت ظالم له) . فقال الزبير : (اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا اقاتلك ابدا)

« وهكذا عاد الامام الينا بالخبر ، وتوسمنا خيرا من ندم أولئك على عملهم ، ثم علمنا ان الزبير لما رجع من ساحة المبارزة ســار توا الى أم المؤمنين فقــال لها : (ماكنت فى موطن منذ عقلت الا وأنا أعرف فيــه أمرى ، غير موطنى هذا) . فقالت له : (ما تريد أن تصنع ؟) . قال : (أريد أن أدعهم واذهب) . فوبخه ابنه عبــد الله وقال : (جمعت بين هاتين الفئتين ، حتى اذا حدد بعضهم لبعض ، أردت أن تتركهم وتذهب ، ولكنك خشيت رايات ابن أبى طالب ، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، وان تحتها الموت الاحمر فخفت) . فاعتذر الزبير بأنه حلف ألا يقــاتل عليا ، ثم تفاوضوا بعد ذلك مع طلحة وغيره ، فتم الاتفاق على الصلح ، وبتنا ليلتنـــا البــارحة والقلوب هادئة ، وكل فرح بما حقن من دماء المسلمين »

فلما سمعت اسماء كلام الرجل اشرق وجهها وابرقت أسرتها ونسيت ألمها وضعفها ، وقالت : «بشرك الله بالخير يا أخا عبد القيس» . وارادت الاستفهام عن محمد ومقامه ، فقالت : « وهل جاء أهل الكوفة لنصرة الامام ؟ »

قال : « لقد جاءوا بعد أن ترددوا كثيرا »

قالت : « كيف يترددون فى نجدة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « ذهب اليهم اولا محمد بن ابى بكر ومحمد بن جعفر ، فلقيا أبا موسى الاشعرى عامل الكوفة ، فكلماه ففضل القعود على المسير ، فعادا بذلك الى الامام فأرسل الاشتر وابن عباس ، فعادا ولم ينالا وطرا ، فأرسل ابنه الحسن وعمارا بن ياسر فجاءا الكوفة ، وكانت عائشة قد ارسلت رسلها تدعو الناس الى نجدتها ، وظل أبو موسى يحرض الكوفيين على القعود فلا يسيرون مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فجادلهم الحسن حتى أقنعهم بأن يقوموا لنصرة أمير المؤمنين فجاء منهم تسعة آلاف »

فأدركت اسماء من حديثه ان محمدا فى معسكر الامام على ، وكانت قد تعبت من الجلوس على الحجر فنهضت تلتمس الدير لمداواة الجرح لأنها شعرت وهى قابضة عليه أن الدم يسيل منه . فأحس الرجل بمرادها فأراد مساعدتها فى المشى فأبت فرافقها حتى دنت من الدير فودعها وعاد بجمله يطلب المعسكر

أما هى فالتمست حجرتها فلقيها الرئيس عند الباب فسألها عن حالها فقصت عليه حديث الجمل ووقوعها . فهم بالجرح فأعاد تضميده وبشرها بألا خوف منه ، فلبثت تفكر فيما سمعته وكانت كلما تمثل لها وقوع الصلح يكاد قلبها أن يطير فرحا لنجاتها من مصائب كثيرة وحقن دماء الناس . على أنها وهى فى وسط هذه المسرات تذكرت ما سمعته من الرئيس عن أبيها ، فانقبضت نفسها مخافة أن يضيع خبره ، فصممت عزمها على أن تسافر الى دمشق حالما تستطيع الركوب ، لتقابل القسيس الشيخ وتعرف منه من يكون أبوها

□

قضت اسماء اياما وهى تتوقع فى كل يوم أن ترى محمدا آتيا الى الدير لمشاهدتها ، لعلمها ان مسعودا قد اطلعه على ما أصابها ، فلابد من مجيئه ولاسيما انه على مقربة منها . فلما مضت أيام ولم يأت أيقنت ان مسعودا لم يره بعد ذهابه من الدير . وكان الجرح قد التأم فلم تر بدا من لقاء محمد لتخبره بعزمها على المسير الى دمشق وتسأله دابة تركبها وخادما يسير فى ركابها . ولكنها تذكرت الحسن وما لحظت منه

يوم كانت فى المدينة فخافت الا يرضى محمد بذهابها الى المعسكر فعزمت على استقدامه اليها ، فكتبت ورقة بذلك واستاذنت رئيس الدير فى ارسال أحد خدمه بها ، فجاءها ببعضهم ، فاختارت أحدهم وافهمته كيف يسير والى من يسلم الورقة ودلته على الجهة التى يلقى فيهاجيش الامام على

فخرج وجلست هى فى فراشها تنتظر رجوعه ومحمد معه . وكلما تصورت لقاءها محمدا اختلج قلبها فى صدرها واعدت عبارات تخاطبه بها تسفر عما فى نفسها ، وقد أهمها من الصلح انقضاء تأجيل الزواج فأخذت تعد نفسها بالسعادة المستقبلة ولاسيما اذا تمكنت من معرفة اسم ابيها الصحيح

قضت ساعة وبعض الساعة فى مثل هذه الهواجس وهى كلما سمعت سعال رجل أو وقع اقدام أو جعجعة بعير او صهيل فرس ظنت رسولها عائدا ومعه محمد . ولم تعد تستطيع صبرا على الانتظار فصعدت الى سطح الدير تستطلع قدومه عن بعد ، ولم تكد تخطو خطوتين فوق السطح حتى رأت رسولها راجعا يعدو ويلتفت وراءه ، فاضطربت ولبثت تنتظر وصوله فما عتم أن وصل وهو يلهث من شدة الجرى . فقالت : « ما وراءك ؟ » . قال : « خرجت من الدير الى الجهة التى رسمتها لى ، فما وصلت الى المكان حتى رأيت النبال تتطاير فى الجو ، فلما اشرفت على المعسكر رأيت الحرب محتدمة »

فبغتت أسماء وقطعت كلامه قائلة : « الحرب ؟ . بين من ، ومن ؟ »

قال : « سألت بعض العبيد ممن كانوا يلتقطون النبال المتساقطة خارج المعسكر ، فأخبرنى ان قد نشب القتال بين الامام على وعائشة ، وكانوا قد ابرموا صلحا فنقضوه »

قالت : « لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن نقضه .. ؟ »

قال : « لا أدرى ولكن العبد اخبرنى انهم باتوا على الصلح فأصبحوا فاذا بجيش عائشة على الحرب » . فقالت : « الم تلق محمدا ؟ »

قال : « وكيف القاه وانا لم أستطع الدنو من المعركة مخافة أن تصيبنى النبال فأموت ولايبقى من يرجع اليك بالخبر . فثارت الحمية فى رأس اسماء ولم تر بدا من العدول عن دمشق الى معسكر ام المؤمنين لتكلمها فى الرجوع الى الصلح قبل أن يتفاقم الخطب »

فسألت رئيس الدير عن دابة تركبها فقال : « ان خادمك الاول ترك هنا جملك الذى جئت عليه »

قالت : « اين هو؟ » . فأمر الرئيس باعداده للركوب ، وذهبت أسماء الى حجرتها وجعلت ثيابها على شكل مشابه ثياب الرجال ، وشدت

وسطها بمنطقة عريضة والتفت بعباءة وغطت راسها بكوفية وتقلدت حساماكان قد أعطاها اياه محمد يوم سفرها مع مسعود، وركبت الجمل، وولت وجهها نحو معسكر أم المؤمنين، وكان الوقت ضحى وهي للهفتها لم تودع الرئيس حتى اذا بعدت عن الدير تذكرت ذلك فالتفتت اليه واشارت بالسلام بيدها وراسها . ولم تبعد عن الدير قليلا حتى أطلت على المعركة فرأت السهام تتطاير من كل جانب حتى كادت تحجب اشعة الشمس بدلا من الغبار ، لأن الجو كان قد امطر فى ذلك الصباح فتماسك التراب . ووقفت هنيهة ريثما تعرف الطريق الذى يؤدى الى أم المؤمنين . فرأت الرجال يهرعون يمينا وشمالا وفيهم المشاة والفرسان وسمعت النساء من وراء الجمع يحرضن الرجال على الثبات ، وكان الجو صافيا لاغبار فيه فجعلت تتفرس فى الرجال عساها أن ترى محمدا فلم تره ، ولكنها أدركت ان النصر للامام على لأنها رأت رجاله يتقدمون ، والآخرين يفرون أمامهم ويعثر بعضهم بجثث جرحاهم وقتلاهم ، فأجالت بصرها لعلها ترى فسطاط عائشة لتسرع اليها وتخاطبها فى الكف عن القتال ، فلمحت مروان بن الحكم على فرسه يتعقب فارسا آخر علمت انه طلحة وقد رماه مروان بسهم فى رجله فشكها فى صفحة الفرس . ثم رأت طلحة حول عنان جواده نحو البصرة وترك الجيشين يقتتلان ، فعلمت انه انما ذهب اليها لجرح بليغ أصابه ، فتأكدت فشل جند مكة . ولكنها عجبت لما فعله مروان بطلحة وهما من جند واحد . على انها أولت فعله بطمعه فى الخلافة لبنى أمية ، وعلمه بأنها اذا خرجت من يد الامام على ، فلن تكون لغير طلحة أو الزبير ، فاذا قتل هذان فلا يبقى من يتنافس فيها بنى أمية

□

وبينما هى تتأمل حركات الجيش وتسمع ضجيج الناس ومقارعة السيوف والرماح وصهيل الخيل ، رأت فى معسكر أم المؤمنين فسطاطا كبيرا علمت انه فسطاطها ، ولكنها لم تر ازدحاما فارتابت فى أمره ، ثم لمحت جمعا متكاثفا حول هودج فوق بعير فعلمت من لون الهودج وشكله انه هودج أم المؤمنين فساقت جملها اليه ، ولكنه لم يسعفها ، ثم رأت فرسا تائها خارج المعركة فأسرعت اليه وركبته ، وسارت تلتمس الهودج ، ولم تكد تصل الى وسط المعركة حتى رأت فارسا خارجا منها يطلب عرض البر لا يلتفت وراءه ، فعرفت انه الزبير وتذكرت انه اقسم الا يحارب عليا ، فقالت فى نفسها : « قد فر الزعيمان ولا اخال ام المؤمنين اذا علمت ذلك الا آمرة بالكف عن القتال » . فاخترقت

المعركة لاتبالي مايتساقط عليها من النبال او يعترض فرسها من جثث القتلى والجرحى ، ولم تدن من الهودج حتى سمعت ام المؤمنين تصيح بصوتها الجهوري وتنادى احد رجالها وقد مدت يدها من الهودج وفيها المصحف وهي تقول : « اليك ياكعب . ادع الناس الى هذا المصحف » . فلم يكد الرجل يتناوله حتى أصيب بنبل فقتل . وكانت أسماء قد وصلت الى الهودج فرات الرجال حائمين حوله وعائشة تقول : « ايها الناس ، العنوا قتلة عثمان واشياعهم »

فترجلت اسماء واقبلت الى الجمل فرات الهودج قد اصبح كالقنفذ لكثرة ماغرس فيه من السهام المتساقطة ، وارادت التسلق على الجمل لتلقى عائشة فى الهودج فاعترضها بعض الرجال ، فأزاحت لثامها ونادت أم المؤمنين ، فعرفت صوتها فاذنت لها ، فقال قائل من الوقوف : « هبى اننا اذنا لك بالصعود على الجمل تسلقا فهل تستطيعين ذلك » . فتذكرت ما اصابها من تسلق جمل الامس ، فعادت الى فرسها واتصلت منه بالهودج ، وام المؤمنين تعجب لوجودها هناك . اما أسماء فترامت على قدمى ام المؤمنين وهى تقول والدمع ملء عينيها : « اشفقى يا أماه على أولادك ، احقنى دماءهم ، ارحمى ابطالا يوحدون الله ، لقد كفى ما اصابهم من البلاء ، فمرى بالكف عن القتال ، ان السلام بين شفتيك وانت ام المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . ثم ان طلحة والزبير اللذين اضرما نار الفتنة قد فرا من المعركة ، فانهضى واطلى على الجندين وانظرى القتلى من الفريقين »

وكانت اسماء تتكلم بخشوع وتذلل ، وهى جاثية عند قدمى عائشة . وكانت عائشة فى ابان اضطرابها لاتملك وقتا للنظر فى الامر والناس حول هودجها يتلقون مايتساقط عليه من السهام حتى قتل عند خطام الجمل اكثر من اربعين رجلا . فنظرت الى اسماء وقد أثر فيها كلامها ، مع ما توسمته من فشل جندها وقالت : « لقد كنا على موعد للصلح ، فلا ندرى ماحملهم على نقضه ؟ »

فقالت اسماء : « انهم يقولون بأنكم الناقضون »

قالت : « كلا . لقد بتنا مصالحين ، فأصبحنا واذا هم يقاتلوننا »

قالت اسماء : « ان فى الامر دسيسة فلعل بعض الاعداء سعى فسادا فأوقع الشقاق بينكم ، وعلى كل حال ان الصلح قريب وتكفى كلمة منك لحقن الدماء »

قالت ام المؤمنين : « لقد قضى الامر ولم يعد الرجوع مستطاعا ، فلا تلتمسى ذلك منى » . قالت ذلك وفى لهجتها وملامحها مايزجر اسماء عن الكلام . فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل حتى أصبح

كل من بقي من رجالها يدافع عن جملها

وهمت اسماء بالنزول من الهودج ولكنها لم تجسر تهيبا من عائشة ، ثم سمعت صوت علي يقول : « اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا » .
ولم يكد يتم امره حتي احست اسماء بسقوط الجمل وهو يهدر من الالم ، فعلمت انهم عقروه ، فهمت بالخروج من الهودج ، ولكنها اطلت قبل ذلك فرات كل من حوله من الرجال تفرقوا وعلي يقول لرجاله : « ارسلوا من ينادي فى الناس الا يتبعوا مدبرا ولايجهزوا علي جريح لايدخلوا الدور » . ثم قال : « احملوا هذا الهودج من بين القتلى » .
حملوه وهي ما زالت فيه مع ام المؤمنين، وهذه غافلةعنها لعظم ما الم بها . وكانت اسماء تنظر اليها وهي متهيبة خشية ان تنتهرها وربما لا تستطيع جوابا . ثم سمعت عليا يقول : « يامحمد يا ابن ابي بكر ، اضرب على اختك قبة ، وانظر هل وصل اليها شيء من جراحة »

فلما سمعت ذكر محمد وما امره به علي ، لبثت تنتظر ان تراه مطلا من الهودج وقلبها يخفق . أما هو فلما ادخل راسه فى الهودج ورأى اسماء مع اخته ، ذهل ، ولكنه تجلد ولم يكد يتكلم حتى سمع اخته تقول : « من انت ؟ » . قال : « اخوك »

قالت : « الحمد لله الذى عافاك »

واشار محمد الى اسماء أن تخرج ، فخرجت ونظرت الى ماحولها فرات الارض قد خلت من الناس غير من قتل او جرح جرحا بليغا فلا يستطيع المسير . وسمعت انين الجرحى ورات الدم جاريا قنوات، والخيل والنوق سارحة بعضها يعرج وبعضها يهدر من الجراح ، ورات فى بعض تلك الدواب سهاما لاتزال مغروسة فى رقابها أو اعجازها . وكان المنظر رهيبا محزنا مؤثرا . وفيما هي تنظر فى ذلك اذ رات عليا دنا من هودج ام المؤمنين وقال : « كيف انت يا اماه ؟ »

قالت : « بخير »

قال : « يغفر الله لك » . قالت : « ولك »

ثم امر اخاها ان يدخل بها البصرة لتستريح

وفيما هو يتكلم راى اسماء واقفة فعرفها . فلما راته ينظر اليها لمت بيده فقبلتها وقد علتها البغتة واحمرت وجنتاها خجلا فقال : اين كنت يا أسماء ؟ »

ثم سمع صوت ام المؤمنين تقول من داخل الهودج : « اكرموا هذه الفتاة ، فوالله اني ما رايت اكثر غيرة منها على الاسلام ولا اصدق لهجة في الدفاع عن الحق ، وهي انما خاطرت بحياتها واتتني تحت النبال المتساقطة تلتمس الكف عن القتال »

فخجلت أسماء لهذا الاطراء واطرقت ، فقال لها علي : « بورك فيك يابنية ، اني توسمت فيك هذا الخير منذ رأيتك للمرة الاولى . تعالى »

ثم سار وسارت فى أثره وهى مطرقة ، وهو فى شاغل بأمر الجرحى ، والامر بدفن القتلى . ثم علم ان طلحة والزبير قتلا فأخبرته اسماء بما رأته من مروان . فقال : « لاتعجبى ممن كان سبب هــذه الفتنة ان يفعل مثل ذلك »

وظلوا سائرين الى البصرة حتى دخلوها ، فنزل علي فى دار العامل بقرب المسجد ، وتواردت الناس لمبايعته وقدسلم الامر له وخلا له الجو

ونزلت أسماء فى تلك الدار مع بعض النسوة ممن جئن مع الامام ، وكانت عرفتهن أثناء اقامتها بالمدينة . وظلت أياما تحاول أن ترى محمدا دون أن تستطيــع ذلك ، اذ شــغله الامام على بأمر العناية بأختــه أم المؤمنين ، فلم يكن يستطيــع التخلى عنهــا ، فرأت أن تسير هى اليه بحجة زيارة أم المؤمنين

فلما التقيا ، سألته عما أقعده عن زيارتها مع علمه أنها كانت جريحة فى الدير ، فاستغرب قولها واكد لها انه لم يكن يعرف عنها شيئا ، لأن مسعودا لم يعد اليــه وهو لايعرف مقره ثم قال : « ها قد انقضــت الحرب وانتصر الامام والحمد لله ، وآن لنا السكون والاجتماع »

فسكتت اســماء وقــد ادركت انه يشــير الى الزواج ، ثم قالت : « ولكننى على اهبة السفر الى الشام »

قال : « ولماذا ؟ » . قالت : « لأعرف اسم أبى »

قال : « وكيف ذلك ومن يخبرك عنه ؟ » . فقصت عليه خبر رئيس الدير ، فعجب واصبح أكثر منها اشتياقا لمعرفة ابيها وارتفع مقامها فى عينيه لما علم انها ابنة أحد كبار الصحابة فى المدينة ، فقال لها : « لايبعد ان تكون بيننا قرابة قبل القرابة التى نسعى فيها اليوم »

فعاودها الخجل، وغيرت مجرى الحديث فقالت : «وكيف أم المؤمنين؟ »

قال : « هى فى خير وقد أمرنى الامام باعدادمايلزم لسفرها الى مكة ، وها انى أعد ذلك ، وقد جهزت لهــا أربعين امرأة من نســاء البصرة المعروفات ليسرن معها ، فاذا سافرت . . »

ولم يتم كلامه حتى رأى النــاس فى هرج يصــيحون : « جاء أمير المؤمنين » . ثم وصل على ، وكانت عائشــة قد تهيأت للسفر وأعد لها الهودج ، وجاء الناس لوداعها فخرجت لوداعهم ، فلما رأت عليا قالت وهى تنظر الى الناس : « يابنى ، لايعتب بعضنا على بعض ، انه والله ماكان بينى وبين على فى القديم الا مايكون بين المرأة وبيت أحمائها ، وانه على معتبى لمن الاخيار »

فقال علي : « صدقت والله ، ماكان بيني وبينها الا ذاك ، وانها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » . ثم قال لمحمد : « سر يامحمد مع أختك الى مكة »

فلما سمعت اسماء هذا الامر اضطرب قلبها ونظرت الى محمد ونظر هو اليها ففهم كل منهما ما فى ذهن الآخر

▭

وكان الحسن قد جاء مع ابيه لوداع أم المؤمنين ، فرأى اسماء وقد علم بما اظهرته من الغيرة علىالاسلام فازداد حبه لها وصمم علىخطبتها وهو لايعلم ما بينها وبين محمد . ثم علم ان أباه عازم على السير الى الكوفة لأخذ البيعة كما أخذها فى البصرة

وكانت اسماء لما ودعت محمدا عادت الى عزمها على التوجه الى الشام للاقاة القسيس مرقس وسؤاله عن ابيها ، وقد أصبح هذا الامر شغلها الشاغل ، فأتت عليا بعد سفر محمد لتودعه وتخبره بعزمها وتسأله رفيقا ودابة فلم تستطع مقابلته لكثرة المبايعين . فصبرت حتى سار ومن معه الى الكوفة فسارت مع السائرين

وقضت فى الكوفة اياما كأنها على جمر الغضا ، حتى اصبحت يوما وقد ملت الانتظار فصممت على الاستئذان فى السفر ، فسألت عن على فقيل لها انه فى مجلسه وحده ، فاستأذنت فى الدخول عليه فأذن لها ، فدخلت فاذا هو جالس فى قاعة واسعة ليس فيها أحد سواه . فلما رآها هش لها ورحب بها ، فهمت بتقبيل يديه وهى تقول : « نحمد الله على ما أولانا من نعمة فى احقاق الحق ، ونشكره على ما أولاك من النصر »

فتنهد وقال : « كنت أود أن تنتهى الفتنة ولايسفك فيها دم ، ولكنها أبت ان تنام الا على فراش من الدماء » . قال ذلك وسكت ثم قال : « وكنت عازما على استقدامك الى لأشكرك على سعيك فى هذا الامر فقد سعيت فيه سعيا حيدا » . فأطرقت ولم تجب

فقال لها : « ولنا فوق ذلك اقتراح نقترحه عليك عساه ان ينال موافقتك

فقالت : « انى امة اذا أمرت أطعت »

قال : « اننا نود استبقاءك عندنا فتكونين بمنزلة ولدنا »

فادركت اسماء ما وراء ذلك فاجفلت مخافة ان يتحقق ظنها ، لعلمها ما فى نفس الحسن ، ولكنها لم تستطع غير اظهار الاستحسان فقالت :

انى احقر من أن احظى بهذا الشرف العظيم »

قال : « لا ، بل انت اهل لافضل منه ، ولا اخفى عليك ان ولدى الحسن راغب فيك ، لما آنسه من غيرتك على الاسلام ورغبتك فى اعلاء كلمته ، فهل ترضين به خاطبا ؟ »

فلم تستطع اخفاء عواطفها بما ظهر على وجهها من الاحمرار السريع ولكنها تجلدت وقالت وهى تشكر : « انى لا استحق هذا الاكرام يامولاى لأنه فوق ماتتوقعه فتاة يتيمة غريبة مثلى ، كيف لا وفيه التقرب من اعظم رجال هذه الامة وابن عم النبى ، ولكننى جئت الى مولاى الامام الآن فى امراهمنى كثيرا وهويدعونى الى سفرقريب لا ارى منه بدا فجئت أستأذن امير المؤمنين فى شأنه »

قال : « وما ذلك ؟ » . قالت : « لا اظن مولاى ابا الحسن يجهل امر أمى يوم قدومها المدينة . وما ظننا اننا فقدناه من السر بوفاتها »

قال : « لا اجهله » . قالت : « ولعلك تعلم ياسيدى ان يزيد الذى كان معنا فى ذلك اليوم المشئوم ليس ابى »

قال : « ظننت ذلك به مذ رايته ، ثم سمعت انه ليس اباك »

قالت : « وكنت انا ايضا اعلم هذا فقد اخبرتنى به أمى ، ووعدتنى ان تذكر لى أبى الصحيح عند وصولنا الى المدينة ، فقضى الله بوفاتها قبل وصولنا ، وظننت ان سر ابى ذهب معها الى القبر ، فأسفت وبكيت ، ولكن المقادير ساقتنى بالامس الى دير بجوار البصرة بعد جرح اصابنى فى اثناء سفرى ، فاقمت به أياما أعالج الجرح ، وهناك رأيت راهبا عرفته ، وكنت قد رايته فى كنيسة دمشق قبل سفرى ، فاخبرنى خبرا اعاد الى آمالى » . فقال على : « وهل ذكر لك اسم ابيك ؟ »

قالت : « لا ، ولكنه أخبرنى ان قسيس كنيسة دمشق يعرفه لان امى اعترفت له به دون سواه » . ثم قصت اسماء ما اخبرها به رئيس الدير ، ولم تكد تتم كلامها حتى ظهرت الدهشة على وجه الامام لما سمع من ان والدها من كبار المسلمين فى المدينة ، وان امها جاءت المدينة للبحث عنه ، فعاد يسألها : « الم يخبرك عن اسمه ؟ »

قالت : « انه لا يعرف اسمه ، وهذا ما حملنى على الاسراع الى دمشق لاستطلع الخبر » . فامر لها بجواد وخادم امين وقال لها : « تنتظرين قافلة سائرة من الكوفة الى الشام تذهبين معها لانه يعسر سلوك الطريق على شخصين منفردين »

فشكرت . وودعته وخرجت وهى تود أن تطير الى دمشق لمقابلة القسيس وصممت على الاسراع ما استطاعت دون أن تنتظر قافلة ولا ركبا

معاوية وعمرو بن العاص

كان معاوية فى الشام مناوئا لعلى فى خلافته ناقما عليه ، وقد حرض اهل الشام على مطالبته بدم عثمان ، فجعل قميص عثمان واصابع نائلة امرأته على المنبر بدمشق ينظرهما الناس . فثار أهــل الشام وانكروا مبايعة على ، وبعث معاوية الى على بالطومار كما تقدم وهو عازم على مقاومته ما اســتطاع الى ذلك ســبيلا . وحدثته نفســه بأن يطلب الخلافه لنفســه ولكنه ما زال يرى ذلك بعيــدا ، حتى سمع بنقض طلحة والزبير بيعة على ومسيرهما فى اهل مكة الى البصرة ، فقال : « لأصبرن حتى ارى مايكون من عاقبة تلك الحرب » . ثم سمع بخروج على من المدينــة ووقعة الجمل ومقتل طلحة والزبير ، فعلم ان ليس ثمة من يطالب بالخلافة غيره

وكان عمرو بن العاص فاتح مصر فى اوائل الهجرة ومخرجها من ايدى الروم (سنة ٢٠ هـ) على عهد الامام عمر بن الخطاب قد تولاها واصلح شؤونها فلما افضت الخلافة الى عثمان بن عفان ، وكان عثمان على ماسلف من ايثاره ذوى قرباه فى ولاية الاعمال ، عزل ابن العاص عن مصر ، وعهد فى ولايتها الى اخيه فى الرضاع عبد الله بن سعد ، فخرج عمرو ناقما على عثمان . وكان من دهاة العرب المعروفين ، فلما كانت الفتنة وثار الناس على عثمان وجاء اهل الأمصار الى المدينة كان هو فى جملة الناقمين . ولكنه غادر المدينة قبل الحصار وسار الى فلسطين وأقام بها ينتظر ما يكون . فلما علم بمقتله قال : « انى قتلته وأنا فى وادى السباع » . وجعل يفكر فيمن يلى الخلافة بعده وقال فى نفسه : « ان يل هذا الامر طلحة فهو فتى العرب ، وان يله ابن ابى طالب فهو اكره من يليه الى »

فلما بلغته بيعة على اشتد عليه الامر ، ولبث ينتظر ما يصنع الناس ، فبلغه مسير أم المؤمنــين وطلحة والزبير الى البصرة ، فلبث ينتظر ما يكون من أمرهم ، فجاءه الخبر بوقعة الجمل وانتصار الامام على فأرتج عليه ووقع فى حيرة . ثم بلغه أن معاوية فى الشام لا يبايع عليا ، وانه يعظم شأن عثمان ، وكان معاوية احب اليه من على لأنه داهية

مثله ، فأخذ ابنيه محمدا وعبد الله وسار الى دمشق ، واتفق مع معاوية على المطالبــة بدم عثمان ، ونفس عمرو طامحة الى مصر يحن اليها لأنه فاتحهــا ، وكانت مصر يومئذ على دعوة على ، وعمرو يعلم أن عليــا لا يوليه اياها ، فلم ير خيرا من الانتماء الى معاوية فجعل يحرض أهل الشام على طلب دم عثمان ويقول لهم : « أنتم على الحق ، أطلبــوا دم الخليفة المظلوم »

قضت أسماء اياما فى مسيرها من الكوفة الى دمشق ، فلما اشرفت على غوطتها المشهورة بالخصب ، ونظرت الى دمشق عن بعــد رأتها فى منبسط من الارض تحف به الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء ، وفيها أغراس المشمش واللوز والسفرجل والخوخ والليمون والفاكهة على اختلاف أنواعها ، وفيها الاعشاب والرياحين ، وكلها يانعة تجرى بينها جداول من الماء القراح . وكانت أسماء ملتفة بالعباءة و « الكوفية » فوق جواد يسابق الريح ، ومعها الخادم على جواده ، فأقبلت على المدينة فى الصباح وقد تعطر نسيمها بشذا الازهار تتخلله نغمــات الأطيار ، فلم يشغلها ذلك كله عما قام فى خاطرها من الشوق للاطلاع على أصلها . فدخلت المدينة من باب الجابية بعد أن ترجلت وأمرت الخادم أن يسير فى أثرها بالجوادين وسارت ملثمة تلتمس كنيسة مارى يوحنا من أقرب الطرق وهى تعرف دمشق معرفة جيدة . محاذرة أن يراها أحد من أهلها أو جيرانها فيعرفها فيشغلها عما هى ساعية فى طلبه . وخوفا من أن ينتبه الناس لها اذا مشت والخادم والجوادان فى أثرها أمرت الخادم أن ينتظر فى خان دلته عليه وقالت له : « أمكث هناك حتى أعود اليك » . فأطاعها

وظلت هى سائرة حتى دنت من الكنيسة فتذكرت ان هذه الكنيســة العظيمة المعروفة باسم القديس مارى يوحنا قد أخذ المسلمون حين فتحوا الشام نصفها الشرقى وجعلوا فيه مسجدا يصلون فيه ، وتركوا النصف الآخر وهو الغربى للنصارى وفصلوا بين القسمين بحاجز . فالتمست الباب المؤدى الى القسم الغربى وهى بلبــاس الســفر . فاستقبلها خادم الكنيسة واستغرب مجيئها بعد الفراغ من الصــلاة فكلمها باللسان الرومى ، وكانت قد تعلمته من أمها ، فسألها عن غرضها فذكرت أنها تريد القسيس مرقس ، فدعاها الى الاستراحة على مقعد من رخام فى صحن الكنيسة ، وسار للسؤال عن القسيس ، فلبثت فى

نظاره وهى تلهى نفسها بما هناك من فخامة البناء كالاعمدة الضخمة لشاهقة والنقش البديع من الفسيفساء وغيرها ، فضلا عن الصور على الجدران والسقف فى اشكال غريبة والوان زاهية . ولم تكن تلك أول مرة دخلت هذه الكنيسة ولكن غرابة ذلك البناء وفخامته يلفتان النظر ويشغلان الخاطر فى كل آن

فما لبث الخادم أن عاد يدعوها الى غرفة الاستقبال لتقابل الشماس وتطلب منه ما تريد

فخرجت من الكنيسة الى دار فى وسطها بركة من الرخام يتدفق منها الماء كسائر دور الشام ، واتصلت من الدار بقاعة فخمة استقبلها فيها شماس لم تكد تراه حتى تذكرت أنها راته يوم زارت الكنيسة مع امها قبل سفرها الى المدينة ، فاستأنست به وسألته عن القسيس مرقس ، فدعاها الى الجلوس على بساط من السجاد وبين يديهما بركة اخرى أصغر من بركة الدار والماء يسيل من جوانبها الى قناة تحيط بها ويصرف منها . فلما جلست قال لها : « ان القسيس مرقس سافر منذ بضعة أشهر »

فأجفلت وقالت : « الى أين ؟ » . قال : « الى بيت المقدس »

قالت : « ومتى يعود ؟ » . قال : « لا أدرى متى يعود ، لأن سفره لم يكن لشأن خاص بالدير ولكنه خرج فرارا مما أقلق راحته من صوات البكاء والعويل التى ترن فى آذاننا كل يوم فى القسم الآخر من هذه الكنيسة »

قالت : « وما هو هذا العويل وعلى من ؟ »

قال : « ربما سمعت بمقتل الخليفة عثمان فى يثرب ، فان بعض رجال حاكمنا معاوية جاء بقميصه الملطخ بالدم واصابع امراته التى قطعت وهى تدفع بيدها عنه ووضعوها على المنبر الذى يخطبون فوقه ، وكلما اجتمعوا للصلاة وذكروا مقتل الخليفة صاح الناس رجالا ونساء ، شيوخا وأطفالا ، يبكون ويولولون حتى تكاد تتفتت القلوب . وكان ابونا القسيس فى أثناء ذلك مريضا مرض الشيخوخة فزاده ذلك الحال ضعفا ، فأشار عليه طبيبه أن يسافر الى القدس يقيم بها حتى تتغير الحال ، فسار ونحن فى انتظاره وقد بلغنا أنه ما زال مريضا »

فعادت تسأله : « الا تدرى متى يعود ؟ » .

قال : « لا . ولكن اذا كنت تريدين خدمة فاننا نؤديها بالنيابة عنه »

قالت : « انما أمرى منوط به هو وحده » . وفكرت فيما تصنع : هل تقيم هناك ريثما يعود ، أم تخرج الى الخان . وفيما هى صامتة

تفكر ابتدرها الشماس قائلا : « اذا شئت ان تقيمى ضيفة فى هذه الدار حتى يعود ابونا القسيس فعلى الرحب والسعة ، فان عندنا نساء يقمن بخدمتك »

ثم صفق فجاء الخادم فأمره أن يدل أسماء على غرفة القسيسة فصعد بها الى قاعة علوية فيها امرأة طاعنة فى السن بلباس أسود وعليها هيئة الكمال والوقار ، فنهضت لها واستقبلتها واجلستها الى نافذة تطل على بعض أبنية دمشق ، وأمرت لها بما تحتاج اليه من طعام فاعتذرت من تناول الطعام

وجلست أسماء وقد استأنست بتلك المرأة ولكنها ما زالت منقبضة النفس من عرقلة مساعيها لغياب القسيس وتصورت أن نحس طالعها قد عرقل أمورها وخيل لها أن القسيس مرقس سيموت فى القدس لضعفه وشيخوخته فيضيع السر وتذهب آمالها أدراج الرياح ، فخطر لها أن تذهب اليه وتستطلع السر ، وكانت تفكر فى ذلك والقسيسة تبالغ فى ملاطفتها وتدعوها الى نزع العباءة والكوفية وهى تمتنع

□

ودنا وقت الظهر فخرجت القسيسة للصلاة كالعادة ، وظلت أسماء منفردة فأطلت من النافذة فوقع نظرها على صحن الكنيسة كله وفيه القسم الذى جعله المسلمون مسجدا فرات فى ارضه الأبسطة والطنافس وقد تعلقت بسقفه المصابيح ، وشاهدت على جدرانه رسوما مسيحية فى حملتها صور صلبان وقديسين ما زالت كما كانت قبل الفتح . وفيما هى تتأمل فى جدران المسجد ومفروشاته ؛ سمعت المؤذن يدعو الناس الى صلاة الظهر ، وما كاد يفرغ من أذانه حتى رات الناس يتقاطرون الى صحن المسجد زرافات ووحدانا وفيهم الرجال والنساء شيوخا وشبانا وأطفالا فشغلت بالنظر اليهم ، وفيهم جماعة عرفت أنهم من الجيران الذين كانوا يزورون أباها

ثم رات الناس يموجون موج البحر يتقهقر بعضهم شمالا والبعض الآخر يمينا ، حتى فتحوا طريقا واسعا فأدركت أن أحد الكبراء داخل ، فصبرت واذا برجل جميل الخلقة أبيض البشرة ذى هيبة ووقار ، عليه ثياب سود موشاة تتألق ، كبير العمامة فعرفت انه معاوية ابن أبى سفيان والى الشام ، ورات الى جانبه رجلا قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عيناه تكادان تتقدان حدة . فمشيا وهما ينظران الى الجمع والناس سكوت اجلالا لهما ، فلم تعرف اسماء رفيق معاوية

ولكنها سمعت واحدا من الحضور يقول بصوت عال : « أنت لها يا ابن العاص ، أنت نصير الخليفة المظلوم » . فعلمت انه عمرو بن العاص

فوقفت تنتظر ما يبدو منهما فرات معاوية ظل سائرا حتى بلغ دكة عليها قميص ملطخ بالدم ، وعلمت ان الدكة هى المنبر ، وان القميص قميص عثمان ، فتذكرت مقتل ذلك الخليفة على مشهد منها ، وتذكرت نائلة المسكينة وقالت فى نفسها : « اين هى الآن يا ترى ؟ » وكانت تفكر فى ذلك وهى تنظر الى معاوية فراته صلى ركعتين وصعد المنبر ، فسكت الناس واصغوا ، فوقف وحمد الله واثنى عليه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم سكت لحظة وهو يجيل اصابعه فى لحيته وعيناه تنتقلان فى الناس واحدا بعد واحد ، ثم تناول من المنبر هنات كانت معلقة بالقميص جعل يقلبها بين يديه وينظر الى الناس ويقول : « اتعلمون ما بين يدى ؟ . . انها اصابع نائلة زوج الخليفة المظلوم ، قطعت بسيوف القتلة وهى تدافع عنه » . فتأملت اسماء فى الاصابع فاذا هى اصبعان وشىء من الكف واصبعان مقطوعتان من اصلهما ونصف الابهام . ثم أمسك معاوية القميص بيده وقال : « اتعلمون قميص من هذا ؟ . . انه قميص الخليفة المظلوم . . انه قميص عثمان المقتول ظلما »

ولم يكد يتم كلامه حتى ضج الناس من جوانب المسجد بصوت واحد « قتل عثمان مظلوما . . قتل مظلوما » . وسمعت بعضهم يقول بصوت عال : « أقسم بالله ورسوله وخليفته الا يمسنى ماء الا للغسل من الجنابة ، والا انام على الفراش حتى اقتل قتلة عثمان ومن قام دونهم » . وما اتم الرجل حديثه حتى ضج النساء والاطفال بالبكاء والعويل ، وتهافتوا على المنبر ليبكوا على القميص والأصابع ، فزجرهم معاوية فعادوا الى اماكنهم ، وعاد هو الى كلامه واسماء تتميز غيظا لما سمعته من التعريض بعلى ومحمد وما آنسته من التهديد . فثارت الحمية فى راسها ، ولكنها صبرت لعلمها ان موقفها خطر ، فسمعت معاوية عاد الى كلامه بين تحريض وتعريض حتى سمعته يقول : « ان عليا قتل عثمان وآوى قتلته » . فلما سمعت ذلك لم تعد تستطيع صبرا فتحولت من النافذة باسرع من لمح البصر وهرولت الى باب الجامع بعباءتها وكوفيتها . وبينما الناس يسمعون خطاب معاوية اذا بفتاة وقفت فيهم وعيناها تتقدان غيظا وحنقا والمهابة تتجلى فى محياها، فلفتت انتباههم فشغلوا بالنظر اليها عن سماع الخطاب

ثم صعدت الى دكة من رخام وولت وجهها شطر الناس وظهرها الى معاوية وقالت وصوتها يرتعش وركبتاها تصطكان : « ايها الناس ،

اراكم تسمعون وتغضبون لأمر لم تشاهدوه ولا أنتم على بينة منه ، لأنكم لم تكونوا فى المدينة ولا شاهدتم مقتل الخليفة . يقولون لكم انه قتل مظلوما وأن عليا قتله وآوى قتلته ، وهذا افتراء ، لأن عليا أول من دافع عنه بلسانه وسيفه واولاده . قتل عثمان أيها الناس والحسن والحسين فى داره وقد تلطخ وجه الحسن بالدم ، ولو لم يامرهما عثمان بالكف عن الدفاع لبذلا النفس عنه . على انهما لم ينجوا مع ذلك من تأنيب الامام . وقد شهدت ذلك بنفسي ورأيته رأى العين . فاتهام على بمقتله افتراء وفتنة لا يصيب القائم بها الا ما أصاب أصحاب الجمل فى البصرة . تزعمون أنه قتل مظلوما ، وربما كان زعمكم صحيحا ، ولكن عليا لم يرد قتله ، بل هو أول من قال باستبقائه خوفا من الفتنة ، فكيف تقولون أنه قتله ؟ »

وما اتمت أسماء كلامها حتى صاح معاوية : « من ذا الذى يتكلم ، من انت يا رجل ؟ »

فالتفتت اليه اسماء وقالت : « انني فتاة يا معاوية ولست رجلا »

فعجب لهذه الجراة من فتاة فى مثل سنها ، وتأثر من هيبتها وجمالها وانفتها ، ومع كل غيظه وحنقه لم يأمر بالقبض عليها ولا المثلة بها ، ولكنه دعاها اليه والناس شاخصون ينظرون كأنه يريد مجادلتها فى الأمر . فأشار اليه عمرو اشارة فهم منها أنه لا يليق أن يجادلها أمام الناس لأن الجدال ينقص من برهانه ، فأعجبه دهاء عمرو . فلما صارت اسماء بين يديه أمر بالقبض عليها فتكاثف بضعة عشر من رجاله لشد وثاقها فصاحت فيهم : « تتجمهرون على فتاة وانتم رجال ولا حاجة الى شد الوثاق فانى لا أفر من بين ايديكم . اليس عارا عليكم أن تدفعو الحق بالقيود والأغلال وهو انما يدفع بالبرهان والجدال »

فأشار معاوية ان يسيروا بها الى السجن حتى ينظر فى امرها



اسماء فى السجن

ولا تسل عن حال أسماء لما وجدت نفسـها فى حجرة لايدخل اليها النور الا من كوة فى أعلى البناء ، وليس فيها الا حصير بال، فأخذت تفكر فيما آلت اليه امورها وما تتوقعه من العـذاب ، فندمت على ما أبدته من الجرأة فى الدفاع عن على ، ولـكنها شـعرت انها اقدمت على ذلك بالرغم منها ، فقد كانت كلمـا سمعت اسم على طربت واستعزت أو خافت وتهيبت وهى لاتقدر على كبح احساسها

فلما خلت الى نفسها تمثلت لها حالها كما هى ، فتذكرت ما مر بها من الاهوال منذ حداثتها وما قاسته من البلاء فى أسفارها وجهادها وما كان من وفاة أمها قبل وصولها الى المدينة وضياع سرها . ولما وصل ذهنها الى هنا اعترض ظلمـة كدرها نور ضعيف من الامل فى كشف السر على يد القسيس مرقس . ثم تصـورت مروانَ وما سـامها من العذاب فى بيت الخليفة عثمان، وتذكرت انه كان البيت الذى كاشفت فيه محمدا بالحب فطربت لذلك . ثم تذكرت سفرها الى مكة وما لاقته من المرض والتعب وما عقب ذلك من أسرها ومسـيرها فى الصـحراء مهددة بالموت وبالعـار حتى قضى الله بنجاتها فعـادت الى خطر آخر ونجت منه ، وكيف بشرت بالكشف عن نسبها ثم شهدت وقعة الجمل . .

وتتابعت عليها الذكريات حتى وصلت الى ما هى فيـه من السجن فعظم الامر عليها واشتد الاسـف بها حتى أجهشت بالبكاء ، فحاولت التجلد لئلا يقال انها بكت من اليأس أو الخوف وهى انما بكت لنكد حظها وسوء طالعها وما يقف فى سبيلها من العقبات التى لم تكن تخطر لهـا ببال . فالتفتت الى ماحولها فلم تجد احدا وتطاولت بعنقهـا الى باب السجن فرأت السجان فى غفلة عنهـا . فأطلقت لنفسـها عنان البكاء واخذت تناجى نفسها ، تارة تذكر أمها وطورا حبيبهـا وآونة عليـا وأخرى تندب حظها ، واستغرقت فى ذلك حتى نسيت نفسها وغاب رشدها كأنها اصيبت بنوبة عصبية فلم يعد فى امكانها امساك عواطفها عن البكاء والنحيب

وما زالت فى ذلك حتى تعبت فغلب عليها النعـاس فنامت على ذلك الحصير فرأت فيما يرى النائم امها تمشى اليها على بسـاط من الورد

المنثور وعليها حلة ارجوانيــة طويلة الذيل مزركشــة بالذهب تجرها وراءها . وعلى راسها تاج من زهر الرمان وراتها تمشى الهوينــاء وهى تتلمس الخطى كأنها تحاذر مرور النسيم . فبغتت أسماء لرؤية خيال امها ولا سيما لما راتها فى عافيــة تامة وقد ارتد اليهــا لونها وتوردت وجنتاها وأشرق وجهها . وظلت اسماء فى دهشة شاخصــة الى ذلك الخيال وكأنها سمعته يقول بصوت رخيم : « هل عرفت اباك يا أسماء ؟»

فأسرعت اسماء اليها والقت نفسها على صدرها تستنشق حنــان الامومة ، فانتعشت وجعلت تقبلها وتقول : « لا . لا يا أماه لم اعرفه بعد . قولى لى . قولى فقد نفد صبرى »

فضمتها والدتها الى صدرها ، وهمست فى اذنها : « اخفضى صوتك لئلا يسمعك الامام »

فأطاعتها وقالت بصوت خافت : « قولى لى يا اماه من هو ابى ؟ »

قالت : « انما جئت اليك الآن لأخبرك بذلك فاعلمى ان اباك هو . . » وسكتت لحظة وهى تتلفت يمينا وشــمالا وعيناها تلمعان كأن المــاء يغشاهما . وأسماء شاخصة اليها وقلبها يكاد يتفطر وسمعها مرهف لسماع اسم أبيها ، ولكنها ما لبثت أن رأت أمها ترتعد وقد أخذ لونها فى الامتقاع وهى تنظر الى شبح قادم اليها . ثم رأتها أجفلت وحاولت الفرار فتشبثت أســماء بها وهى تقول : « امكثى بالله لاتذهبى انطقى باسم ابى » . فلم تلتفت اليها وحاولت التملص منها واسماء ممسكة بها . وفجأة افاقت مذعورة فرأت نفسها فى تلك الحجرة المظلمــة على ذلك الحصير القذر ، وسمعت صوتا لم تكد تموجاته تدرك أذنها حتى ارتعدت فرائصــها لمشابهته صــوت مروان بن الحكم عدوها القديم ، فقالت فى نفسها : « أعوذ بالله من حظى على يد هذا الرجل أما زال ذكره شؤما على حتى فى احلامى . كنت فى ألذ الاحلام فأيقظنى بصوته »

فما كادت تفتح عينيها حتى رأت مروان واقفــا امامها وقد تقلــد حسامه وأتقن هندامه . فلما رأته استعاذت بالله ولم تلتفت اليه

فتقدم مروان اليها وهو يقول : « لقد صفحنا عما مضى يا أسماء ، كنت ترجعين عن غيك وتعلمين ان محمدا وعليا لايغنيان عنك فتيلا . أنت الآن فى دمشــق مسقط رأســك ومقر آبائك . ما لك وللمدينــة والكوفة ؟ اصغى لنصحى وارجعى عن عنادك ، واعلمى انك اذا أطعتنى هذه المرة صفحت عما مضى وكنت أسعد فتاة والا فانك مقتولة لامحالة ، لأنك فى قبضة يدى افعل بك ما أشاء . واعلمى ان معــاوية سيبعث اليك ليحقق معك فى شأن ما فهت به فى المسجد مما لا يأتيه الا كل مختل الشعور . فاذا شئت البقاء حية فاعتذرى مما فرط منك وحالفى القوى

ولا يغرنك انتصارعلى فى البصرة فانه سيلقى منا سيوفا لاتفل، ورجالا لاترد ، وقلوبا كالحجر الصلد . وستخرج الخلافة من يديه فيخضع لنا هو واولاده وكل من يلوذ به »

وكان مروان يتكلم واسماء ترتعد وجلاو قلبها يكاد يفر من صدرها ، وصعد الدم الى وجهها فتوردت وجنتاها واحمرت عيناها وهى مع كل ذلك مطرقة تفكر وقد ايقنت ان حياتها بين يديه ويدى معاوية . وحدثتها نفسها بادىء الامر بأن تعمل بما توحيه عواطفها فتنتهر مروان وتوبخه ، ولكنها تذكرت ماجرته عليها جراتها فى المسجد فأمسكت وتجلدت وهى تكظم الغيظ ولم تحر جوابا

فظن سكوتها لينا أو رضاء ، فدنا منها وبالغ فى التودد اليها ، فقال : « لعلك تذكرين ما عاملتنى به من الجفاء ، وأنا اعذرك وآمل أن تكونى قد ارعويت ، لأنك انما كنت مدفوعة الى ذلك بطيش الشبيبة ، وكنت تحسبين محمدا اهلا لك ، وقد رايت كيف انقلب امرهم جميعا ، وكيف قام المسلمون عليهم يطالبون بدم الخليفة عثمان . ولا اظنك تجهلين مافعله محمد ، وقد كنت شاهدة مقتل عثمان . الم تريه وقد دخل عليه وامسك بلحيته وهم بقتله ، فوبخه الخليفة وذكره فرجع . اتعدين ذلك دفاعا ، وهل تزعمين بعد ذلك ان محمدا خير من مروان »

فتقل كلام مروان على اسماء ثقل الجبال حتى كادت تحرج باحتقارها اياه فتبوح له ، ولكنها كظمت الغيظ وسكتت فطفحت عواطفها دموعا وهى مطرقة لاتنظر اليه

ففرح مروان وتحقق ندمها ، وهم بالدنو منها ليستأنف الحديث ، واذا بالسجان دخل وقال لمروان : « ان الامير بعث يستقدم السجينة اليه » . ثم تقدم السجان ودعا اسماء الى المثول بين يدى معاوية ، فوقفت ومسحت عينيها ، وخرجت فرأت خارج السجن بضعة رجال بالسيوف والحراب فقال لهم مروان : « لاحاجة اليكم فانها تسير غير محروسة الى مجلس الامير »

ـــ

وسارت اسماء بقدم ثابتة وقلب جرىء ، ومروان وراءها مبتهج القلب بما تجدد عنده من امل فى الحصول عليها ، فقد كان مسحورا بجمالها وهيبتها ، طامعا فى نيلها ليفخر بأن قد نالها دون محمد بن أبى بكر

وما عتموا ان وصلوا الى قصر منيع من بناء الرومان كان فى الاصل

قصرا لحاكم الشام من الروم ، وعند بابه الحراس بالسيوف والحراب . فدخلت فى دار رحبة ومروان أمامها يدلها على قاعة المجلس، فعرج بها حول البركة حتى دخل قاعة كبيرة.فيها الوسائد والطنافس على الجانبين. وفى صدرها معاوية على مقعد ، والى جانبه عمرو بن العاص وولداه محمد وعبد الله . وبين أيديهم جماعة من الامراء لم تعرفهم ، فدخلت ووقفت ونظرت الى الحضور نظرة فاحص بسكينة وجلال ، ثم وجهت نظرها الى معاوية غيرمتهيبة ، فنظر اليها وتأمل فيما يتجلى فى وجهها من المهابة ، وكانت ما زالت غاضبة وقد قطبت اسرتها وازدادت وقارا فأعجب بهيبتها وجمالها ، وكان قد أعجب من قبل بشجاعتها واقدامها . فلما وقفت بين يديه قال لها : « ما الذى حملك على الجراة التى ظهرت منك فى المسجد اليوم ؟ »

قالت : « انما حملنى على ذلك الحق والصدق ، فقد سمعت تعريضا برجل اتهموه وهو برىء »

قال معاوية : « وما أدراك انه برىء وانت فتاة قاعدة فى بيتك ؟ »

قالت : « انى أعلم من الامر فوق ما يعلم كل واحد منكم ، وقد تحققت يقينا ان عليا أمير المؤمنين برىء مما يتهمونه به »

فاعترضها عمرو بن العاص قائلا : « لاتقولى امير المؤمنين ، فاننا لم نبايعه » . فقالت : « ان لم تبايعوه أنتم فقد بايعه سواد المسلمين فى المدينة والبصرة ومصر وسائر الحجاز ، وهو ابن عم الرسول وأحق الناس بهذا الامر »

فقال عمرو : « أراك تحكمين فى أمور تجهلينها . فلو أجمع الناس على بيعته ما اضطر الى الحرب وسفك الدماء . يكفيه انه كان السبب فى قتل الخليفة عثمان الذى أصبح دمه طليمة ماسفك وسيسفك من الدماء »

فنظرت أسماء الى عمرو وقالت : « ألست ابن العاص ؟ » . قال : « نعم »

قالت : « ألم تكن أول ناقم على ذلك الخليفة المقتول لأنه عزلك عن مصر وولاها أخاه عبد الله . ألم تفرح بقتله ؟ . ولكن الدهاء أبعدك والناس يعرفون القاتل أو الساعى فى القتل » . قالت ذلك وقد ظهر التأثر فى وجهها مما بدا عليه من الامتقاع

فعظم جوابها على عمرو وخاف ان تتمادى فقال لها : « ممن انت يا فتاة ؟ »

قالت : « من هذا المكان ! »

قال : « انى أسألك عن ابيك ؟ »

فسكتت ولم تجب ، فتقدم مروان وهو يأمل ان يخفف غضب معاوية وعمرو على أسماء ، طمعا فى رضائها واستبقائها وقال : « انها اموية ، وقد قتل يزيد ابوها فبمن قتلوا مع عثمان »

فقال معاوية : « اأموية انت ؟ » . فلم تجب

فقال : « كيف تكونين أموية وتقولين مالا يقوله بنو امية ؟ . البسوا مجمعين على ان عثمان قتل ظلما وقد نهضوا للأخذ بثأره ؟ »

فقالت : « لايهمنى أموية كنت أم غير اموية ولكننى اشهد بما اعلم ؟ فانا لا أرى احدا مظلوما فى هــذه الفتنة غير امير المؤمنين على بن ابى طالب ، وانى اقول هذا رضيتم أم غضبتم . ولعلكم تتهددوننى بالقتل او السجن ، فلاابالى التهديد ولا الوعيد . هذا قولى فافعلوا ماتشاءون »

وكان مروان فى اثناء كلامها يفكر فيما يرجوه من رضــائها ، وعيناه شاخصتان الى الحضور لئلا ينظر اليها احد نظر الراغب فيها ، وود لو انهم يقطعون الحديث لئلا تقول قولا يثير غضب معاوية فيأمر بقتلها

اما عمرو فرأى بحسن فراسته ودهائه ان يظهر الاستخفاف بكلام اسماء ، ويبدى الرفق بها لانه رآها لاترضخ للعنف . وخاف ان تتمادى فى كشف ماكان ساعيا فيه ضد عثمان قبل قتله . فقال لها : « اراك يابنية مغرورة ، ومن العبث ان نجادلك ولا سيما ان النبى (صـــلعم) أوصانا بالنساء رفقا لانهن ضعيفات ، ثم انك اموية من لحمنا ودمنا . فارفقى بنفســـك وارجعى عن غيك وامكثى عندنا فى امن واقلعى عما انت فيه »

فقالت : « لاتستضعفونى ، ولا تأملوا رجوعى ، ولا تحسبونى اموية ولا هاشمية ، فافعلوا ماتشاءون وقد قلت لكم انى لا اهاب الموت »

فتقدم مروان الى معــاوية وهمس فى اذنه قائلا : « أرى الــكف عن جدالها ، فاتركوا أمر اقناعها الى ، لانى اعرفهــا من قبـــل ذهابها الى المدينة ، فقد كانت مقيمة بدمشق وأعرف ابويها ، وانا اضمن اقناعها طوعا او كرها ، اذ لايليق بنا استبقاءها على هــذا العناد فاما أن ترجع عن غيها او نقتلها والقتل امر مستدرك فأرى ان نقنعها بالحسنى » .

ثم التفت الى عمرو وقال بحيث يسمعه الاثنــان ولا تسمعه اســماء : « ولايخفى عليكما اننا اذا اخذناها فى حزبنـــا ، فانها تطلعنـــا على كل دخائل على ورجاله ، لأنها عالمة بكل اسرارهم ، فاتركا هذا الامر الى »

ثم تنحى جانبا وأسماء خائفة مما بدا منه . فقال معــاوية : « خذوها الآن الى منزل مروان وسننظر فى أمرها »

فقطعت الحديث قائلة : « لعل منزله السجن » . قال : « كلا »

قالت : « بل خذونى الى السجن حيث كنت فى هذا الصباح »
فخاف مروان اذا أصروا على ارسالها معه أن تصرح بشىء ضده فقال : « خذوها الى السجن » . واعتزم أن يكلمها هناك

□

اشار معاوية الى الحراس فساروا واسماء معهم غير هيابة ولا وجلة . واما مروان فانه اسر الى كبير الحراس ان يجعلها فى غرفة من غرف السجن وحدها ، وان يضيقوا عليها لعلها تشعر بحاجة الى النجدة. ولم يدركوا السجن الا بعد الغروب فدخلوا بها من باب كبير الى دار رحبة اتصلوا منها بممر مظلم انتهوا منه الى بضع درجات نزلوا عليها الى دار صغيرة تستطرق الى غرف عديدة دخلوا فى احداها واتصلوا من هذه بحجرة اخرى واطئة السقف مظلمة تتصاعد منها رائحة الرطوبة والعفونة ، وقد نبتت الطحالب على جدرانها وتحلب الماء عنها. فأقعدوها على حصير بال ورجعوا ، وظل السجان وحده . فلما خلا المكان الا منهما نظر اليها وكأنه أشفق على شبابها وتوسم فيها مهابة ووقارا ولكنه لم يخاطبها فتركها على ذلك الحصير وعاد وهو يرجو أن تخاطبه هى وتلتمس نجدته متى احست بالوحدة أو شعرت بالجوع والخوف

اما هى فلما رأت نفسها فى تلك الحجرة وقد خلا المكان من الناس واستولى السكون على تلك الجدران العفنة ؛ لبثت تفكر فى حالها وما صدر منها فى حضرة معاوية من الاقوال مخافة أن تكون قد فاهت بما يدل على عجز أو خوف ، فرأت انها أدت الامانة حق أدائها . ولكنها مع ذلك اسفت لأنها لم يتح لها اتمام قولها

وقضت ساعات وهى جالسة لاتبالى الظلمة ولا الجوع ولم يزرها النوم لعظم اضطرابها ، ثم انتبهت الى ما هى فيه من الخطر ان لم يكن من معاوية ورجاله فمن مروان وآماله ، وايقنت انه آت اليها تلك الليلة طمعا فى رضائها عنه ، والموت عندها خير من اجابة طلبه ، فالتفتت الى ماحولها وهى لاتكاد ترى جدران الغرفة لشدة الظلام ، فأنصتت لعلها تسمع منسيا أو كلاما فاذا كل شىء هادىء ساكن لايكدر سكوته الا طنين البعوض حول وجهها ونقيق الضفادع نقيقا ضعيفا يدل من اتجاهه على ان السجن قائم على ضفة نهر بردى الذى يتشعب فى دمشق فيسقى أهلها بأنابيب من الحجارة أو الخزف منفرقة فى كل منازلها . فاستأنست بذلك النقيق ولكنها استوحشت من الظلمة الدامسة مخافة أن تلسعها عقرب أو يلدغها ثعبان على غرة

وبينما هي تفكر فى حالها وقد شغلتها الوحشة عن التفكير فى الخطر المحدق بها اذ سمعت خطوات بطيئة تدل على تلصص صاحبها فى مشيته ، فجمد الدم فى عروقها وخافت أن يكون ذلك القادم مروان ، فأشاحت بوجهها نحو الخطى وقلبها يخفق حتى كادت تعد دقاته . واذا بذلك الصوت يقترب نحوها فأجفلت ونهضت وتهيأت للدفاع اذا مست الحاجة ، ولبثت تنتظر مايكون . فاذا بالخطوات تبتعد وتضعف حتى لم تعد تسمعها . فعلمت ان أحدا كان قادما نحوها ثم رجع . فازدادت قلقا وظلت واقفة ترتعد لعظم التأثر ، وودت لو أن ذلك القادم وصل اليها لتعلم من هو وما غرضه ، فان رجوعه زاد بلبالها . وصممت أن تتفانى فى سبيل الدفاع وأن تصرح لمروان ، اذا كان هو القادم ، بما فى ضميرها ولو أدى ذلك الى قتلها

ولبثت برهة لم تعد تسمع فى اثنائها صوتا ، ولكنها ما برحت مضطربة شاخصة بعينيها الى الجهة التي سمعت الصوت منها ، وطال انتباهها حتى لم تعد تستطيع اطباق أجفانها ونسيت موقفها

وفيما هى كذلك لمحت نورا ضعيفا فى دار السجن الصغرى ، فاستأنست به وتذكرت مروان فخافت أن يكون قادما اليها . على انها تشجعت وقالت فى نفسها : « فليأت فاما اقتله أو يقتلنى فأستريح من هذا الموقف » . ولم تكد تفكر فى ذلك حتى رأت النور يتعاظم ويقترب ، ثم بان المصباح يحمله رجل عرفت من لباسه وقيافته انه السجان فهدأ روعها . ونظرت اليه فاذا هو يحمل المصباح فى احدى يديه ويحمل بالاخرى قصعة ، فلما دنا من غرفتها تأكدت انه هو ، فلبثت تنتظر مايبدو منه فاذا هو يقول : « سامحينى يا سيدتى لانى تركتك الى الآن بلا طعام ولا نور ، فانى لم اكن أعرف انك تنتمين الى الامير مروان »

فلما سمعت ذلك الاسم ارتعدت فرائصها ولكنها لم تجب . وأما السجان فدخل الغرفة ووضع المصباح على الارض وقدم القصعة وفيها خبز ولحم ، وهو يقول : « هذا طعام بعث به اليك الامير مروان وكلفنى ان انبئك بأنك لن تبيتى فى هذا المكان الا الليلة ، وفى الغد ينقلك الى منزله » . فنفرت منه وقالت : « لاحاجة بى الى طعام ، فأرجع من حيث أتيت »

قال : « لقد قضيت نهارك بلا طعام ، الا تأكلين شيئا ؟ »

قالت : « لست جائعة . عد بالطعام »

فعجب السجان لقولها ، وقد كان يتوقع ارتياحها لعطف مروان عليها . فقال لها : « ولماذا هذا ياسيدتى . تناولى لقمة لتسدى جوعك »

قالت : « خذ الطعام ، اني لست جائعة » . قالت ذلك وحولت وجهها عنه

فقال : « دعي القصعة والمصباح هنا وافعلي بهماماتشائين، وها انذا عائد » . قال ذلك ورجع

فلما خلت الى نفسهاظل بصرهاعلى المصباح تتأمل حركاته والبعوض يحوم حوله وفكرها تائه وقلبها يخفق كلما تصورت مروان قادما نحوها . وارادت أن تسند ظهرها الى الحائط فأحست برطوبته فابتعدت

▭

وعاد السكون الى المكان مدة طويلة وأسماء فى ابان اضطرابها ، حتى كأنها نسيت وجودها . ثم انتبهت على صوت اقدام تمشي فى الغرفة الخارجية بهدوء ، فأجفلت وتأكدت انمروان قادم، فخفق قلبها وصعد الدم الى رأسها وتهيأت للفتك به . وحولت نظرها الى الخارج فرأت شبحا قادما يخطو خطو السارق المتلصص وقد التف بعباءة ، فخافت ولكنها تجلدت لترى ما يبدو منه ، فلما دنا من باب الغرفة همت بأن تخاطبه فاذا هو يقول بصوت ضعيف : « لا تخافى يا سيدتى انى جئتك بالفرج لا تخافى »

فلما سمعت كلامه ارتعدت فرائصها وذكرت أنها تعرف الصوت فقالت : « من أنت ؟ »

قال : « انى عبدك مسعود لا تخافى . وقد جئت لانقاذك »

قالت : « من أين أتيت ، ومن ارسلك ، هل هبطت من السماء أم خرجت من جوف الارض ؟ »

قال : « لم يرسلنى أحد ولكننى كنت سجينا فى هذا المكان منذ فارقتك فى دير البصرة . لأنى خرجت من الدير ، وفيما أنا عائد الى الكوفة ظفر بى جماعة من بنى امية كانوا قادمين بمهمة من معاوية ، فقبضوا على وساقونى الى هذا السجن ، لأنى من صنائع ابن أبى بكر، وأشكر الله الآن على وجودى هنا لعلى أستطيع انقاذك من أيدى هؤلاء الظالمين »

فاطمأن بالها ولكنها حسبت نفسها فى منام مثل منام الأمس . فقالت : « وكيف عرفت انى هنا ؟ » . قال : « رأيتك مع الحراس لما اتوا بك عند الغروب ، ولبثت أنتظر فرصة آتى بها اليك ، وقد جئت حتى كدت أقترب منك فسمعت خطوات السجان فهرولت راجعا ،



« فوقفا ينصتان ، فاذا بمروان يقول للسجان : «لابد لى من قتلها إذا ظلت على عنادها»

واما الآن فلا خوف علينا من السجان ، تعالى معى »

قالت : « وأين السجان ؟ » . قال : « ذهب الى بيت مروان »

قالت : « وكيف ذلك ؟ اخشى ان يكون هنا » . قال : « لا تخافى لانى حرضته على المسير الى مروان ليخبره برفضك طعامه ، وليحثه على المجيء للانتقام منك ، واطمعته بمال يناله منه اذا فعل ذلك ، وعزمت على الخروج فى أثناء غيابه »

قالت : « والباب ؟ » قال « لقد ظن السجان المسكين انه اقفله ، ولكنه ما زال مفتوحا ، تعالى قبل ان يعود السجان أو يأتى مروان » . فترددت برهة وقد اكبرت امر الفرار فادرك مسعود ترددها فقال : « اتحسبين خروجك من هذا السجن فرارا ، وما بقاؤك فيه غير الموت والعار . تعالى . واسرعى اناشدك الله »

ومشى فمشت هى فى اثره ، ثم عاد الى المصباح وقال ارى ان نطفىء هذا المصباح لئلا يدل علينا . واطفأه فأظلم المكان ولم تعد أسماء تعرف الطريق ، فأمسك بيدها ومشيا وهى ترتعد ، حتى خرجا من الغرفه الثانية الى الدار الصغرى ، واطلا على البيت ، وما صعدا الدرجات حتى سمعا كلاما فى طرفه الآخر مما يلى الدار الكبرى ، فوقفا ينصتان فاذا بمروان والسجان يتحدثان ومروان يقول : « لابد لى من قتلها اذا ظلت على عنادها ، وقد كنت اتوقع هذا العناد منها ولذلك فانى ارسلتك بالطعام وسرت فى اثرك »

فجمد الدم فى عروق مسعود واسماء ، وايقنا بالهلاك وشق ذلك على مسعود لأنه عرض اسماء للخطر . اما هى فهدأ تروعها وضغطت يد مسعود وجرته الى ما وراء باب المر حيث انزويا وقلباهما يخفقان، ولبثا ينتظران دخول مروان والسجان فسمعا مروان يقول : « هات المصباح وتعال »

فقال السجان : « فى حجرتها مصباح تركته عندها »

ودخلا الممر وصدى خطواتهما يتعاظم رويدا رويدا حتى بلغا الباب الثانى الذى اختبأ مسعود واسماء وراءه . فلما رأى مروان المكان مظلما وقف وقال للسجان : « اين هو المصباح انى ارى السجن مظلما »

فقال السجان : « انى وضعته فى حجرتها ولعلها أطفأته كيدا وقحة، هلم لنرى »

فقال مروان : « انى لا أرى الطريق لشدة الظلام هات مصباحا آخر »

قال : « هلم ندخل ثم آتيك بالمصباح . انزل هذه الدرجات على مهل . ها انى أخطوها أمامك . تمسك بمصراع الباب من عندك »

ونزلا ومروان يتوكأ باحدى يديه على السجان ، وبالأخرى على الباب حتي وصلا أرض الدار الصغرى فمشيا حتى دخلا الغرفة وهما يتلمسان الارض

ولا تسل عن حال مسعود وأسماء فى تلك اللحظة فقد كانت عندهما اطول من شهر ، فحالما علما بدخول مروان والسجان الى الغرفة اشار مسعود الى اسماء ان تخلع نعليها وكان هو بلا نعل ، ففعلت وتحول كلاهما من وراء الباب الي الممر بخفة وسرعة ، ومنه الى الدار الكبرى فالباب الكبير وكان ما زال مفتوحا . وأسرعا الى الشارع وهما لا يصدقان أن قد ظفرا بالنجاة

وكانت أسماء تعرف طرق الشام معرفة جيدة فلما بعدا عن السجن وقفا برهة يتدبران المكان الذى وصلا اليه ، فعرفته أسماء وسارت قاصدة كنيسة مارى يوحنا

وقبل أن تصل الى الكنيسة تذكرت خادمها والجوادين فى الخان ، فوقفت تتردد بين أن تسير الى الكنيسة اولا او الى الخان ، فسألها مسعود عن سبب ترددها

فقالت اتردد بين أن اذهب الى كنيسة مارى يوحنا ، فاقيم بها ، وبين ان اسير الى الخان حيث يقيم الخادم ومعه الدواب

فتعجب مسعود لترددها وهو لا يرى حاجة الى الكنيسة لانه لا يعلم بما انبأها به الراهب فى دير البصرة . فقال : « ما لنا وللكنائس، هيا بنا الى الخان ومنه الى الكوفة فقد علمت ان الامام عليا وسائر الصحابة هناك »

فتنهدت وقالت : « نعم انهم جميعا هناك ، ولكن لى فى هذه الكنيسة غرضا يهمنى ؛ وانما جئت دمشق من أجله ولا بد لى من اتمامه . ولكنى أرى ذهابى الي الكنيسة فى آخر هذا الليل مما يوجب شبهة أو تساؤلا ، والكنيسة والمسجد متلاصقان او هما بناء واحد ، فأرى ان امضي بقية هذا الليل فى الخان لأرى الخادم وادبر اموره ثم أسير الى الكنيسة » . ثم مشت ومسعود الي جانبها ، فسألته : « هل أنت عازم على الذهاب الى الكوفة ؟ » . قال : « نعم ان شاء الله »

قال : « اذا لم يكن بد من ذلك ، فاوصيك بأن تبلغ الامام ورجاله مافيه اهل الشام من النقمة لعثمان والمطالبة بدمه » . وقصت عليه ما راته فى المسجد من التحريض والتهديد بالأصابع والقميص الى أن قالت : « واذكر لهم انى باقية هنا بضعة أيام ريثما تتم مهمتى »

موقعـــة صفين

رأى الامام على بعد ان انتصر فى وقعة الجمل ونزل البصرة فبايعه اهلها ، ان يستعمل عليها عبد الله بن عباس ، ثم سار الى الكوفة فنزلها وانتظم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراســان وبايعه أهلوها ، ولم يبق خارجا عليه الا الشام وفيها معاوية وأهل الشام مطيعون له فى المطالبة بدم عثمان

وكان على قد ولى على مصر قيسا بن سعد بن عبادة وهو من خيرة المهاجرين ، ودهاة العرب . وكان فى مصر جماعة بخربتا يرون غير رأيه ويطالبونه بدم عثمان ولكنهم معتزلون لا يتحركون لحرب ، فرأى قيس من السياسة والدهاء أن يكف الحرب عنهم ويداهنهم لئلا ينضموا الى معاوية

وكان معاوية قد كتب الى قيس يستميله ويبذل له الوعود الخلابة فلم يجبه . فاصطنع معاوية على لسان قيس كتابا قرأه على الناس فى الشام يوهمهم أن قيسا معه وانه لذلك لم يقاتل المعتزلين فى خربتا ، فبلغ ذلك عليا فصدق الوشاية فى قيس وعزله عن مصر وولى محمدا ابن أبى بكر

ولم يكن لعلى شاغل يشغله بعد وقعة الجمل الا معاوية وجنود الشام ، فرأى أن يبعث اليه يطلب بيعته فبعث اليه جريرا بن عبدالله البجلى ليطلب منه الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار. فسار جرير الى الشام فماطله معاوية مدة ريثما أراه حال أهل الشام وما يقاسونه من البكاء والعويل عند قميص عثمان وأصابع نائلة ، فرجع جرير بالخبر الى على . فعلم ألا بد من الحرب ، فسار من الكوفة الى الشام فى جيش عظيم ، وقد علم بما تحالف عليـــه معاوية وعمرو ، وسار معاوية وعمرو من الشام يطلبان عليا ولكنهما ابطآ السير حتى التقى الجيشان فى صفين . ودخلت سنة ٣٧ هـ والجمعان فى « صفين »

وصفين هذه موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات الغربى ، أمام « الرقة » على الضفة الشرقية . وبين صفين والكوفة نحو ثلاثمائة ميل أو أكثر

هناك نزل الجيشان العظيمان يقودهما اعظم رجال الاسلام ونخبة المهاجرين والانصار . وفى ذلك السهل الواسع جرت وقعة صفين المشهورة التي قتل فيها عشرات الالوف من الرجال . وقد نال فيها على بن أبي طالب ما ناله فى وقعة الجمل من النصر والغلبة . ولكن هل انتظم له الأمر بعدها . كلا . فانها كانت خاتمة انتصاراته على مناظريه فى الخلافة وبداية دسائسهم عليه . ولم يكن ذلك لضعف عزيمته ، ولكنها حيلة دبرها عمرو بن العاص فنفذت فيه ، وفشل رجاله وانقسموا فيما بينهم

▭

لبثت اسماء اياما واسابيع عند القسيسة تنتظر عودة القسيس من بيت المقدس فلم يرجع ، فحسبت لابطائه الف حساب ، واضطرب بالها ولم تر خيرا من أن تسير هى اليه بنفسها ، واستشارت القسيسة فى الامر فاستغربت هذه قلقها وتعجلها رؤية القسيس فقالت لها : « هل تحتاجين الى القسيس فى أمر يدعو الى كل هذا ؟ »

فتأوهت الفتاة وسكنت وبدت كأنها تريد مكاشفتها بما فى ضميرها لعلها تفرج كربتها

فقالت لها القسيسة : « قولى يا ابنتى ما الذى أوجب تنهدك عسى أن انفعك »

قالت : « انى احتاج الى القسيس فى سر عنده عن أمى لايعرفه احد سواه ، وقد كانت تعرفه وحدها وباحت به للقسيس . وأما الآن فلم يبق غيره عارفا به »

فأدركت القسيسة ان أمها ماتت ، فلم تشأ أن تذكرها بها ، ولكنها احبت أن تعرف ماهو موضوع ذلك السر فقالت : «هل يجوزان أعرف موضوع ذلك السر ؟ »

قالت : « أعرف لك ياسيدتى انى ربيت فى دمشق فى حجر أمى ورجل كنت أحسبه أبى ، فأخبرتنى أمى ذات يوم ان الرجل ليس أبى ، فسألتها عن أبى الصحيح فوعدتنى باطلاعى عليه فى فرصة أخرى » . وقصت عليها أسماء قصتها من أولها الى آخرها . وكانت تتكلم والقسيسة تنظر اليها وتتأمل فى ملامحها ، فلما فرغت من كلامها تبسمت القسيسة وهشت لها وضمتها وقالت : « لعلك ابنة مريم ؟ »

قالت : « نعم ياسيدتى » . واستأنست بحنوها ومعرفتها اسم أمها فقالت : « وهل تعرفينها ؟ »

قالت : « مسكينة امك ، اني اعرفها جيدا قبل ان تتزوج ، وكانت كثيرا ماتاتي الكنيسة للصلاة ، وكنت انا يومئذ شـابة وهي صبية ، وكنت احبها كثيرا فلا يمضي عيد من اعيادنا الكبرى كالفصح والشعانين والميلاد وغيرها الا دعيت انا والقسيس الى مائدة جديك رحمهما الله . واذكر انه كان لأمك اخ جميـل الصـورة حاد الذهن ، كان ياتي معهـا وابويهما للصلاة . وظللنا على ذلك حتى جاءنا العرب منذ بضع وعشرين سنة ففتحوا المدينة واستولوا عليها فتفرق شملنـا ، وكانت امك قد اصبحت شابة ، وهي في مثل حالك جمالا وذكاء ، ولم اعد ارى جديك ، ولكنني سمعت انهما قتلا . اما امك فأخذوها سبيـة ولم اعد اراها ، الى ان جاءت في العام المـاضي الى القسيس ، واذكر اني رايتهـا وهي داخلة فمكثت عنده برهة وانا احسبني اعرفها ، ولمـا خرجت سألت القسيس عنها وقلت : (اليست هذه مريم بنت قسطنطين ؟ ـــ وهو اسم جدك ـــ . قال : (بلى) . ولكنني رأيت على وجهه بعد خروجها من عنده اثر الانقباض ، ورايت الدمع في آماقه ، فاضطربت ولم اسأله عن السبب مخافة أن يكون سؤالي تطفلا ، لعلمي ان القسيس مستودع أسرار كثيرين ، وقلت في نفسي : (لو كان خبر مريم ممـا يجوز ذكره لمـا تأخر عن ذكره) . اما هو فـكأنه ادرك قلقي وتشـوقي لمعرفة خبر امك ، لما يعلمه من رابطة المودة بيننا . فلما جلسنا على المائدة في المساء اخبرني عن قصتها وسبب غيابها عنه كل هذه المدة ، وفهمت من خلال كلامه ان الرجل الذي كان معها يومئذ ليس اباك وان اباك رجل آخر »

فقالت اسماء بلهفة : « الم تعرفي اسم ابي ؟ »

قالت : « كلا لاني لم اسأله »

فاستأنست أسماء بالقسيسة ، وازدادت ميـلا اليها فقالت لهـا : « بماذا تشيرين على الآن ، أأنتظر رجوع القسيس ام أسير الى القدس فأستطلعه السر ؟ »

فصمتت القسيسة كأنها تفكر في امر ، ثم تغير لونها بغتة وانقبض وجهها ونظرت الى اسماء والدمع يتلألأ في عينيها وقالت : « ارى ان تذهبي الى بيت المقدس لأن القسيس اصبح شـيخا هرما » . قالت ذلك وغصت بريقها

فأدركت اسماء انها تخاف انقضاء اجله عاجلا ، فتجاهلت ما بدا من عواطفها وقالت : « ها أنذا ذاهبة والاتكال على الله » . ونهضت فودعت القسيسة وخرجت تلتمس الخان وفيه خادمهـا والجوادان ، فأمرت

الخادم بالاستعداد ، وفى صباح اليوم التالى ركبت وسارت قاصدة الى بيت المقدس

□

وكان القسيس مرقس يعرف جدى اسماء واسرتها قبل الفتح ويعطف عليها بالتخصيص ، فلما تسلم السر من امها شاركها مصابها وازداد عطفا عليها ، وود لو استطاع أن يفرج كربتها ، فلما جاءته فى المرة الاخيرة قبل سفرها الى المدينة وأخبرته انها عازمة على كشف امرها لذوى الشأن هناك ، سره هذا ولكنه رآها ضئيلة مريضة فتشاءم وتوقع قرب انقضاء أجلها ، فأوصاها بأن تبعث اليه بما يحدث لها وهو انما يريد بذلك أن يتحقق من وصولها الى مامنها حية . فلما انقضى العام ولم يأته منها نبأ قلق عليها ، وكان كلما سمع اسم يثرب (المدينة) يتجدد بلباله ويود لو يرى أسماء ، ليطلعها على اسم أبيها ، ولكنه لم يكن يعرف مقرها ، فلبث وهذا شأنه حتى جاء الامويون بقميص عثمان وأصابع نائلة ، وكان ماكان من بكائهم وعويلهم ، وعلم ماحدث من الفتنة فى المدينة فازداد قلقه وأثر ذلك فى صحته ، فاضطر مع كبره وضعفه الى أن يبرح دمشق الى مكان يستقر فيه ريثما تهدأ الاحوال . فخطر له الذهاب الى بيت المقدس لأن له فيها أهلا يرتاح الى مجاورتهم ، فركب اليها قبل وصول أسماء الى دمشق ، ومكث هناك مدة وهو يزداد ضعفا ، ولم يجده ترحيب أهله واحتفاؤهم به نفعا ، وأحس بقرب الاجل

فخطر له الشخوص الى انطاكية حيث الكرسى البطريركى الذى سيم فيه قسيسا فيرى البطريرك الانطاكى ويتزود بالاسرار المقدسة على يده قبل الوفاة . واتفق أن سفينة امبراطورية كانت راسية فى مياه عسقلان انفذها الامبراطور قونسطانس الثانى ليحمل البطريرك الاورشليمى الى انطاكية للبحث مع بطريركها فى بعض الشؤون الدينية التى كان الخلاف قائما عليها فى تلك الايام . وكان البطريرك الاورشليمى قد علم بعزم القسيس على الذهاب الى انطاكية ، فدعاه ليسافر معه بحرا لأن الفصل صيف ولاخوف من الانواء ، والطريق فى البر شاق لما يقتضيه من ركوب الدواب وقطع الجبال والاودية ، فسر القسيس بتلك الدعوة وسار فى حاشية البطريرك الى عسقلان على أن يسيرا منها الى انطاكية فى السفينة الامبراطورية

واتفق وصول أسماء الى القدس بعد خروج القسيس منها ببضعة أيام ، ولما اخبروها انه قصد انطاكية استعاذت بالله مما ابتلاها به

من النحس فى أسفارها ، وباتت ليلة وصولها مسهدة حزينة لم يجف دمعها لفرط ماتولاها من القنوط ، فأصبحت شديدة الاعتقاد بسوء طالعها

على انها أصبحت فى اليوم التالى وقد هدأ روعها وعادت اليها رباطة جأشها فقالت فى نفسها : « لأذهبن الى انطاكية علىعجل قبل أن يخرج القسيس منها والاتكال على الله » . فركبت جوادها وسارت والخادم فى رفقتها يقوم لها بما تحتاج اليه من الخدمة فى السفر ، وكانت حيثما توجهت تتنكر بلباس الرجال مخافة أن يعلم مروان بها ، ولا ينجيها منه شيء الا القتل . وكان المسافر من القدس الى انطاكيــة يغلب ان يمر بدمشق ولكنها جعلت طريقها لبنان . وبعد مسيرة أيام وليال اشرفت على انطاكية

وكان وصولها قبل طلوع الشمس ، والشمس لاتطلع على انطاكية الا متأخرة لاحتجابها بجبلها الشرقى . واشرفت أسماء على تلك المدينــة العظيمة أم مدن الشام ومقر بطاركتها ، بل هى ثالثة مدائن تلك الايام (رومية والاسكندرية وانطاكية) فأطلت عليها من مرتفع مشرف فاذا هى مستطيلة الشكل على ضفة نهر « العاصى » الجنوبية ، وتحدق بها البساتين الغناء وفيها الثمار والفاكهة من كل الانواع . فدهشت أسماء لعظمة تلك المدينه وما فيها من الابنية الساهقة ، واكثرها من الكنائس فوقها القباب المزخرفة وفيها الطرق التى لاتكاد تشرق الشمس حتى نغص بالناس . وادهلها بنوع خاص سورها العظيم وما عليه من الابراج التى يبلغ عددها ٣٦٠ ، وله خمسة أبواب . وتتبعت ذلك السور الواسع بنظرها لعلها تحيط بسعة المدينة فرأت انها تحاول عبثــا لأن السور يصعد مع الجبل الى أعلاه ثم ينزل من الجهة الاخرى بحيث يحيط بالمدينة ومزارعها جميعا بما نزيد مساحته على بضعة عشر ميلا مربعا

فبهتت أسماء لتلك المناظر الفخمة ، وكان بحر الروم يتراءى لها عن بعد فى الافق كأنه هلال مستطيل . وبعد أن وقفت هناك برهة تتأمل عظمة هذه المدينة تحولت الى باب من أبواب السور فى الشرق واتصلت منه بالطريق الاعظم الذى يقطع المدينة فى طولها من الشرق الى الغرب وطوله أربعة أميال وعليه من الجانبين أربعة صفوف من الاعمدة الرخامية تعلوها أقواس جميلة ، وفى الوســط طريق واســع مكشوف مرصف بالجرانيت ، تحده من الجانبين مقاعد من الرخام المنقوش . وهو كله على استقامة واحدة تتفرع منه طرق صغرى من الجانبين . فذهلت أسماء لما شاهدته من العظمة والبذخ فى انطاكية مما لم تر مثله قبــلا . ومما زاد ذهولها ودهشتها انها رأت تيجان الاعمدة فى ذلك الطريق الطويل محلاة بالذهب الخالص مما يندر مثله فى أعظم مدائن الارض . على ان ذلك

المنظر الجميل كان ممزوجا بما يدعو الى الاسف الشديد ، لما توالى على هذه المدينة من الزلازل التى دكتمعظم ابنيتها فشوهتوجهها وغيرت مجرى نهرها ، على ان العظمة مع ذلك ما زالت تتجلى فيها

وظلت اسماء سائرة تلتمس دار البطريرك لعلها ترى القسيسهناك، فوصلت الى بناء شاهق يدخلون اليه من بابعظيم قائمعلى اعمدة من الرخام ، عتبته العليا من الجرانيت الاحمر الجميل ، وعليها نقوش باليونانية لم تستطع قراءتها ، فأطلت من ذلك الباب الى فناء واسع رصف بالفسيفساء ينتهى الىسلم عريض يصعدونمنه الى دار رحبة رات فيهاجماعة من القسيسينوالشمامسة وغيرهم يخطرونفىمشيهم، وكل اثنين أو ثلاثة منهم فى شاغل بالحديث ، فقالت فى نفسها : « أأدخل ؟. ولكن اذا كان القسيس ليس هنا فما الذى يدخلنى ؟ »، ثم سألت بعض الوقوف عند الباب عن القسيس مرقس فقال : « لا أعرفه » . فتذكرت انه قادم على سفينة البطريرك الاورشليمى وانهما يصلان معا ، فسألت عن البطريرك فقالوا : « انه لم يصل بعد ، ولا يعلم زمن وصوله لأن السفر فى البحر رهين بحالة الجووالريح ، وقد يصل بعد يومين ، او بعد أسابيع » . وماعلمت اسماء ذلكحتىقالت : « لابد لى اذن من التربص حتى تصل السفينة » . وامرت الخادم ان يسير بها الى خان تقيم به

▭

قضت أسماء فى الخان اياما وهى على مثل الجمر تصعد احيانا الى الجبل للنظر منه الى البحر لعلها ترى السفينة قادمة ، ولكن بعد البحر من انطاكية كان كثيرا ما يحول دون رؤيتها شيئا فاذا ملت الاصطبار ارسلت خادمها الى البطريركية يسأل عن القادمين ، حتى لم يبق لها صبر على البقاء هناك ، وشكت سوء طالعها وقالت فى نفسها : « لايبعد ان تكون السفينة قد غرقت بمن فيها لشقائى »

وكانت غرفتها تشرف على الطريق الاعظم ، فاستيقظت ذات يوم على ضجيج الغوغاء وجلبتهم ، فأطلت من النافذة فرات جماعات من العرب بالعدة والسلاح سائرين على غير نظام يحمل بعضهم الاعلام وفيهم الفرسان والمشاة تتقدمهم بعض النساء بالدفوف بين مربع ومستدير يضربن عليها وينشدن الاشعار الحماسية يحرضن بها الرجال وينهضن هممهم . فعلمت اسماء انهم من جند انطاكية ولكنها لم تفهم معنى جلبتهم فنادت الخادم فلم يجبها لأنه كان قد انخرط فى سلك المارة يحادثهم ويستفهم عما هم فيه . وبعد قليل عاد مسرعا

والبغتة بادية على وجهه . فقالت : « ما وراءك . . . من هؤلاء ؟ »
قال : « جاعة من جند انطاكية سائرون لنجدة جند الشام فى صفين »
فقالت : « على من ؟ » . قال : « على جند أمير المؤمنين على بن ابى طالب »
فقالت بلهفة : « وهل هم فى حرب هناك ؟ »
قال : « نعم ياسيدتى ، انهم هناك من زمن بعيد ، وبعض الذين حدثتهم يزعم انه شهد معركة حامية هناك انكسر فيها جيش الامام »
ولم يتم كلامه حتى اقشعر بدن اسماء وصعد الدم الى وجنتيها غيرة وحية وقالت : « اين هى صفين ؟ »
قال : « على بضع مراحل من هذا المكان شرقا »
فلبثت فى حيرة بين ان تظل فى انطاكية حتى يصل القسيس وبين ان تسير الى صفين وترى ماوقع لجند الامام ، فظلت صامتة برهة ، فتركها الخادم وخرج . اما هى فقالت فى نفسها : « ان انتظارى سفينة قادمة فى هذا البحر قد يطول كثيرا ، لأن سفر البحر لاحدود له ، وقد ينتهى انتظارى بالفشل اما بغرق المركب واما بموت القسيس قبل وصوله » . قالت ذلك وتناثر الدمع من عينيها حزنا على حالها وغيظا مما احدق بها من سوء الطالع ، فبكت ، ثم عادت الى تفكيرها فقالت : « واما الحرب فى صفين فان عليها تتوقف سعادة المسلمين أو شقاؤهم ، وما انا خير من احدهم ، ولابد لى من الاسراع الى هناك عسى ان اؤدى خدمة لعلى أو اقتل فى ساحة الوغى فأنجو من البلاء » . ثم نادت الخادم وقالت : « اسرع الى دار البطريرك واسأل عن القسيس مرقس ، فان علمت انه لم يأت فعد حالا واسرج الجوادين واعد معدات السفر »
فخرج الخادم ، وبعد قليل عاد ومعه بعض الزاد مما لاغنى عنه فى الطريق واخبرها ان السفينة لم تصل ولا يعلم زمن وصولها وانه اعد ما تحتاج اليه فى الطريق
فقالت : « نذهب الى صفين ، حتى اذا انقضت الحرب وظللنا على قيد الحياة عدنا الى انطاكية ، والا فعلى الدنيا السلام »
ولم تمض ساعة حتى ركبت اسماء ، وركب خادمها فى اثرها ، وخرجا من المدينة ، فالتقيا بالنجدة سائرة أمامهما . ففكرت أسماء فيما تستطيع أن تخدم به الامام على وهى يد واحدة لاتفيد فى القتال فائدة تذكر ، فلاح لها أن تخدمه فى استطلاع حال العدو وكشف عوراته ومخبآته ولا يتم لها ذلك الا اذا اختلطت بجند الشام . وذلك لايكون الا اذا تنكرت وانخرطت فى سلكه
وقضت مسافة الطريق وهى تفكر فى الامر ، وسبقت نجدة انطاكية ،

فاطلت فى صباح الخميس بعد بضعة ايام على سهل صفين من جبل عال فهالها ما شاهدته فى ذلك السهل من الخيام والاعلام والجند والخيل والجمال ، ولم يكن فى ذلك الحين قتال . فرأت هناك معسكرين احدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، وبينهما ساحة خالية ، فعلمت انهما معسكرا على ومعاوية فى هدنة ، وشاهدت الجمال سارحة فى المرعى وراء الخيام ومعها العبيد ترعاها ، وتأملت معسكر الشام لأنه اقرب الى موقفها من ذاك ، فرأت فى وسطه قبة كبيرة حولها الرجال والخيول فعلمت انها قبة معاوية أمير تلك الحملة

وما كادت تتأمل فى المعسكرين برهة حتى رأت فيهما حركة ، وقد تهيأوا جميعا للقتال والتحم الجيشان وتطايرت النبال وصهلت الخيول وخفقت الاعلام وصاح الفرسان من الجانبين . فلم تر بدا من العمل فقالت لخادمها : « أعطنى ثيابك وخذ ثيابى وابق أنت هنا بالجوادين »

ارتدت أسماء ثياب خادمها فأصبحت تشبه رجال حملة انطاكية ، ثم انتظرت حتى وصل جنود النجدة فانخرطت فى سلكهم وسارت مع المشاة لاينتبه اليها أحد ، حتى دخلت معسكر معاوية والحرب محتدمة وكل لاه بنفسه . وما زالت تخترق صفوف المقاتلين وهى تتظاهر بالقتال معهم ، حتى وصلت الى قبة معاوية فرأت خمسة صفوف من الرجال قد عقلوا انفسهم بالعمائم حولها للدفاع عن معاوية بحيث لايستطيع أحد أن يفر وحده . فعلمت أنهم متفانون فى سبيل نصرته او يقتلون فى الدفاع عنه ، وتفرست من خلال الصفوف فرأت معاوية والى جانبه عمرو بن العاص ، وكلاهما فى وجل وعيونهما تكاد تطير شعاعا تطلعا لما سيكون من عاقبة تلك الوقعة ، وهما يحثان الرجال على الدفاع ويحرضانهم على الثبات ، والنبال تتطاير كأنها الجراد فى السحاب . فاحتالت أسماء فى الدخول الى قبة معاوية ، فرأت فارسا جاء مسرعا ودخل من شق بين تلك الصفوف ، فدخلت فى أثره ودخل غيرها أيضا فلم ينتبه لها أحد ، فسمعت معاوية يسأل الفارس عما به ، فقال : « ان وطأة العدو شديدة ولكننا سنغلبهم باذن الله »

ونظرت اسماء الى وجه عمرو بن العاص فاذا هو ممتقع ، وقد بان الخوف فيه وفى وجوه معاوية ومن معهما من الامراء . ثم رأت ابن العاص خرج مسرعا فركب فرسه وسار يخترق الصفوف يحث الرجال ويحرضهم ، فظلت واقفة فى جلة الوقوف وقدسرت بما رأته من شعور معاوية بقوة رجال على . وبعد هنيهة عاد عمرو واختلى بمعاوية فلم تسمع أسماء مادار بينهما ، ثم عادا الى فرسيهما يشرفان على المعركة

الهدنة والتحكيم

واصبحوا يوم الجمعة والقتال على أشده ، وقد تقهقر جند معاوية حتى وصل رجال على الى الصفوف المعقولة حول القبة . فالتفت معاوية الى عمرو وقال : « ما الحيلة يا عمرو ؟ »

قال : « ارفعوا المصاحف على الرماح ، وقولوا : (كتاب الله بيننا وبينكم) فان قبلوا ذلك جيعا ارتفع القتال عنا . واذا قبل بعضهم دون البعض الآخر تفرقوا واقتسموا على أنفسهم فيكون لنا بانقسامهم فرج »

فلما سمعت أسماء ذلك خافت أن يخدع رجال على ، فهرولت مسرعة تخترق الصفوف وقلبها يخفق فرحا لأنها تمكنت من القيام بهذه المهمة لأنها واثقة من فشل جند معاوية وان النصر لعلى اذا ظل على القتال . أما اذا صدق حيلة عمرو فانه يضيع الفرصة السانحة

أما على فكان قد قاتل ببسالة طوال نهاره وليله ، وقد تحقق فوز جنده ، وظل يطوف فى صفوفهم يحثهم على الثبات ويدعو لهم بالنصر الى أن عاد فى الصباح الى فسطاطه . فجاءه مخبر بأن أهل الشام رفعوا المصاحف على الرماح وهم يقولون : «هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم . من لثغور الشام بعد أهله . ومن لثغور العراق بعد أهله » . فلما سمع على كلامهم قال : « لا . لانجيبهم الى ذلك فهى حيلة لاتنطلى علينا »

فجاءه نفر من رجاله وقالوا : « بل نجيبهم الى كتاب الله »

فوقف على وقد خاف الفتنة وقال :

« عباد الله ، أمضوا الى حقكم وصدقكم ، وقتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن ابى معيط وحبيبا وابن ابى سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا ، فكانوا شر اطفال وشر رجال . ويحكم ، والله مارفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة »

فقالوا : « لايسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله »

فقال : « فانى انما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب ، فانهم قدعصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه »

فقال له مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى فى عصبة

من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج : « ياعلى ، اجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا دفعناك برمتك الى القوم ، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان »

قال : « فاحفظوا عنى نهيى اياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، فان تطيعونى فقاتلوا ، وان تعصونى فاصنعوا مابدا لكم »

قال ذلك وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما . وفيما هو فى هذا انشق الجمع وخرج من بينهم جندى لم يكن سوى أسماء ، وقدوصلت وسمعت الناس يحاجون عليا ، فهرولت حتى وقفت بينهم وبين على ، وثارت الحمية فى رأسها وعلى وجهها احرار التعب من شدة العدو ، فضلاعما قام فى نفسها من الاسف لتلك الحال ، فأسفرت وحيت الامام بتحية الخلافة ، والتفتت الي الوقوف هناك وقالت لهم : « اعلموا انى قادمة من معسكر معاوية ، وقد سمعت حديثهم عن الحيلة بأذنى ، وانما جئت مسرعة مخافة أن تنطلى الحيلة عليكم وتكفوا عن القتال (انها والله خديعة اخترعها ابن العاص ليلقى الشقاق بينكم . واخشى ان تنفذ حيلته فيكم فأطيعوا أمير المؤمنين وانتم الغانمون »

فضحكوا من كلامها وقالوا : « كيف ندعى الى كتاب الله ولانجيب. هذا لايكون ابدا »

ثم وجهوا كلامهم الى على وقالوا : « ابعث الى الاشتر فليأتك » . وكان الاشتر النخعى من أشجع قواد تلك الحملة وقد ابلى فى تلك الحرب بلاء حسنا ، وكان لايزال يحارب ، وهم انما طلبوا استقدامه ليكف عن الحرب . فبعث اليه فلم يأت لانه رأى الفوز بين يديه ، فاذا تحول عن موقفه فسدت أعماله

فلما أبطأ قال أولئك الناس لعلى : « نظنك أمرته بالحرب فابعث اليه والا والله اعتزلناك . فبعث اليه ثانية فجاء وهو يقول : « أظنكم تدعوننى الى الكف عن القتال بعد رفع المصاحف »

ثم أقبل وهو يقول :

« يا أهل العراق ، يا أهل الذل والوهن ، أحين غلبتم القوم وظنوا انكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ، فأمهلونى فواقا فانى أحسست بالفتح » . ولكنهم لم يمهلوه

قال : « أمهلونى عدو الفرس فانى قد طمعت فى النصر »

قالوا : « اذن ندخل معك فى خطيئتك »

قال : « فخبرونى عنكم متى كنتم محقين ؟ أحين تقاتلون وخياركم

يقتلون ؟ فأنتم الآن اذا امسكتم عن القتال مبطلون . ام انتم الآن محقون؟ فقتلاكم الذين لاتنكرون فضلهم وهم منكم فى النار »

قالوا : « دعنا منك يا اشتر قد قاتلناهم لله وندع قتالهم لله »

قال : « خدعتم وانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوقا الى لقاء الله ، فلا أرى مرادكم الا فبحا ، يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزا ابدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون »

فسبوه وسبهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطه . فصاح به وبهم على : « كفوا » . وقال الناس : « قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما »

وطال الاخذ والرد بينهم ، وأسماء واقفة وقلبها يكاد ينفطر جزعا من عناد أولئك المخالفين ، فلما سمعت قبولهم اجابة الدعوة ، تناثرت الدموع من عينيها والتفتت الى على فاذا هو مطرق وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما كأنه يرى عاقبة ذلك بعينه ، فتعاظم غيظها وأرادت تأنيب المستخلفين ثم أحجمت ولبثت ترقب مايكون

□

وتقدم رجل من خاصة على ، فقال : « نرى الناس قد قبلوا مادعوا اليه من حكم القرآن ، فهل تأذن فى ان نسمع مايدعونا معاوية اليه من هذا الامر ؟ »

قال على : « سر اليه واسأله »

فذهب ثم عاد وهو يقول : « سألت معاوية عما حمله على رفع المصاحف ، فقال : « الرجوع الى ما امر به الله فى كتابه ، فابعثوا رجلا ترضون به ، ونبعث نحن رجلا نرضى به ، نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله ، لايتعديانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه »

فقال على : « قبلنا فأى رجل اختاروا »

قال : « اختاروا ان ينوب عنهم عمرو بن العاص »

فالتفت على الى من حوله وقال : « ومن تختارون أنتم ؟ »

قالوا : « نختار ابا موسى الاشعرى »

فأجفل على وقال : « لا . لا . . انكم لم تصيبوا . وقد عصيتمونى فى أول الامر ، فلا تعصونى الآن . لا أرى أبا موسى كفؤا لابن العاص ، وهو مع ذلك ليس بثقة ، فقد فارقنى وخذل الناس عنى - ثم هرب

منى حتى أمنته بعد اشهر . فكيف نركن اليه فى هذا التحكيم . هــذا ابن عباس اوليه ذلك »

فصاحوا بصوت واحد : « والله لانريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء » . قال على : « فانى أجعل الاشتر »

قالوا : « وهل سعر الارض غير الاشتر » . قال : « قد أبيتم الا أبا موسى »

قالوا : « نعم » . قال : « افعلوا ما أردتم »

وكانت أسماء تسمع الجدال وهى تتميز غيظا ، ولكنها لاتجرؤ على الكلام تهيبا من على

وبعد قليل جاء ابو موسى الاشعرى وعمرو ، فدخلا على على ليكتبا القضية بحضوره ، وهى صورة عقد التحكيم فبدأوا بكتابة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه امير المؤمنين . . » . فاعترض عمرو قائلا هو اميركم وليس اميرنا ، وطــال الجدال فى ذلك حتى وقع نفور شديد بين على وعمرو وانتهى الامر الى أن يكتب العقد على هذه الصورة

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليــه على بن أبى طالب ومعاوية بن ابى سفيان ، قاضى على على اهل الكوفة ومن معهم ، وقاضى معاوية على اهل الشام ومن معهم . اننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، والا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته ، نحيى ما أحيى ونميت ما أمات . فما وجد الحكمان فى كتاب الله ، وهمــا أبو موسى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، عملا به . وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير مفرقة . واخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق انهما آمنــان على نفسيهما واهليهما ، والامة لهما انصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى عبد الله ابن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة لايردانها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيــا . واجل القضــاء الى شهر رمضان ، وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه ، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين اهل الكوفة وأهل الشام » . ويلى ذلك اسماء الشهود

وقد كتب هذا العقد فى ١٣ صفر سنة ٢٧ هـ

ولما تمت الكتابة ، تلى العقد على الناس ، وانفض المجلس ولجأ الجنود الى الهدنة ريثما يحل الاجل المضروب لمجلس التحكيم

وتراجع الناس عن صفين وهم على بالنزوع الى الـكوفة ، فجاءته اسماء فى ساعة كان فيها مختليا ، وقبلت يده فسألها عن حالهــا وما تم لها بعد سفرها ، فقصت عليه خبرها وما حملها على القدوم قبل مقابلة القسيس ، فأثنى على غيرتها ودعاها الى الذهاب معه الى الكوفة

فقالت : « حبذا الامر ولكنني أقرب الآن الى انطاكية مني الى الكوفة ، فاذن لي بالذهاب اليها ، فقد آن لى أن أعرف نسبى » . فأطرق على برهة يتأمل فخافت أن يكون فى شاغل آخر فودعته وخرجت على أن تعود يوم التحكيم لتسمع حكم الحكمين

وكان المسلمون فى انتظار ذلك اليوم لأنه سيكون عظيما ، ولم تفتقد محمدا لأنها علمت انه فى مصر يتولى أمورها

□

عادت أسماء الى الجبل حيث تركت جوادها وخادمها وخلعت ثيابها وركبت الى انطاكية لا تستريح ليلا ولا نهارا

فأشرفت عليها من جبلها الشرقى ، وأطلت على البحر فلمحت شيئا كأنه سفينة حجبها البعد عنها ، فخفق قلبها سرورا وهبطت من الجبل حتى اذا دنت من المدينة سمعت دق الاجراس دقا بطيئا متقطعا فقالت فى نفسها : « لعلهم يحتفلون بقدوم البطريرك ، ولكنها لم تكد تسير فى الطريق الكبير حتى رأت الناس محتشدين يتقدمهم رهط من الاكليروس بالمباخر فعلمت انه احتفال بجنازة

ولا تسل عن حالها لما علمت أنها جنازة القسيس مرقس وقد مات بعد وصوله الى أنطاكية بيومين ، فانها لطمت وجهها وندبت سوء حظها ، وذهبت توا الى الخان وأقفلت باب غرفتها وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، وجعلت تعدد ما أصابها من الاحن منذ ولادتها ، وكم قاست من المصائب وكم عانت من الأخطار ، حتى اذا دنا وقت سعادتها وآن لها أن تعرف أباها داهمها القدر بالفشل الذريع

وتذكرت مروان وما قاست من البلاء بسببه ، وتذكرت عذابها فى الصحراء بين مكة والبصرة ، وما قاسته على أثر ذلك . وغرقت فى تيار هواجسها ، وتحققت سوء حظها ، وتمنت أن تموت فتخلص من العذاب . ولما تمنت ذلك أجفلت وندمت لأنها تصورت محمدا وحبه لها وما ترجوه من السعادة بقربه فقالت : « لا . . لا أموت بل أحيا لأجل حبيبى ، وأقصى مرادى ، وهو تعزيتى الوحيدة فى هذا العالم ، فاذا خسرت الدنيا كلها وفاتنى كل نعيمها وحصلت على محمد بن أبى بكر فذلك يكفينى »

وبعثت خادمها يستطلع مكان التحكيم وزمانه فأنبأها انه سيكون فى « أذرح » فى أطراف الشام من أعمال السراة بنواحى البلقاء وعمان فى زمن معلوم ، فلما دنا الأجل تنكرت وسارت تلتمس أذرح والخادم معها

حكم الحكمين

ولما جاء الاجل المعين لتلاوه حكم الحكمين ، بعث على ابا موسي الأشعرى فى أربعمائة رجل ومعهم عبد الله بن عباس . وبعث معاوية عمرو بن العاص فى اربعمائة من اهل الشام والتقوا باذرح. وكان عمرو ابن العاص قد استعان بكل دهائه فى اقناع أبى موسى بأن يوافقه على خلععلي وتوليةمعاوية لأنه المطالب بدمعثمان، فلما لم يفلح ذكرله تولية أحد ابناء الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، وبعد جدال عنيف اتفقا على خلع على ومعاوية ، وأن يختارالمسلمون واحدا غيرهما بالشورى . وكان من دهاء عمرو انه ما زال يدافع أبا موسى فى الكلام حتىطلبهذا خلع الاثنين فأصبح هوالبادىء فىالكلام عند اصدارالحكم

فلما جاء اليوم المعين ، واجتمع الناس من الأقطار وصلت اسماء أيضا فى ذلك اليوم فوقفت بين الناس بحيث لا يعرفها أحد ، فرات ابا موسى وابن العاص فى مجلس على ، وبقية الناس فى جانب آخر كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون مايكون من الحكم

فوقف أولا ابو موسى، فأصغى الناس لمقاله فقال بصوتعال يسمعه الحاضرون : « ايها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الامة فلم نر اصلح لأمرها ولا الم لشعثها من امر قد اجمع رايى وراى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ويولي النـاس من امرهم من احبـوا . وانى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا من رأيتموه أهلا »

وكان لقوله وقع عظيم ولبث الناس ينتظرون قول عمرو فاذا هو قد وقف وقال : « ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه (عليا) وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، واثبت معاوية فانه ولى عثمان بن عفان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فلما سمع أصحاب على قوله علموا أنها حيلة من عمرو وغفلة من ابى موسى ، ووبخوا أبا موسى وأنبوه فقال : « ما العمل فقد غدر بى »

وأما أسماء فلما سمعت القولين علمت أن معاوية قد اشتد ساعده، وأن رجال على لا بد أن ينقسموا بين من يقبل الحكم ومن لا يقبله ، فلم تستطع صبرا على البقاء هنـاك ، فخرجت من بين الجمع لاتأوى على

شيء وقد صفرت نفسها . وما زالت سائرة والخادم معها حتى اتت شجرة منفردة فى الصحراء فاستظلت بها وشغلت الخادم بتدبير الجوادين وخلت الى نفسها وجعلت تفكر فى حالها وما اصابها من الفشل المتوالى من كل صوب وحدب ، ولا سيما موت القسيس وضياع اسم أبيها وفشل رجال على وخروج الخلافة من يده بحكم الحكمين ، فغلب عليها اليأس فلم تر لها فرجا الا بالبكاء والنحيب ، فنظرت الى ما حولها فاذا هى منفردة وليس من يسمع بكاءها فأطلقت لدموعها العنان حتى كاد يغمى عليها . وما زالت تشهق وتزداد شهيقا كلما ذكرت عليا أو امها أو محمدا . حتى تعبت وجف دمعها ، فالقت راسها على حجر ونامت ولكنها لم تستغرق فى النوم اذ تراءى لها طيف محمد فأفاقت مذعورة وهى تقول : « أهلا بحبيبى لا تعزية لى الا به . انه فى مصر الآن ، هل من يعلمه بما حل بأمر الخلافة ، وان ابن العاص قد كاد فيها كيدا عظيما . آه يامحمد هل من حيلة تخدم بها عليا رجل هذه الامة ، لا اظن الامر بعد الآن الا صائرا الى معاوية . أما انا المسكينة اليتيمة المجهولة النسب والتعسة الحظ فربما كنت أنا وحدى سبب هذا البلاء ، وربما كان سوء طالعى هو الذى جر كل هذه المصائب » . وسكتت هنيهة ثم انتبهت بغتة وهى تقول : « محمد ، محمد ، أنت تعزينى فى أحزانى ومصائبى ، هلم بى اليك لأعيش بقربك فانت الاب والأخ »

وفيما هى تخاطب نفسها لمحت الخادم عائدا بالجوادين وهو يسرع نحوها فقالت : « ما وراءك ؟ »

قال : « التقيت وانا اسرج الجوادين بشرذمة من رجال الشام ركبوا مسرعين وفيهم عمرو بن العاص وكلهم فرحون بما نالوه ، وسمعت ابن العاص يقول : « لقد استقام لنا الامر ، ولم يبق الا ان افتح مصر ، فاذا دانت لى عدت الى ولايتها ولا يبقى فى يد على الا العراق والحجاز فنجرد عليهما ونفتحهما »

فلما سمعت ذكر مصر وفتحها اضطربت وتذكرت محمدا فيها فقالت فى نفسها : « اذهب الى مصر الآن وارى ما يؤول اليه امرها » . ثم التفتت الى الخادم وقالت : « وما ظنك فى مسيرهم الى مصر ؟ »

قال : « لا أدرى متى يسيرون فلا بد لهم من الشخوص الى الشام وتدبير امورهم ثم يحملون على مصر »

فلبثت مدة تتردد . ولا تدرى هل تسير الى مصر لترى محمدا ام تسير الى الكوفة لترى عليا وما آل اليه أمر خلافته .

ولم تر بدا من المسير الى مصر ، فاسرعت الى جوادها فركبته وقد يئست مما اصابها من الفشل ، وسارت تعلل نفسها بلقاء محمد

عمرو يعود إلى القاهرة

مر بنا ما كان من اجتماع دعاة عثمان فى مصر وعزل قيس بن سعد عنها بما دبره معاوية من الحيلة حتى افسد ما بينه وبين على . ثم ما كان من تولية محمد بن ابى بكر ، فلما تولاها محمد بعث رجلا من خاصته لحرب اهل خربتا القائمين بدعوة عثمان فقتلوه وتعاظم امرهم وفسدت مصر كلها على محمد . فبلغ ذلك عليا فقال : « ما لمصر الا أحد الرجلين » . يعنى قيسا او الأشتر ، وكان قد عزل قيسا فلم يرجع اليه ، فبعث الى الأشتر وكان قد عاد بعد صفين الى عمله فى الجزيرة . فلما جاءه أخبره خبر مصر وقال : « ليس لها غيرك فاخرج اليها ، فانى لو لم اوصك اكتفيت برايك » . فخرج الأشتر شاخصا الى مصر . واتت عيون معاوية اليه بذلك ، فعظم الامر عليه ، وكان قد طمع فى مصر لكثرة خيراتها ليستعين بها على اعماله وحروبه . وعلم أن الأشتر ان قدمها فسيكون اشد عليه من محمد بن ابى بكر

وكان على حدود مصر يومئذ بلدة اسمها القلزم بالقرب من مكان السويس ، يغلب أن يمر بها القادم من الشام الى مصر ، وكانت القلزم هذه فى حوزة معاوية

فبعث معاوية الى صاحب خراجه فى القلزم يخبره بمسير الأشتر الى مصر وقال له : « فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت »

فلما مر الأشتر بالقلزم استقبله صاحب خراج معاوية ، فعرض عليه النزول ، فنزل عنده ، وأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سما فلما شربها مات ، فظلت مصر بأمرة ابن ابى بكر . فازداد طمع معاوية فيها وهو يرجو منها خيرا ، فاستشار ابن العاص فقال : « على بها ، انى فاتحها الاول ، ومن أولى بها منى ؟ » . وجرد جيشا كبيرا وسار قاصدا مصر فلما علم محمد بحملته ، بعث الى الامام يستنجده ، وعلمت أسماء بذلك فسارت اليها كما تقدم

وكان محمد لم ير اسماء منذ افترقا فى البصرة يوم خرج مع اخته ام المؤمنين الى مكة . على انه علم بما دار بينها وبين الامام على ، على

اثر وقعة الجمل فى شان خطبتها للحسن ، اذ اخبره الحسن نفسه بذلك وهو لا يدرى انه مناظره عليها ، وقد سر محمد مما قاله الامام على من أن غموض نسبها يمنع الحسن من زواجه بها ، كما سره تحققه من بقاء اسماء على عهده . وأخبره الحسن أيضا انها سارت الى بيت المقدس لمعرفة اسم أبيها ولكنه نظرا الى اشتغاله بأمارة مصر وما احاط بها من المشكلات وما قام فيها من الثورات المتوالية التى اضرم نارها دعاة عثمان فى خربتا وغيرها ، لم يتمكن من مكاتبتها ، ولكنه كان يسأل عنها ويتخسس أخبارها . فكان تارة يعرف مقرها وطورا لا يعرفه . وآخر ما علمه انها كانت فى مجلس الامام على يوم خالفه اصحابه فى قبول التحكيم ، وسمع ما أظهرته هناك من الحمية ، فتذكر حديثها وتصورها امامه تشير بيدها وتتكلم وتتهدد ، فارتاح لتلك الذكرى واشتاقت نفسه للقياها

على انه عاد فتذكر ما رآه الامام على من حيلولة غموض نسبها دون اقتران الحسن بها ،فقال فى نفسه : « اذا عرفت اباها كان أمرها اشكالا فان الحسن لا يتخلى عنها ، واذا ارادها الحسن وطلبها له أبوه فكيف أطلبها انا » . فلما تخيل ذلك عظم عليه الامر ، وتمنى لو بقيت على جهلها نسبها فتكون أقرب اليه ، وصورت له الغيرة ان حرمانهما معا منها خير من ان يأخذها احد غيره

وما زال يردد هذه التصورات فى ذهنه حتىجاءه كتاب منها بموت القسيس وضياع السر ، وقد أشارت فيه الى رغبتها فى المعيسة معه بوصفها أختا أو صديقة ، فتحقق صدق مودتها وبقاءها على العهد فسر سرورا عظيما ، ولبث ينتظر عودتها وهو يكرر تلاوة الكتاب وقد استأنس به لأنه هاج اشجانه بعد أن طال زمن الفراق ، وكان كلما تلا الكتاب تصور أسماء واقفة بين يديه تخاطبه ويخاطبها . ولكن استئناسه بوجودها لم يطل لاشتغاله بمهام الحرب . فبينما هو ذات يوم فى الفسطاط عاصمة الديار المصرية فى ذلك الحين اذ جاءته عيونه بخبر أهل الشام ، وانهم حاملون عليه بقيادة عمرو بن العاص

وكان عمرو قد كاتب محمدا يطلب اليه التسليم ، فأرسل محمد الكتاب الى على يستنجده ، فكتب اليه على أن يجمع شيعته ويندبهم للقتال ، ووعده بانفاذ الجيوش لنجدته ، فأخذ محمد فى التأهب بمن عنده من الرجال ، فجهز كنانة بن بشر فى الفين ، وسار هو فى أثره بألفين

أما عمرو فانه دخل مصر من الشرقية وجعل يسرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة ، وكنانة يلقى كتائبه ويفرقها ، حتى كاد الفشل يحيط

بجنود الشام لو لم تأتهم نجدة قوية بقيادة معاوية بن حديج فاشتد أزرهم

اما جند مصر فلم تأتهم نجدة لتقاعد العراق عما دعاهم اليه على ، ولكنهم حاربوا حربا شديدة دافعوا فيها دفاع الأبطال ، ونزل كنانة عن فرسه ، وما زال يقاتل حتى قتل

□

سارت أسماء من الكوفة ، وكانت كلما تقدمت نحو مصر ازداد قلقها على محمد . وكانت قادمة وحدها على جوادها فاضطرها ذلك الى المسير بجوار المدن استئناسا بالناس ومخافة العطش ، فسارت على ضفاف الفرات ثم تحولت الى الشام حتى وصلت الى دمشق ، فسمعت هناك بمسير حملة عمرو ، فسألت عما حدث بعد ذلك ، فعلمت انه بعث يستنجد معاوية وأن جيش مصر غالب . فسرت ولم تمكث فى دمشق الا ريثما استراحت وركبت تطوى الصحراء الى مصر ، ولما دنت من العريش وقيل لها أنها على حدود مصر ، تذكرت ما قاله رئيس دير البصرة عن أمها ، وأنها ولدتها فى مصر ، حيث عرفت يزيد هناك . فهاجت أحزانها ولكن تفكيرها فى محمد شغلها عن كل ذلك

ولما دخلت مصر مرت أولا بالفرما ، وهى مدينة كانت فيما يجاور بور سعيد الآن . وما كادت تصل اليها حتى أخذت تسأل عن أمر الحرب بين محمد وعمرو ، فأخبروها أن ابن العاص جاءته النجدة بعد أن كاد يفشل ، ولحظت من خلال حديث القوم أنهم على دعوة عمرو وانهم ميالون الى معاوية ، فانقبضت نفسها وخرجت من الفرما لا تلوى على شىء ، وبحثت عن مكان القتال فقالوا انه فى ضواحى الفسطاط ، فجدت فى السير . وكانت فى كل سفرها لا تنام فى الليل الا قليلا حتى وصلت الى بلبيس فرأت أهلها فى هرج ، ورأت جماعة من الناس يدخلونها وفيهم من ربط يده او شد رنده أو عصب رأسه ، فعلمت أنهم عائدون من القتال . فاضطربت وسألت فى ذلك فقالوا : « ان جنود الشام تكاثروا بمن انضم اليهم من أهل مصر الذين هم على دعوة عثمان ، وقد بايعوا معاوية وهو بعيد . وان كنانة بن بشر قتل وتشتت جند مصر . فسألت عن محمد فلم ينبئها بخبره مخبر ، فاختلج قلبها فى صدرها وقالت : « ومتى كان ذلك ؟ » . قالوا : « كانت الوقعة أول من امس وقد دخل عمرو الفسطاط »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلم تستطع صبرا فركبت وقصدت الى مكان الوقعة وعيناها تحدقان فيما أمامها لاتبالى ما يهددها من الخطر

وسدل الليل نقابه فلم تعد تستطيع النظر الى بعيد ، وخافت أن تضل الطريق ففكرت فى الامر وهى سائرة الهوينى وقد تهيأت للدفاع بسلاحها اذا اعترضها عدو . فما لبثت ان رات القمر قد بزغ فتلقته بالترحيب واحست عند رؤيته بانفراج الأزمة ، ولكنها رأت بعضه ناقصا وهو قبيل ربعه الاخير فخيل اليها لفرط انشغالها بأمر الحرب انه خارج من المعممة وقد شطب وجهه بالسيف

ولما طلع القمر استنارت وجدت فى السير تلتمس الفسطاط . وكانت لما خرجت من بلبيس ترى بعض المارة قادمين اليها افرادا وازواجا ، ولكنها لم تكد تبعد عنها حتى خلت الطريق من الناس ، فظنت نفسها سائرة فى طريق لاتؤدى الى الفسطاط ، فوقفت وتبينت الجهات جيدا فرات انها اخطأت الجهة والتفتت فلم تر امامها الا صحراء قاحلة فرجعت يمينا حتى أصبحت فى ارض زراعية وسارت نحو الجنوب ، والقمر الى يسارها يعلو رويدا رويدا حتى أصبح يريها الأشباح عن بعد . ووادى النيل أرض منبسطة لا جبال فيها ولا أودية

ومضى معظم الليل وهى جادة فى سيرها حتى تعبت وجاعت واحست بالبرد يفرسها وهو شديد فى مصر بعد منتصف الليل حتى فى ابان الصيف . فترجلت ومشت لتدفأ ، وقادت جوادها والجو هادىء والارض خالية من الناس لا تسمع غير وقع حوافر جوادها وصهيله

وبينا هى ماشية تفكر فى شأنها اذ سمعت جوادها يصهل وقد أجفل ، فالتفتت الى ما اجفله فرات شبحا منطرحا أرضا وشمت رائحة منتنة . فدنت من الشبح فاذا هو جثة قتيل جائفة فخفق قلبها وعلمت انها على مقربة من مكان الوقعة ، فتجلدت وقد شعرت منذ رأت تلك الجثة بارتعاش نسبته الى البرد وما هو فى الحقيقة الا نتيجة ما طرق ذهنها من التصورات المرعبة عن محمد

ومشت والجواد وراءها والروائح تتعاظم ثم رات جوادها اجفل ثانية اجفالا عظيما من جيفة جواد وراءها جيف كثيرة تطايرت عنها الكواسر وقد حلقت فى الجو وصفقت فى طيرانها تصفيقا زاد الفرس اجفالا، فارتبكت فى امرها ، وهى تود البحث بين الجيف مخافة ان يكون محمد بينها والجواد يمنعها باجفاله وصهيله ، فعمدت الى شجرة ربطته اليها وعادت وقلبها يخفق وركبتاها ترتعدان وعيناها تحدقان فى تلك الساحة وفيها الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وبين القتلى من استلقى على

ظهره وبسط ذراعيه كأنه يستقبل شيئا يستغيث به وقد جعله البلى جلدا على عظم وأكلت بعضه النسور ، ومنهم من انبطح على بطنه وقد قبض باحدى يديه على رمح وبالأخرى على التراب. ورات هناك رؤوسا مدحرجة وجثثا بلا رؤوس ، تراكم بعضها فوق بعض

وواصلت سيرها وهي تجر نفسها جرا بين تلك الجيف . وتحاذر أن تدوس على يد أو رجل أو راس ، وقلبها يخفق خفقانا شديدا تكاد تسمعه . ولو تأتى لها أن تنظر الى وجهها في مرآة لرأته اشد امتقاعا من تلك الجثث ، وتعبت من التفرس في الوجوه والثياب وأثرت تلك الرائحة الكريهة في راسها مع ما كانت فيه من التعب والجوع . فأصابها دوار وخافت أن تسقط فوق القتلى فتداركت نفسها وتنحت الى الشجرة التي ربطت جوادها اليها وجلست هناك وأسندت راسها الى جذعها تلتمس الراحة . ولكن افكارها ظلت تائهة ولم تبرح صورة محمد مخيلتها . ولم تكد تلقي راسها حتى غلب عليها النعاس فأغمضت جفنيها فتمثل لها محمد مقتولا فارتعدت فرائصها ونهضت مذعورة . وبينا هي تنهض رات الفرس يمد راسه الى الارض فالتفتت فرأته لفظ شيئا مضغه بين أسنانه فسمعت له صوتا كصوت القصبة اذا كسرت بين الأضراس ثم ما لبثت ان رأت الفرس يلفظ تلك الهناة فلمحت فيها شيئا أبيض فتناولته فاذا هو قصبة فيها رق ، فتبينته فاذا هو كتابها الى محمد ما زال في قصبته كما أرسلته اليه ، فهاجت شجونها وتحققت أن محمدا كان في الوقعة والقصبة معه فسقطت من ثيابه في أثناء القتال . وساءلت نفسها : « أين هو ؟ » . وكانت قد يئست من وجوده هناك ، وفي ذلك اليأس فرح لأنها تحققت نجاته من تلك الوقعة فلما وجدت كتابها خافت أن يكون محمد قد قتل هناك فعادت الى الجثث تبحث فيها

وكان القمر قد تكبد السماء وصفا الجو وظهر ما امامها جليا واضحا كأنها تنظر اليه في رابعة النهار . وكانت لا تحتاج في بحثها عن محمد الى امعان نظر ، فلو لمحت طرف ثوبه أو بعض عمامته عن بعد لعرفته، لأن صورته نصب عينيها ، ولكن الاثواب والعمائم تتشابه ، فلا تسل عن خفقان قلبها كلما رات شبحا يشبهه

□

وما زالت على تلك الحال حتى لاح الفجر وتبينت الوجوه فدارت بين القتلى تجدد البحث ، فطلع الفجر وهي تجول وتتفرس فلم تر أثرا

لمحمد فتحققت انه لم يقتل فى تلك المعركة . فلما سكن روعها احست بالتعب والنعاس والجوع فالتفتت الى ما حولها فرات بيوتا تكاد تتوارى لبعدها فعلمت انها منــازل اهل القرى ، فاتجهت اليها تلتمس طعاما وعلفا لجوادها فوصلت الى احــدها وحيت اهله . فرات امراة معهــا صبيان عراة يحومون حولها وهى تحلب لهم لبنــا من نعجة . فلمــا رأى الصبيان أسماء قادمة على فرسها صاحوا بأمهم ففزعت وفزعوا جميعا . فتركوا النعجة ودخلوا الكوخ فنادتهم أسماء وطيبت خاطرهم فعادوا فقالت لهم : « عندكم علف لهذا الجواد ؟ » قالوا : « نعم » . واعتذروا من خوفهم بأنهم قاسوا أهوالا كثيرة من المحاربين

واكرموا وفادة أسماء وجاءوها باللبن ، وللجواد بالعلف ، والتمست حصيرا تتكىء عليه ، فنهض صاحب الدار فأخذ الفرس وشده الى وتد وجاء بحصير كان قد خبأه تحت فراشه اعواما حرصا عليه ، فاتكأت أسماء على ذلك الحصير فى ظل الكوخ ونامت نوما عميقا لم تفق منه الا قبيل الغروب

ولم تفتح عينيها حتى رات رســولها الذى انفذته بكتابها الى محمد واقفا عند راسها ، فصاحت فيه : « أين كنت وأين هو محمد ؟ »

فعض على شفته وأشار بعينيه أن تسكت مخافة أن يسمعها احد من أهل البيت ، فنهضت ونفحت اهل الكوخ بما تيسر لها وسلمت الفرس الى الرجل ومشت الى جانبــه ، وسألته عما يعلمه عن محمد ومكانه وما الذى جاء به الى ذلك المكان

فقال : « ابشرى يا مولاتى ان محمدا قد نجا من هذه الوقعة »

فقالت : « وأين هو ، وماذا تم له ، اخبرنى ؟ »

قال : « انى ما فارقت محمــدا منذ جئته بكتابك ، وقد آنست فيه عطفا على لا أدرى سببه ، وحيثما توجه سرت فى ركابه اما راجلا أو راكبا . ولما كانت الوقعة منذ يومين فى هذا السهل وقتل كنانة بن بشر قائد مقدمته ، تفرق رجاله حتى اصبح وحيدا فألححت عليه أن يخرج من المعمعة خيرا من ان يقتل » . فلما وصل الرسول الى هــذا الحد امتقع لون أسماء وشخصت ببصرها لسماع تتمة الحديث

فقال : « وأما هو فعزم على البقاء فى ساحة القتــال الى الموت ، ولــكنى الححت عليه فى الخروج فأطاعنى ، فمشينـــا حتى انتهينا الى خربة جنب الطريق بالقرب من هذا الجبل (وأشار الى المقطم) فأوينا اليها ، وقضينا يومين بلا طعام ولا ماء . فلما رايت ظمأ ســيدى استأذنته فى الخروج لآتيه ببعض الماء والطعام ، فأوصانى بأن أبحث عن كتابك فقد كان معه فى أثناء المعركة وفقد منه »

فقالت : « اما الكتاب فقد وجدته بل وجده هذا الجواد . وأين محمد الآن ؟ هلم بنا اليه ومعنا الماء »

فقال : « انه حيث قلت لك على مسافة قصيرة من هنا »

قالت : « احمل له الطعام والماء وهلم بنا »

قال : « أما من خوف علينا ؟ » . قالت : « ان الشمس لاتلبث أن تغيب ويخيم الظلام فلا يرانا أحد ، وأرى ان نبقي هذا الجواد هنا لئلا يدل علينا » . فأخذ الرجل الجواد وعاد الى الكوخ . وبعد قليل رجع بقربة مملوءة ماء وبأرغفة وشيء من الجبن

وسارت أسماء ورسولها وقد خيم الظلام ، وكان يمشي أمامها يدلها على الطريق وهي تكاد تتعثر بأذيالها للهفتها وسرعتها . وقضت مسافة الطريق لاتتكلم لشدة اضطرابها لما تتوقعه من الانفعال عند لقيا محمد

وقضيا ساعة سائرين لايكادان يميزان الطريق لو لم يكن جبل المقطم ظاهرا امامهما في الافق فجعلاه وجهتهما ظنا بأن محمد مختبيء بالقرب منه . وكانا يمران تارة بين خيام وآونة بأعشاش وأكواخ صغيرة ، حتى وصلا الى جانب المقطم ، فتقدم الرجل وسارت أسماء في أثره ومتى هو يلتمس الطريق بين أنقاض الخرائب وهي تتبعه وقلبها يدق توقعا للبغتة التي ستصيبها عند اللقاء بعد طول الغيبة

وبعد هنيهة اختفى الدليل في ظلمة مدلهمة هناك ، فنادته بصوت منخفض فقال : « لقد وصلنا » . فدخلت في اثره الى بيت خرب لم يبق منه الا الجدران وبعض السقف ، ولم تكد تدخل حتى سمعت الرجل يقول : « أين انت يامولاي ؟ » . فلم يجبه احد . فقالت اسماء : « لعله كلن هنا » . قال : « نعم ، تركته في هذه الخربة »

قالت : « فلنبحث عنه في غيرها فقد تشابهت الخرائب عليك . وأخذا يفتشان كل الاماكن المجاورة فلم يقفا له على أثر ، حتى تعبا وملا التفتيش فقالت أسماء : « ماقولك في غيابه ؟ » . قال : « لا أدري ، وأخشى أن يكون عمرو قدعرف مكانه فبعث من قبض عليه وهو اعزل »

فلما سمعت ذلك رجف بدنها وقالت : « وكيف العمل الآن ؟ »

قال : « اني طوع أمرك » . قالت : « عد بنا الى حيث كنا ، نلبث هناك الى الصباح ثم نسير نستأنف البحث عنه »

وعادا حتى أتيا الكوخ وعرفاه من صوت الجواد فانه حالما اشتم رائحة القادمين صهل ورفس الارض بحافره ، وباتت أسماء عند ضاحية الكوخ ، وبكر الرجل في الصباح للبحث عن محمد ومكثت هي في انتظاره

مقتل محمد بن أبي بكر

طال انتظار أسماء عودة رسولها ، فقلقت وندمت لأنها لم تخرج معه للبحث عن محمد ، واضحت الشمس ولم يرجع فازداد قلقها ولم يعد يطيب لها مقام فمشت بين تلك الاكواخ الى الجهة التى تتوقع أن يكون رسولها قادما منها حتى بعدت مسافة . وبينما هى تتطلع الى آخر الطريق اذ رات شبحا مسرعا نحوها عرفت من قيافته انه رسولها فاختلج قلبها وحدقت لترى مايبدو منه ، فاذا هو يسرع حتى وصل اليها يلهث من شدة التعب وقد احمرت عيناه وكلل العرق جبينه

فصاحت فيه : « ماوراءك ؟ . قل . ماخبرك ؟ . هل وجدت محمدا ؟ » . قالت ذلك وقلبها يزداد خفقانا

فقال وهو يلهث لهثا شديدا : « آه يامولاتى . نعم وجدته . ولكنه . ولكنه فى خطر من القتل . . »

فصاحت : « وكيف ذلك ؟ ومن يقتله ؟ »

قال : « انهم علموا بمكانه فى الخربة قبل وصولنا اليها أمس . . آه ضاق صدرى من التعب امهلينى أستنشق الهواء . دلهم عليه بعض المارة ، فحملوه وهو أعزل الى الفسطاط . . »

فقالت : « وبعد ذلك . ماذا جرى ؟ »

قال : « لما خرجت فى هذا الصباح قصدت الى الفسطاط رأسا لأنى أعلم انه لايبرح مكانه اذا لم يقبضوا عليه ودخلت الجامع وتظاهرت بالصلاة ، فرأيت ابن العاص، وعبد الرحمن بن أبى بكر أخا سيدى محمد، وسمعت عبد الرحمن يقول لعمرو : (أتقتل أخى صبرا ، ابعث الى ابن حديج فانهه عنه) . فعلمت ان معاويه بن حديج هو الذى قبض عليه ويريد قتله . فطار صوابى وودت ان أعرف أين هو ابن حديج لأذهب اليه ، فسمعت عمروا يقول لأحد رجاله : (اذهبوا الى ابن حديج وقولوا له أن يكف عن قتل محمد ويأتينى به) . فخرجت فى اثر ذلك الرسول حتى وصلت الى مكان بين الخربة والفسطاط ، فرأيت فيه جمعا متكاثفا بينهم ابن حديج ومعه رجاله ، وقد أحاطوا بمولاى محمد . وقد رق جسمه من العطش والجوع . وتقدم رسول عمرو الى ابن

حديج وابلغه أمر عمرو فقال : (قتلتم كنانة بن بشر ، واخلي انا محمدا . . ؟ هيهات هيهات . . »

ولاتسل عن اسماء عندسماعها هذا النبأ ، وكيف كان وجهها يتلون . فتطاولت بعنقها وحدقت ببصرها لترى ماتم بعد ذلك وهي تقول : « جزاهم الله شرا على هذا القول . لا . لا . لا اظنه يقتله رغم امر عمرو ولكنه اساء الادب »

فقال الرجل : « ولو اقتصرت اساءته على ذلك لكان خيرا ، ولكنه منع عن سيدى الماء فقد سمعته باذنى يطلب منهم ان يسقوه ، فقال له ابن حديج بقحة واستخفاف : (لاسقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا ، انكم منعتم عثمان شرب الماء ، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم الغساق) . . »

فلما سمعت اسماء ذلك قالت : « خسىء النذل » . واصاخت بسمعها ، فاتم الرجل كلامه وقال : « فاجابه سيدى محمد : (يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليك ، انما ذلك الى الله يسقى أولياءه ويظمىء اعداءه أنت وامثالك . اما والله لو كان سيفى بيدى ما بلغتم منى هذا) . . »

فلم تعد اسماء تستطيع صبرا على سماع تتمة الحديث وقالت : « وماذا جرى ؟ »

قال : «سمعت ابن حديج يقول له : (اتدرى ما اصنع بك ؟. ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار) . . »

فصاحت أسماء والدمع يتساقط من عينيها وهى تتشدد وتتجلد : « خسىء ابن اليهودية انه لايجسر على ذلك »

فقال الرجل : « فلما سمعت قول ابن حديج اسرعت اليك بالخبر ، لانى رايت الشر باديا على وجوه القوم »

فالتفتت اسماء وراءها فرأت الكوخ بعيدا ولا سبيل لها الى الرجوع اليه لتمتطى جوادها ، ولم تعد تطيق الصبر عن المبادرة الى محمد فسألت : « هل يبعد المكان من هنا ؟ » . قال : « انه قريب» . فقالت : « هلم بنا اليه» . ومشت وهى لاتدرى كيف تنقل قدميها لعجلتها ولهفتها ، والرجل لايستطيع اللحاق بها لأنه كان لايزال تعبا وليس فى قلبه ما فى قلبها من نار تتعجل خطواتها . ومضت ساعة وهما سائران دون أن تدرك المكان ، فندمت لمجيئها ماشية وقد كانت تظن المسافة أقصر من ذلك

ثم اشرفا على ساحة فقال الرجل : « كانوا فى هذه الساحة ، ويلوح لى انهم ساروا الى الفسطاط ، فمشت حتى أتت المكان الذى كانوا فيه

فرات آثار دم وكان شيئا قد جروه جرا . . فارتعدت فرائصها وجد الدم فى عروقها وصاحت : « ويلاه انهم قتلوه . نعم قتلوه . آه يامحمد ياحبيبى » . فقال لها الرجل : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « اما ترى الدم وآثار جر الجثة » . ثم لطمت وانحدر الدمع على خديها ، ومشت تتبع آثارالجروعيناها لاتريان الطريق لما يغشاهما من الدمع ، فلم تمش قليلا حتى اشتمت رائحة شواء فمسحت عينيها وتطلعت فرات دخانا يتصاعد من خربة . فايقنت انهم قتلوه واحرقوه فى جوف الحمار كما قالوا.

فهرولت الى الخربة لاتلوي على شيء ، فرات هناك جيفة حمارحولها النار موقدة وجوفها مشقوق فتفرست فى ذلك الشق فرات من خلال اللهيب رأس محمد مغمض العينين كأنه فى سبات عميق ، فصاحت : « محمد ، آه ياحبيبى . لقد صح قولهم وفعلوا ما ارادوا ، قتلهم الله » . وهمت بأن تلقى نفسها فى النار فأمسكها الرجل من ثوبها . فلطمت وحلت شعرها واخذت فى الندب والعويل وهى تمسح عينيها كل لحظة وتنظر الى جثة محمد من خلال اللهيب فتراه لايزال نائما ، فتناديه فلا يجيب ، فتهم بأن تلقى نفسها فوقه والرجل يمسكها

فضاقت بها الحيل فجعلت تدور حوله وتندبه وتندب نفسها وتقول : « يا لشقائى . . آه يا حبيبى يا محمد ، انك لم تلق حتفك الا من سوء طالعى فلو لم احبك لم تمت . . ويلاه . . ويلاه . ماذا اعد من النحوس المحدقة بى . . لا ريب انى ولدت شؤما على نفسى وعلى كل من هم حولى. نعم عاكسنى الدهر ولكنه لم يصب منى مقتلا لأن آمالى كانت عالقة بحبيبى محمدوقد صبرت فى مصائبى املا فى لقائه ، ورضيت من الدنيا أن أكون بقربه . ولكن آه . آه . . لولا هذه الآمال لم تقتل يا محمد ، لقد قتلت ليتم شقائى . . فأنا سبب القتل . ولكن كيف تموت هكذا ؟ كيف يختلط جسدك بالتراب ؟ بل كيف تموت هذه الميتة وابقى أنا حية . . كلا ثم كلا »

قالت ذلك وألقت نفسها فى اللهيب كأنها تعانق محمدا ووجهها فوق وجهه . فأسرع الرجل الى انتشالها فاذا هى تختلج اختلاج الموت

فبكى الخادم بكاء مرا وصبر حتى خمدت النار ، فجمع رفات الحبيبين ووضعه فى قبر واحد وقال : « انا لله وانا اليه راجعون »

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها :

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخرساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان